الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث عشر

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث عشر

دمشق

١٩٩٥ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

ـ من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ـ للعماد الاصفهاني

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سـلف لنا التعـرف الى بعض المؤرخين المسـلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبـار الصراع مع هؤلاء الغزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تـولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صـاحب النيل على تـاريخه ، وكان العماد الاصفهاني ـ وفيما بعد ابن شـداد ـ قـد شـارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فـائق الاهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الأهمية بددتها صنعة الكلام التـي ابتلي بها العماد أكثر من سواه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بـن حـامد الاصـفهاني ، ولد في اصفهان سنة٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومـات بـدمشق سـنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١م ، وهو بعمره المديد كان شاهد القرن السـادس للهجـرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من اسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منهـا بـالادارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العمـاد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الاولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الادارية ، وتمتـع بالسلطة وعاني من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفجعة آنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ /١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعدة شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيأ له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثر هذا بـامد وجيز اسـتخدمه صـلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشـارات مفصلة للعمـاد وللادوار التـي تولاها ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العمـاد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم ـ بحكم كونه اتقـن نظم الشعر ـ بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وذيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ ـ كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسـلاطين السلاجقة ووزرائهم وأعيان دولهم ورجـالاتهم ، وبنى أصـل هـذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بـن خـالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصـدور زمـان الفتـور » ، ونظـرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قـام الفتـح البنداري في العصر الايوبي بتهذيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبـوع في ايدي الناس ، هذبه البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ ـ كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي الذي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العمـاد اسـتهدف من تصنيفه التأريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صـلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او آخر في كتابه .

٣ ـ « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعـل هـذا الكتـاب في سبعة اجزاء ، ارخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ حتـى وفـاة صـلاح الدين ، اي ارخ فيه للدولتين النورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابـو شـامة في كتـابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بـاكمله ، بـل وصـل الينا مـن أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جـل المتبقـي مـن الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسـها والمكان نفسـه ، وذلك اعتمـادا على المخـطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في اكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العـامة بـالرباط ، وهـي مصـورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السـوسي ، ولانعـرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هـذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغتـه ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقـة جـدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص اكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة الصـفحات : ١٧٠ ـ ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمـان فـوجدت فيهـا / ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مـع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابـن واصـل هـذه المصـاعب فاقتصرا بالنقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهذب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجـديد المهذب « سنا البرق الشامي » وسلف الباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة مـن هـذا الكتاب فنشر الجزء الأول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبـل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فوائد تذكر في تحقيق الموجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقاريء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتداده بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء ـ ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها واودعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ماكتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نفقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب الذيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقاريء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ ـ ذي القعدة ـ ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان ـ ١٩٩٥ .

من

كتاب البرق الشامي

للعماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت بـه في بحـار الانعـام بالاخلاص والحمد القلوب والألسنة ، والزمان التـي تقضـت على انتظار احسـانه الأزمنة ، والعصر الذي أحسـنت بـه الأمـة المؤمنة ، وظهـر فيه المكان المقـدس الذي سـامت اسـلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة • وتمكنت من رقـاب أعداء الله بـه الأسـنة بـأيدي أوليائه المتماكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السـنة نزل نص النصر ، وكفـت كف الكفـر ، وعلت اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهـم ايدي الأيد بالفتك ، وضاقت بهم رحاب الملك ، وطمـت للدين بـالسواحل بحـار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخـذلت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الأسرة تحـت الرق ، وطـالت ألوية الأولياء ، وسـالت أودية الاوداء ، ونال الأحمـاء فضـل رب السـماء ، وتجلت مـذاهب النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب مـن الخبيث ، وانتقـم التـوحيد مـن التثليث ، ودنت للدين اعانة العين ، واغاثـة المغيث ، وشـاع في الدنيا بمحـاسن الأيام الصـلاحية حسـن الأحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثـروه في البـلاء مـن التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التـي فجـأتهم فعمتهـم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلي وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحـود وأقـر مـن دأبـه

الانكار ، وملكت من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ الأوكار ، واعترى ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي ايامه والابكار ، وكانوا كما قال الله تعالى :« وترى الناس سكارى وماهم بسكارى » فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال ، ووسعت ووشعت الأقوال ، وحليت الفتوح ، وأمليت الشروح ، وأهديت المذوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام باحياء ذكرها الروح

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمته الغالية ، وفضيلته الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله متداركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب بالرغائب وقرب جنحية الأقارب والأقاصي . . . ٠٠٠ مظهرات مكرماته والجو هم على عادات علاء عداته (١)٠ ٠٠٠ وسمات حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الاسعاد ، وأمد ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من الأطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في القضم من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول محرم في العسكر العرمرم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب الى العدو والباس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل جهنم ، فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها منبع نحو الهيجاء ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلهـــا مـــطلع فلق فيالقـــة ، ومحيط مضــــارب سرادقة ، ومجال رواعده على بــوارقه ، ومجـــر ســوابغه مجــرى سوابقة ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقائقة ، ومحشر معاشرة ، ومربض آســاده وقســاوره ، ومخيم جيوشـه ومجثـم عساكره ، وأمر ولده الملك الأفضـل نور الدين عليا بـالاقامة هناك ليستدني اليه الأمـراء الواصـلين والامـلاك ، ويجمـــع الأعراب والأعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣) فرط الاستدراك ولايفارق لما يلزمـــه الاحــــاطة بعمله الادراك ، ويضــــم لمجمــــع الاجناد الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الأوقــات ، وســار الســلطان الى بصرى ، وخيم على قصر الســلامة ، وقـــد اســـتقبل مـــن الله الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه الهدنة • واعتمــاده من قطع الطريق واخافة السبيل كل مافي المكنة • وهــو على طــريق العسكر المصري والحــاج • شــديد الالتجـــاج • وفي بحـــر اللجاج • وكان في الحج حسام الدين محمـــد بـــن عمـــر بـــن لاجين • ووالدته اخت الســـلطان مـــع جملة مـــن الخـــواص المقربين ، وأقــام الى تلقـي الحجيج • واســتقبل محيا لقـــائهم البهيج • وريا رؤاهــم الأريج • وخـــلا مـــن منعلم سره • وتجلى لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صـــفر • ووجـــه صـــباحته لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فـــرغ بـــاله • جـــم الى الكرك استقلاله • وتقدم بمن معه من العســاكر حتـى نزل على حصـنها نزول الحـــاص الحـــاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبــرق • ونوقـــد ونحرق • ونرمق ونومـــق ، ونهـــرق ونزمـــق ، ونفـــرب ونشرق ، ونضايق ونضـــيق ، ونجمـــع البـــلاء على تلك البـــلاد ونمزق ، حتى اجتثت أصــولها وفــروعها ، واســتأصل كرومهـــا

وزروعها ، وقطع ماوجده من لينة ، وأذهب ماراقه من زينة ، وفرى وقرى وفصم العرى ، وابسط الذرى ، وهجم على ظهر الثرى ، وحلب حر النجح هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد باشارة رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر المصري متصل المدد ، محتفل العدد والعدد متضح الجد والجدد ، ومضطرم للهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهج الجمع ، آخذة بوارقه ورواعده ، بالبصر والسمع ، فقوي الاستظهار واستظهرت القوى ، وساقت وراقت مزاينه المجاوبة ومحاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودها بالنصر الأكمل والغنم الأجزل .

أما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه من كل فج عميق وضاق بوفودهم الفضاء ، وفاض بوفورهم القضاء ، واجتمع من دجى عثيرهم ومشى بذورهم الظلام والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحاب من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحافل من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاماهم على حينه ، فرأى الملك الأفضل ان يشغلهم بغزوة يعودون منها بحظوة ، فأنهض منهم سرية نخية على ذوي البسالة والبأس والشدة والمراس ، ورتب علي خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق ° وهو الذي بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق ° وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز ° وهو يفوق عضاء مضاربه الصارم

الهرماز والعضب الجـراز • فـأسرجوا الخيل • وأدلجـوا الليل . وجروا من السابريات النيل • وأجـروا مـن الأعوجيات السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخـر صفر • وصباح النصر قد افتغر • فخرج اليهم الفـرنج في حشـود جهنـم وريويديلملـم • وجنود ابليس واسـود تحمـي العـريس، وسراحين على سراحيب • وأهـاضيب تتحلحـل أهـاضيب • وتعتقـل انابيب وتشـتمل شآبيب • في الداوية بـأدواتها • والاسـبتار بـأسوائها • والبـارونية بـلأوائها • والتـركبولية وأرديائهـا • والفـرنجية بضرضائها • ووثبـوا في وثبـات الآسـاد • وحملوا في ثبـات الأجواد • فلولا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهـدى أهـل هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسـلام لايعتـز بـالاجر • لكن أمـرائه الكرام اسـتطابوا الحمـام • فـلاقوهم بقلوب الصخور • وحبور الصـقور • وبـاشروا بصـدورهم صـدور الأسنة • وغامروا بنحـورهم نحـور الأعنة ، فآتـاهم الله النصر المني ، والظفر السـني ، وسـقوا منهـم حنين الحنايا • وأدركوا فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحـازوا وانتصروا • وقتلوا وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فـرسانهم في قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقـد كبسوا وكسبوا • وسحبوا نيول الاختيال بصدق ماحسبوا •وكانت تلك النوبـة الحلوة • والخـطوة الصـفوة • بـاكوره البركات • ومقدمة مابعدها من ميامن الحـركات • واندرج ان الله يعلي لأوليائه الدرجـات • ويسـوق زمـر اعدائه الى الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشـوبك ندور ونجول • ونجور ونذور وعلى الأعداء منا الدحور والثبـور • فلما قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللباث وعقدنا عزم الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعاث .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بالعساكر ، وانتظم عمل الأوائل والأواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقدر يقول للسلطان تعيش وترى ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشتمل المعسكر على فراسخ عرضا وطولا ، وملأ بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا خيل صفون رحض كأنها حصون ، وزعف موضون ، وعضب مسنون ، وفيض مكنون ، وحركة وسكون ، وركوب وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحر من العسكر في البر مشحون، وضاقت الأيام عن عرضها ، وتقاضت الليالي بقرضها ، ونزلت جنود سمائها الى جنود ارضها ، فللمقانب مناقب، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكتائب من الشجعان مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصائب ، وللريح سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللسلاهب جنائب .وللحقائق حقائب، وللمواهب مذاهب ، وفي كل يوم اندفاق وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتلاء واعتلاق ، واعتناء واعتناق ، واجتماع لا افتراق ، وانطلاق واندلاق ، وامتراء وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفاق من ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمر وعتاق ، وسمر ودقاق ، وبيض رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجود دهاق ، وعرض العسكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشتمل على عدة جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بها الرياح ، ورماح شيلها المراح ، ورواسي سواري ، وأعلام جواري ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمام ، وضارب بضرام وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحاسم بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأسد فارس ، وللروع ممار ممارس ، وللصبح بما يثيره حابس ، وباشر بالكريهة غير عابس ، قادح لسنا السنابك قابس ، مناف لعداة الاسلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله مظاهر ، ولمعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، وللفتخ الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجد حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع * والتهب الجمر . واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت الضمر . وبرقت البيض والسمر . وردت بالردى العداة الزرق المنايا الحمر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنضرة ثمر النصرة أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغر الأيام الغبر . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر. واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحديده وحدته . وبيضه ومجره ولجبه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها . والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال . وعين الجاليشية من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير موضعه . ولكل منير مطلعه . ولكل اسد مركزه ولكل سحبل منهزه . ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم موكبه . وقرر مظانهن في الركوب والنزول والثبوت والحلول . ومعارج الصفوف . ومدارج الزحوف . ومناهج الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الألوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر . والأسد القساور . والفتخ الكواسر . والقضب البواتر . والفلك المواخر . والسحب المواطر . والسحم الدياجر . والحمس الزوائر . والغر السوافر . والبيض الزواهر . والسمر الشواجر . والبيض المغافر . والقوم المعاشر . والباد والحاضر . والخف والحافر . والصلب والمساجر . والأكارم والأكابر . والساعي والسائر . والعالي والفاخر في عاديات سفره . رعن الرعن لعاديات كفره . حزن الحزن وهي . مغاوير هدى . دان لها التقدير الخمائر عدى . دنا منها التدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتدقيبها محشورة عصائبها منشورة ذوائبها . سائلة أوديتها . جائلة ارضها . فهي تخرق الخرق . وتغرق الغرق على الفرق . تملأ الوهاد بهوائها . وتكلأ من العوادي بعواديها . وأناخت ليلة السبت على خسفين والكفر مخسوف . والشرك مكسوف . وكل جبل بلجبها منسوف وتسيم النصر من قوتها مسوف . وللاقدام في لج الاقدام رسوب ورسوف . والدين في فضله وعدله والكفر عسوف . وباتت تلك الليلة والرماح مركوزه والصفاح مهزوزة . وللمقربات تصال . وللمضروبات صقال . وللمنسوجات اجراء . وللشريجيات اغراء . وللعوج رنان . وللأعوجيات رهان . وللقساطل اقساط . وللصواهل أصوات . وللسلامة امراط . وللاستقامة صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسنة اقراط . ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط . وللقيام اشتراط . وللقتاد اختراط ، وللعسكر بساط . وللعثير اضباط ، وللهمم اعباط . وللدهم ارتباط . وللبهم اختباط . وللأمم احتياط . وللعزم نشاط . وللحزم يشاط . وللغماغم اختلاط . وللصوارم اشتطاط . وللنجم مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في الارتجاج والجو في الارتياج . والدو في الامتراج . وقلب الكفر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء مـن غبـرة الغبـراء ذو الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس التـرائك لامعـة في الأبراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سـابحة في غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفـــــــــــــة على الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشـاج . وأعنة السرايا مسرعة للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغـزالة سـاج . ورعب الجيش يخامر الدهر شاج . وذقـود الرواحـل مـــن عقـــود الرواغب في رواج . والشــوارع نازعة لالجاء واسراء مـــن الجـــام واسراج . ونزلوا بثغـر الأقحـوانة حـــروض راء . وعقــد غير واء . وعزم غير باء . وعز متبـاء ، وسـعد متناء . وحـكم أمـر ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء الفضاء مضاء . وشفار بيض لها مـع الأعداء شـفاء شـفاء . وضربـت الخيام . وغصت الوهـاد والآكام . واشـتد الغـرام . وامتـــد الضرام . ووجد بالجد العـرام . وتقـدمت المســاعي وســعت الأقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر الانتقام . وحمي للتحزب الحمام . وشد للتخرم الحـزام . وأقـام الطيف . وطاب المقـام . وزاد في الكف اكفـاء الكفـاح مـــراح الرمـاح . وتصـــافح الصـــفاح . وعرف كيف ركوب الجبـــال للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقـام السـلطان هناك خمســة ايام الى يوم الخميس . في ذلك الخميس بضراغم الخيس . وقســاور العـريس . وبنات قـــواعد التأسيس . وأساة المضايق بالتنفيس . وحماة الحقائق في طـوري الايحـاش والتـــأنيس . وولاة الفيالق المبــاشرة بـــالبشر يوم التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس مـن بـلاد الشرك بـدار الدربيس . واقتـــداح زناد الأفـــراح . وانهـــاض جناح النجـاح . الى ارداء اهـــل الجناح . وكيف وأين ومتـــى يكون اللقاء . وهل يفترق الأحباب . وقد اجتمـع الأعداء . ثـم صـممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للاقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عداة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التغاير والتنافس الى التضافر والتوانس . وقالوا :نحن انصار النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب العصبية . وعمدة المعمودية . وداروا بدر افاويق الوفاق . ونزعوا الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا على مراده مطلع امانيه بالمخلص. ثم تزاوروا وتوازروا . وتضافروا وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا واشلأموا . وتذمروا وتذمموا . وتخطوا وتورطوا . واخترموا واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب الصلبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار باللجب الجرار . وار يفلح الاوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع اسرار . غمر من الاغمار . وكل مغو مغوار . وباد بادبار . وناز بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس ° وفارس للآساد فراس ° وداوي داء خبيثه عضال ° واسبثاري له دون تباره نضال . وباروني يباري البوار . وتركبولي لا يترك الغوار ، وينزع النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز أفعوانا . وكل شيطان يجر لهتخ ماء الأرواح أشطانا . وكل متميز في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكعوب القنا متوقح . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يفض

الجمع الجم كأنه حمر الفضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ لظى . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري بصرامة . وناري يافح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف الشر ممازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم جار . عاس على العجم جاس في الهجم . خاس في الرجم . قاف اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على الذشر والطي . حاف في الزعف راد بالزحف . ساق بالحتف .ناصب بالفعل جازم بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم مجترح محترف الموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ملثم القطوب ملتفح مصطلم لاثلم الخطوب مصطلح ، وكل ذي فضفاض وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثعلب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب جارح ، وزرق تمتش بزرق الأسنة ، وشقر تعبي الشقر بصرف الأعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشرك عظائم رئبال ، وامعط مغتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام الوغي ، وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج المنايا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى الذقع بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة الوقع ، واحتابوا مواقع واجتذبوا سوابق ، والمعوا والبوارق ° وأسمعوا الصواعق ° وقربوا السوابق ° وأبعدوا الخوادق ° وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالابر ، وطال الشر وطار الشرار ، وشق الأمر ، وسقت المرار ، وأخضرت الغبراء من الحديد ، واغبرت الخضراء من الصعيد ، وساحت السيول ، وسالت الشعاب ، وتفايضت البحار ، وتضايقت الرحاب ، وتموج بضراغمة الغاب ، وأرعبت ايماض البروق واصعاد الرعود ، فللكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختام القتام بالفضاء في فض ، وغدران الفران في فيض ، والنجوم في انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاض ، والعوامل في ارتعاض ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

ومازال السلطان لله مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه مستشيرا ، فأشار الأمراء ذووا الآراء بالصدود عن اللقاء والمحافظة على نضار الاسلام بصون الذماء وحقن الدماء وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاققة المزم في الرقم ، ومابلغ الأملاك قبلك الا مابلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد ماأرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تفركم تنقال المعركة ، ولاتلق بأيديهم الى التهلكة، وهذه بلادهم قد خلت منهم، ونأت بقربهم ضياعهم ، فنشتغل بالاغارة على بلادهم الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، ونرجع بالغنائم والسبايا والمرباع والصفايا ، ومانزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد البلايا ، ونخلص من ادسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقال السلطان : ان الأيام غير مأمونة ، والأعمار غير مضمونة ، والجهاد فرض فرضه رسول الله في أرضه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضه ، ولابد من هذا اللقاء أما وإما وإن الله اصدق القائلين :« ولينصرن الله من ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فانا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سار الخميس • وزحف بأسده العريس.وطابت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السوابق على الأردن أربيان الوبيان في الاجراء.وا عتضدت أملاك الأرض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقداء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق• وتقيد عنان الجو من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الأحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر.وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسمر • ووقف مع المثير المعشر • وحال المغيث وهال المحضر • وهاب المنظر والمخبر • وظهر الحق وحق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول :« الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا ومانبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخلدوا الى الأرض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتوا ونبتوا ، وسكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر .

فلما عرف السلطان أنهم لايبرحون • ومن قرب صفورية لاينزحون وأنهم لايهيجون الى الهياج • ولايخوضون معه بحر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذموا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العبسية على مدينة طبرية • وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن من قتالهم • ويجهد في استئصالهم • فحضر طبرية وحصرها • وابتدأ بها وابتدرها وجمع الرجال على أحد أبراجها وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزح عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالم الاسلام • ودخلوها في جنح الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدودة من الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان واهراء غلال • فاحترقت أمتعة بأموال • وكبسوا رباعا وكسبوا متاعا • وارهجوا وأوهجوا مرضا وضرما • وأحرجوا وأخرجوا نعما ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع الى ازدراد ماتحويها فاغرة • وتحصنت القومصية ست طبرية في قلعتها • ومعها بنوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهم ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصلبوا وصلبوا • وتعصبوا وتصعبوا • وثاروا وفاروا • ورازوا وزأروا • وجاءوا واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مدجين • وفي بحر اللام ملججين مدججين • والى حزب التوحيد بحزب التثليث مخرجين • ومن كل جبل تحرقه الريح • ومشيح شعاره المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيح ، ونصب الى الموت يستريح • ومشتاق الى ملاقاة المذون قد حثه التبريح • ومخرج الى التورط في الردى من هول ماهوله يصيح • ومرتجج يؤذنه المارق اللجج • ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطل مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي أنجــــز وعده • وأيد جنده وأدنا مـــــن مــــــرادنا القطاف • وأصفى من مــرامنا النطــاف • وأســنى لنا الالطــاف ونهض بجباله الى جبــالهم • وبــرجاله الى رجــالهم • وســـار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقــدام قدامهم • ووقف بصفوفه امــامهم • وصــد طـــرقهم • وســـد فلقهم • ورد عن الزحــف فيلقهــم • وأغرى غرامهــم • وأضرى ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما الغيظ منهم غيض وقد وقد الحر ، واســتشرى الشر • ووقــع الكر والفر • وللأوار تأجج • وللارام توهج ، وللعدى شــعل • وللردى شغل • والســعير واقـــد • والهجير عاقـــد • والآل شـــايط غرار • ومالآل الشــيطان قـــرار • والسراب طـــافح • والظمـــأ لاقح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من اللهــب لهث • وبـــالعيث عبــث ، وفي ظنهـــم أنهـــم يردون الماء • ويردون الذماء • ،فحــلأتهم الحـــالة الحـــالية • وغالتهـــــم الغلة الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها • وذلك يوم الجمعــة بجمــوع أهلهـــا المجتمعــة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قــطعت على الفرنج طـــريق الورود • وبلوا مـــن العـــطش بـــالنار « ذات الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضـــابرين ، فــكلبوا على ضراوتهم • وشربوا مافي اداوتهم • وشفهوا مـــاحولهم مـــن موارد المصانع • واستنزفوا حتى مـــاء المدامــع • وأشرفــوا على المصير الى المصارع • ودخل الليل وسكن الســيل • وبـــاتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقــت ظنونهـــم • ولم يبــق بهـــم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفســـهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا من ماء الفرند • واكتفوا بمــــاء جـــداول الأغمـــاد مـــن الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء الأرواح نجاح النجاح، وشدوا حزم الانتخاء • وأعدوا حرم الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجترأت • ومن كل مايعوقها برئت • وهذا اسنانه شاحذ • وهذا شهم موفق • وهذا لحده ممه • وهذا لحده منه • وهذا اسهمه مفوق • وهذا شهم موفق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر التبكير • وهذا مجر ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز المناجز • والمحاجز للحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج للسعادة • فياله تلك من ليلة حرا سها الملائكة، ومن سحرة انعامها ألطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديع • ومن ظلام مملّه بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره مغفور • ومن ديجور مابعده لاشراق سنا النصر ديجور • ومن ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الحور • وقد قابل بها فيها ظلمة الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر يفوح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم :« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والسنة مفروضة والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين متقاضي بالشفا عليلة • راع رياض الرضا رعيله • والله ناصر الاسلام ومديله .

ذكر النشاب ووصفه .

وسهر السلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كل طلب بأسماء رجالها • وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات نصالها • وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل • فتنزل نص النصر منها على كل نصل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقي يأخذ منها من خلت جعابة • وفرغ نشابه من تغالق تفتح من باب الجنة المغالق • وتواضيح تخرق المضاعف النسيج• وناوكات ذوات ذكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبأ لكل تبل • ونشاب في الأحداق ذي انشاب • وجروخ الجروح • وخروج الروح • وسهام الاشهر سهام الحمام وتذفير اقرانها .... الثعام .ونصل وصالها تقطع اوصال نافق بكل حمس صال.ومطالق نطاق بها سراح الأرواح . ومعابل تكثر منها صعاب الجراح . ومهرقات موفقات مسدات ...الحارق...(٥) المبردات وصائبات الى المقل صابيات . وذواجز تعيد السباع قنافذ .وتجعل النجيع مناجع . وللمذون منافذ . وبوارق تمزق اهب المارق . وتطقم وتنتقم من المارد المارق . ومريشات اوكارها الحدق . وأوكائها الحلق . وفاصلات ناضحات اربية الردى . وناحلات فاضحات اوردة العدى . وقاضبات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات خروق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات راشفات شفاء المقاتل . وقائفات قانعات مذفار المناصل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعيات داعيات للاجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات النكاية . ومضميات مصممات الفتك . ومدميات مديمات البتك .وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على الأسرار . هاتكات للذماء . سافكات للدماء . مثريات للثرى . مفريات للفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب الجراد. واريات وري الزناد . طائرات من الأكناد الى الأكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهفيف . خارجات من

طلوع الحنايا الى احناء الضـلوع. مـارجات لدى الروع الراد الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القلاع . بالغات الشعور . عالقات بالتامور . محاقات للدحور . غاربات الغروب في النحـور . ورادات الصـدور الى الصـدور . قـاطعات الحجاب . واقعات بالعذاب . مـدمجات على الالتهاب. مغنيات بالدماء على الطعـان والضراب . ومـراسيل تـروى امـام العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدى به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضـه مـن العين في الســواد ومعتدل تحذو له العـوج .وبـرق خـاطف تحمس وراءهـا المهوج . ومنزع لنزع المهـج وقـطع الود . اخـطف مـن الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى مـن الحريض . واشبى من الطرف الغضـيض . وأعمـل مـن الســمر والبيض . والســلطان يأمـر . والحنايا تـوتر . والمنايا تـؤثر . والأعنة تصرف . والأســنة تـرهف . والحقـائب تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشـمر . والجـاووشـية تنصر . والســوابق تضـمر . والســوابغ تنشر. والصـلادم تنضى . والصـوارم تنتضى . والســلاهب تجمـع . والجنائب تمرح . وأيم الضراء تنساب . وغيم الغمـاء تنجـاب . والذفـوس مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن اللعب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حـطين وهـو يوم الســبت الخـامس والعشرون من شهر ربيع الآخر .

وأصـبح الجيش على تعبيتـه . والنصر على تلبيتـه . ووقـف العسكر في قلبه وجناحيه وميمنتـه وميسرتـه أطـلالا متقـاربة متباعدة . وأنجادا متعاهدة متساعدة و آلافا متضافرة . وأضعافا متضاعفة متظاهرة . وبـرز رجـال الجـاليش . وارتجـز دعاء

التحريض والتحــــريش . وصــــفا لبـــاس الناس على الكمـــي الكميش . وشرعت ثعـــالب الشرع في رعي الدشـــاشات رعي الدشيش . وتطاير في الجو على ســنابك الهمــام جــراد النصـــل المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجــب الأرواح للتقييش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرعت اعنة عتاقها . واشرعت اســـنة دقـــاقها . وأطـــالت رقـــاب رقـــاقها . وأبـــانت غايات ســـياقها . وأعلت رياحـــات احتفـــالها . وأحلت مـــذاق مـــذاقها . وأغلت أوســـاق أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت ظـــلال رواقهـــا . ودارت كؤوس اصـــطباحها للاعتبـــاط باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فــرق مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفــرنج راكبــة الجــرد . متــراكبة المدد . متكاثفة العدد . آخذة طــريق البحيرة.بــطوارق الحيرة. قــد احاط رجلها بخيلها . جــارية الى القــرار بســيلها . أمـــواجها ملتطمة . وأفواجها مزدحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبــة ملتهمة . وذفعها مديد . ووقعها شديد . وحــدها حــديد . وجــدها جــديد . يأمذون المذون . ويجذون الجذون . ويجــرون الشـــمول والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهم صــدنا . وردت ســيولهم بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبــالنا . وشــوتهم بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا ســلوك نهــج الموت . وأنه لا مـــطمع في البقـــاء الا بـــاستحلاء مـــطعم الفوت . والسلطان قد رفق قلبــه . ووقــف الى الوثــوق بنصر الله قلبه . وهو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضــهم على حظهم من الفتوح او الحتوف . ويعدهم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين يالالوف . وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون . ويصدون العــدو ويردون . وكان له مملوك اسمه منكورس من اقمــار الفلك . ومـــن شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قــد علقته الحور العين لحسنه.واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القيول في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الاتــراب يشــتقنه في جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والدور الحسان . وكان ظريفا طريفا . نظيفا عفيفا . طاهر الذيل النزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق ° وركب عنقه في الرق ° وألهمه نصرة الحق ° وهو راكب امام العسكر . شائم غمام العثير . ناشق عرف الكوثر مستعفر تحت المغفر° مستنير في سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق في الاقدام .فوثب بحصانه وثوب الضرغام . معتقلا الى الردى ردينيا . ومشتملا للترف مشرفيا . وممتطيا للاستقامة اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها ميدانه . وشكر لها احسانه . وذكل عنها اقرانه . ونفذ طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجذبه لقوة رأسه حصانه . وخلا خلانه . وخانه اخوانه . فلما رآه الفرنج وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفوا عليه . وزحفوا اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مكانه . فأثبت في مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسه ظنوا انه احد اولاد السلطان . وزعموا ظهور الكفر على الأيمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جوار الرحمن في غرفات الغفران . وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصت لله في ارداء اعدائه بنيتها . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي اهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوا فحها . وتقدحهم بقوادحها . وتسقيهم بجداول مناصلها . وترميهم بجنادل صواهلها . وترديهم بأردية رداها . وتغريهم بما يفرون من المذون عن مناها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمور من الضوامر بجبالها . وتموج في الدواتر في بحارها . وبرح بالفرنج العطش . وأبت عثرتها تنتعش . ولانت تتشور وتتشوش . وتتحرى وتتحرش . وتتوشح بالضراء والضراب وتتوحش . وتنشط على أنها تبطش . فتجد الطرق مصدودة . والسبل مسدودة . والمسالك محدودة والمهالك مورودة . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فرمى

بعض مـطوعة المجـاهدين النار في الحشـيش . فتـأجج استعارها . وتوهج أوارها . فبلوا وهم اهل التثليث من نار الدنيا بـالثلاثة الأقسـام : في الاصـطلاء والاصـطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصـوا مـن ورطـة الاحتـواء والاجترام . وضايقت ذمائهم دماء الضراغم . وعارضت صـقور بأستهم القشاعم . ولقيت العـظائم العـظائم . ودارت بمسـاعير الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بهـا وأزعجوا . وهاجوا وأوهجـوا . ومـاجوا ومـوجوا وأجـوا وأججوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسـينا الرواسـخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . واراه غيه انه متـورط في غيايته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السـقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واوهـت اصلابها صلبانهم . فافكر القـومص كيف ينجـو ويتخلص . فقـال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصـلهم مـن الجملة . فـاجتمع هـو ومؤازروه . وجملة من المقدمين هم مضـافروه . وصـحبه صـاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتـوامروا على انهـم يحملون ويلغـون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بنفوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفـوا ان القـومص اخـذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهنوا وهانوا ثـم اشـتدوا ومـا لاذوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرذمـة هـم شر ذمـة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واسـتقبلوا واسـتقتلوا . واسـتلحموا وحملوا فما وجدوا النجح نهجـا . ولا اصـابوا لمن جـاء لمصـابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيهـا غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغـدر . بـل طـاعة القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفـاء . وصـببنا مـاء الحـديد

للاطفاء . فزاد في الاذكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام . وازللنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلأ الكلا . واكتست عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . فالهب عليهم يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيظ . ومنابع الكفر تفيض . وملاحم الاسلام تغيظ . والنفوس تقع . والرؤوس تطير . والقضب تدير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراجل الراجل والفارس تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورست منا الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى بطون النمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب والذئاب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك . وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه . وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كماته وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملأهم جهنم . وملك عليهم الصليب الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب سليبا . ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون وللوثوب يخفون . وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون . ويردون وهم لايدرون . ويعقلون وهم لايعقلون . وقرم بقوي القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلها . واونه بالبري يعـرها . ومـرة بـالسبي يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهـم وابرنسهم . فتم اسر الملك . وابرنس الكرك . واخي الملك جفـري . واوك صاحب جبيل.وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية ، واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن الاسبتارية ومعظمها . ومن البارونية مـن اخـطا بـه البـال لما عز الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس * وقوي بنا الرجاء ومنهم اليأس * وعروا من ملابس العز . وضفا عليهـم مـن ملابس الصفار البـاس . وتعـرضت للسـوء في السـوافي طاول حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد بهم حكم القضاء لم يجـدهم الاحتـراز والاحتـراس . ورسـفت وارسفت الانفس والانفـاس . وانعقـد الاجمـاع بتحليل تـركيب جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسـلام بـكسرهم . وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتلى قال : ما هناك اسـير . ومن عاين الاسرى قال : مـا هناك قتيل . ومـذ اسـتولى الفـرنج بساحل الشام ما شفي المسلمين كيوم حطين غليل . فالله عز وجـل سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهداه من التوفيق لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسـلوك . ونظـم له في حتـوف اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر الأبر . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو والسوم . غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القـدسي مقـدمة . ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الوقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم مـا دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كأنه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمـي اليه غير مفيد . لكن فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهـم — وكانت الوفا — ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولامـورد الـروح سـائبة

ولالنار الروح شابة . وغدمنا ما لا يحصى من بيض مكذون وزغف موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح كل اقليم مصون . وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون . واستخرج من كنز مدفون . و .... حاصلة . و ...(٦)تحقق اهله . ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من عدة ورحال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجاءنا هذا الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال : لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفروا بجناح غادروه محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من العمارة ليتوصلوا الخارجين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال التي احضرتها . وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها . فتاملتها واذا جمالي بأعيانها . فشكرت همته الكريمة على احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التي حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تزل الثغور بسداده مسدودة والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممدودة . والرعايا بسياسته محروسة . والبلاد بحراسته مسوسة . ورايات الكفر بنكاياته منكوسة . وايات الدين بهدايته مانوسة . والمواضع معمورة . والمنافع موفورة . والصنائع مشكورة . والشرائع مشهورة .

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرقتهم تنكرت معرفتهم . وتكدرت صفوتهم بعد الايام السلطانية . وانقلبت سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صادقوني لصدق الحاجة . وصادفوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائصا لاستخراج جواهر مقاصدهم لجج اللجاجة . فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخلاء الدنيا في دين الاخلال . ومله الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فما ابدعوا غريبا وما ابعدوا قريبا.ولا اعجبوا باديا.ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

العماد الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد مايبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن الرشد مايكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذي بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(فصلت : ٣٤) . والحمد لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله الموفور . وقبل منا عفو خواطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة . ولايطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيا وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير ذكرنا، وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا . ومتجرعنا ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمجما . وتارة يحيط به قولا مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات مسموعه . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه مسارحه . وكيف لايعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنا لانرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترابه .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولاصدق المراد . وأين مـن أخبـر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمـن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح . ونصلي على آله وأصحابه ولاة الحـق . وقضـاة الخلق . ورتقـة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفـرق . وفتحـة الغـرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم مـن اسـتنزل أرجـل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هـامها . وأخمـد عبـدة نيرانه أن يطعموها حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشـداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصـار . ومنهـم السـاجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهـم نحـن أهـل الزمن الآخر . وقد سـلم علينا سـلام الله عليه في زمنه الحـاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنمـا نرد عليه تحيته والبادىء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بـالمودة التـي قـدمها والفضل للاقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدبـاء الذين يتـطلعون الى الغـرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلي السـير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لساننا من ألسنة العجائب التي نوردها . وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إمـا أن تـكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقـب مـن الدول الأخرى . فلا أمة مـن الأمـم ذوات الملل . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . ينقله خلفها عن سـلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصـب بـه معـالم الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الأخر ذكر الأول . ولم يعلم النا س انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الأصلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم . لآدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أراده من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر . وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرا بعد دهر . وثوى وأنشر في الف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها . وجهل ماوراء صعوبة الأيام من سهولتها وماوراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه . ثم أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه ينسق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج إيوانه . واطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلو بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل . وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين سنة . ثم أرخوا بعام الخنان قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتيان في عام الخنان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخالق وعام الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربع حروب ذكرها المؤرخون . وأسندها الراوون ، وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام . وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلها جب الأنوار للظلام . ودفع الله الناس بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهيأته يوم خلق الله السموات والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي ما ولدت الليالي مثله من بنيها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمدها بالقيامة معذوق . وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . وتسفر عن أهلتها داديء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاسلام إلى القدس

ثانية . فقد كان انثني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهـذه الهجرة أبقى الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقـى الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قـالت كأنه كسر ثـم جبر . والحق أن نقول إن أطـول الحياتين حياة المرء إذا مـات ثـم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتـح أول والعهد بالرسول صـلى الله عليه وسـلم فغير بعيد . والوحـي ماكاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التـي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجـزاته أوثـق بخبـره في الفتح منها بعيانها . ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بـالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردمه . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الارض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفـرس يومـئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعـة . ولاطبعـت سيوفه هذه القاطعة . ولانسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف إلا مشيدة لامجلدة . والمنجنيقات لايتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لاتتراجم بالنيران المذكاه. والأسـوار لاتتناطـح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يسـاقون إلى الموقف حفـاة عزلا . وكانوا أحـرص على الموت منا على البقـاء . وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بـذلك اللقـاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قـد وهـن العـظم منه واشـتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهـي الملك المعتـرك . وكثـرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجـديدان ثـوبه وكان القشـيب . وذوى غصـنه وكان الرطيب . ونصـلت كفـه وكانت الخضيب . وطـال الأمـد على القلوب فقسـت ورانت الفتـن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا القتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح . واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلا مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولامزج . شذرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون . زرقا كأنما عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم . واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم . تستعيذ المردة من مردتهم . ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ . جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف : ١٧٩) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة لاتستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الاظلام . وزانت أيامهم الأيام خبالا فتنازع الناس طرائف الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨) و(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام تمخض وتمطل بالزبدة . والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخــروج ولكن مــا أعدوا له عدة . والعــذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفــى بلافــظة النبــوة لومــا صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتهــا . وأظهــر الآية التي لا أخت لها فذقول هي أكبر من أختهــا . أفضــت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمــام شــهرها . وجــاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد . ومالكها الذي له السماء خيمــة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتــاد . والشــمس دينار . والقطر دراهم . والأفــلاك خــدم . والنجــوم أولاد . صــلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق اليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهــو ســبحانه أكرم بــالنوال . منا بــالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجــر مــن أحســن عمــلا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاه الله بالاحسان فقــد قــال : (هــل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قــال : (والنين جــاهدوا فينا لنهــدينهم ســبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فــاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل) (آل عمــران : ١٩٥) وإن قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قــال : (مــا على المحســنين مــن سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والنين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل
في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل
سبق الجود ما سأل

وليصحح تأملا
يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجـاد إلى أن لم يبـق مـال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتـح وما هـو فتح واحد ما هـو إلا فتحان فتح والدم ذائب وفتـح والذهـب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فـرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جـديدا وزاد لأنه ضرب بالسيوف التي كسرها ثم ضربها . واستوعب جوده مـا ولدت المعادن ذهبا وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع ثم نهبها فـوهبها . فكل معاد معادى إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسـود إلا هـذا المداد . (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجـود من قبل المدائح .

الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا .
ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصـادقين الذين أمـر الذين آمنوا ان يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسـنين لأنا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بـانه فروقه . ولسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقـول القلم إذا فاخره السيف (إن شانئك هـو الأبتر) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولسـت ببعيد في تقييد هـذه المفاخر . وتشييد هذه المآثـر . مـن رجـال الطعـن والضرب الذين

فتحوا بين يديه . وا وجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه وأوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى وأخطب . ومن سهامهم انجي وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب . ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من نقعهم أغلى وأغلب . وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد . وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وآثاري من الذكر لاتخمل ولاتخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام سحبا . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا . فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية . وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى ايوان كسرى وسينية البحتري في وصفه تجدوا الايوان قد خرت شعفاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح بين الأوصاف الغالية . ونناوب بين السمات السامية . للاشارة إلى من ينبه على مسماه . وينوه بسيماه . فأما من يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله أبي جعفر هرون بن الامام المهدي بالله أبي عبد الله محمد بن الامام المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي الأيام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاربها القضاء مضاه . فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا . وأقبلها جدا وأجدها قبالا وأقربها ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى جني رفدها . وأفغم ريا رياض فضائلها . وأفعم حيا حياض فواضلها . واسح سماء سماحها أمطارا . وأصح جناح نجاحها مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته . وداعي نصرته . ووليه الطائع . وسيفه القاطع والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على جلالة قدره . وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وأنشأت رياض بسحبها . وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على أس ما تبينته فبينته،وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط . وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة:وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهــل للاســتدعاء أهـــل الاســـتعداد . واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبــل اســتنجاد الجنود . واســتحشاد الحشــود . وإصحار الأسود . واحضار البيض والســود . مضيء العــز مــاضى العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود . وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتــراب الحجــاج . وقــد رتــب الفرنج من الارصاد أفــواجا على تلك الفجــاج . لاســيما ابــرنس الكرك . فانه كان حــريصا على الدرك . ناصــبا شر الشرك نصــب الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقــد قضــوا حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخــرجوا عن فــرضهم . ودخلوا إلى أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتــظر السلطان وصول العسكر المصري المســتدعى . ورعى منه حصــول العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده . فأمر ولده الأكبر الملك الافضل نور الدين عليا . ولم يزل مــكانه عنده عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمــع العســاكر الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحــرب . ويحــرق . ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجــود بــالمعدوم . وأتــي بــالقطع على البســاتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع . واستأصل الأصول والفروع. حتي أقوت من الأقــوات . واســتعرت الغلة بغــلاء ســعر الغــلات . وحلت آجــال الأرزاق . وانحلت عرا الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وســار إلي الشوبك فأسار به شوبا . وألحفه من عريه ثوبا . وأخلاه مــن زرع ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهــب ضــياء تلك الضــياع . وأزال بقاء تلك البقاع . وجــاس الخــلال . وداس الغــلال . وقشر الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وســكون مسكونها . وفجع الفرنج بــكرمها وزيتــونها . فقــد عدم ليلهـــا المصباح . وصباحها الاصــباح . ووصــل عســكر مصر فتلقـــاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعرمرم العرم . والهام الملتهم . والجيش الجائش . والترك والأكادش . والجنود والبنود . والاسود السود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر إستمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهز الفرصة واحرز الحصة . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهمام الهمام . والأسد الأسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي ، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصبحوا صفورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . وللداوى دوي وللاسبتاري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايماز النجمي في صدورهم . وأشرع الأسنة الى نحورهم . وروى اللهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكترث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدرم بالوجه الأبيض . والعزم الأنهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلي الغبار . وقد عم الفرنج القتل والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلك محاص . واخافت رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه النوبة بلا نبوة . والهبة بلا هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة بالنصر . وأحسنت الألسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم يغدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من النكاية في العدو يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا . ففصت بسيول الخيول الوهاد والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (وله جنود السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا . وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت . وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض . وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث . وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم . وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلوم . وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث . وحلف منتكث . ووقوع نفار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استندوا

حين حينهم . سعوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الاخلاص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأنسة . فاصطحبا بعدما اصطلحا . وأصحبا بعد ما جمحا . وتزاور الفرنج وتوازروا . وتآمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوها هوى . وعود إذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لوائنا اللاواء . ومع أوداتنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وبيارقنا البوائق . وسيف الاسبتار بتار . ولقرن الباروني من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاقد والمعاقل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسالموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادنونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لايقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغه والمفاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك :أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت الخور رخو . وللخشية حشو . وأنا لابد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأرادده حتي أرده . وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحشد والحشر والطي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما، وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفخوا في ضرمه • وتسمذوا بورمه • وصحوا بسقمه،ورقوا في سلامه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١) ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطرك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفله مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لايستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • وراش غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليسه بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالى مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق الذخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال الذشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • وألجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • وموا قف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالى مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق النخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال النشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والاسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهذبة • والسلاهب المجنبة • والصوائب المجعبة • والقواضب المقربة • والثعالب المذربة • والهاذم الهاذمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على خسفين . وقد ادنى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر وكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة • والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة • والقلوب بالاخلاص عامرة • والانفس للانس مسامرة • والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانة . بعزم الصيال وعز الصيانة • واحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط • وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج • وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج • واعاد الاقحوانة رياضا نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات كأشجار البساتين • ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين • والوية حمر كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران • ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقحوان • وجبب ترائك على بحور الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين • والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام الثائر سروج السريجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاوباش • ورتبوا الجيش • وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل • ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نوادي اقاليم اهل الاقانيم • وصلبوا الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخرجوا عن العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين الفا ويزيدون • ويكيدون مايكيدون • قد توافوا على صعيد • ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لايرومون حركة ولايريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم • ويراميهم • ويذكي فيهم • ويتعرض لهم ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله • فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم القتل في مضاجعهم • وعاينوا مقام صارعهم • في سوقهم الى مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبنوا عما له تشجعوا • فرأى السلطان ان يطيب ريه • من طبرية ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجر على الاردن اردان الردينيات • واطلع الذقع المثار من البحر بحوافر الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات • فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج • ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب . وثبوا بهم وثوب الاسود بالارانب . وان قصدوا طبرية لصونها وان يكونوا في عونها . عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خواصه ، وذوي استخلاصه . واحضر الجاندارية والنقابين . والخراسانية . والحجارين . واطاف بسورها • وشرع في هدم معمورها . وصدقها القتال . وماصدف عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه . وتسلقوا فيه وتسلموه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العــدو معتــكر .
وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيهــا . ولما
سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد
جلده . وسمح للفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا قعــود بعــد اليوم •
ولابد لنا من وقم القوم • واذا اخذت طبرية اخذت البلاد • وذهبـت
الطراف والتلاد • ومابقي لي من صبر . ومابعد هذا الكسر لي جبــر
وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافقه . فما نافقه . وماحضه فما
ماذقه ووادده فما رادده . وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره
وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحينه . واتبــاع غيه .
واشياع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبــرته .
ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبــات ثبــاتهم ووثبــوا.
وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبــوا . وشــبوا النار . ولبــوا الثــأر .
وقدموا النزل بالدار البــدار . وذلك يوم الجمعــة رابــع عشري ربيع
الاخر. فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه.
وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل
المخطوب . وجاءنا مانريد . ولنا بحمد الله الجــد الجــديد . والحــد
الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صــحت كسرتهــم .
وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع .
ولا عن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم
الجمعة رابع عشري شهر ربيع الاخر والفرنج سائرون الى طبــرية
بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد مــاجت
خضارمهم . وهاجت ضراغمهم. وطارت قشاعمهم . وثارت غماغمهم
وسدت الافاق غمائمهم . وشاقت ضاربيها جماجمهم . وهم كالجبال
السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزدحمة.
وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى
الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء منقض . والثريا قد
استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحــوافز
للارض حــوافر . والفــوارس اللوابس في البيض ســوافر . وذئاب
النياد واجلاد الجــلاد قــد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فــرتب
السلطان في مقابلتهم اطر اطــلابه . وقصر على مقــاتلتهم ارابــه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع ذمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . والقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام للكفر مقابلا . والتوحيد للتثليث مقاتلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . ونفر النفير غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضوارم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار.

وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنت القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلاد . وبرزت البيض من ملائها في الملأ عارية . ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية . فرجا الفرنج فرجا . وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى مابأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام وأشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصمتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا.

وناشبهم الذشاب فعادت اسودهم تذفذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقرشتهم البلايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا للردى درايا . وللقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطالبه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخـــرق . وا فلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حـــالة حضـــور الوعي . ونابه الرعب الذي ذوى الهزيمة به وماونى . ثـــم ا ســـتجرت الحرب . وا شتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وفلت حدود الرمـــاة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشـــغلوا عن اصـــل الحياة وفـــرعها . وتـــرجوا خيرا فتـــــرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حـــزامهم الطبيين مـــن ســـــهلها . واسر الشـــــيطان وجنوده . وملك الملك وكنوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهـــم يتهـــادون في القيود تهـــادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعـــه عدة كثيرة منهـــم ومـــن الاسبتارية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صـــاحب جبيل وهنفري . والابرنس ارناط صاحب الكرك . وهـو اول مـــن وقـــع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لاعجلن عند وجدانه عدمـــه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له:كم تحلف وتحنث . وتعهد وتنكث . وتبـــرم الميثاق وتنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال التـــرجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وماسلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من ســـكرة الرعب منتشـــيا . فـــأنسه السلطان وحاوره . وفثأ سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبـــه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثةوأزاح من العطش مـــاكرثه . وناوله الابرنس ليخمد ايضا لهبه . فأخذه مـــن يده وشربـــه. فقـــال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أذنا • فلا يوجـــب ذلك له مني أمنا • ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصـــلاهما • ولم ينزل الى ضرب سرادقه • وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحـــومة الى الحمى فيالقه • فلما دخل سرادقه • استحضر الابرنس فقـــام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع . امر برأسه فقطع وجـــر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف الســـلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته . وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونبازند حياته ووردها عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودا فعادوا من النقد . فما افلت من تلك الالاف الا احاد . ومانجا من اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى . وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت حطين تلك الجيف عن متنها • وطاب نشر النصر بنتنها • وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه • بالعراء عراة • ممزقة بالمازق • مفصلة المفاصل • مفرقة المرافق • مفلقة المفارق • محذوفة الرقاب • مقصوفة الاصلاب • مقطعة الهام . موزعة الاقدام .مجدوعة الآناف • منزوعة الاطراف • معضاة الأعضاء • مجزأة الأجزاء • مفقوءة العيون مبعوجة البطون • مخصوبة الضفائر • معضوبة المرائر، مبرية البنان• مفرية اللبان مقصومة الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة النحور . منصدفة الاجساد .مقصفة الأعضاد • مقلصة الشفاه • مخلصة الجباه • قانية الذوائب • دامية الترائب• مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع • مكسورة العظام • محسورة الثام • بائدة الوجوه • بادية المكروه • مبشورة الابشار • معشورة الاعشار • منشورة الشعور• مقشورة الظهور • مهدومة البنيان • مهتومة الاسنان • مهرقة الدماء • مرهقة الذماء • هاوية الذرى • واهية العرى • سائلة الاحداق • مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبات • عديمة الارواح • هشيمة الاشباح . كالاحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار . وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء • وعادت الغبرة حمراء . وجرت انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر• فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث • وما الهب عذابات العذاب في تلك الجثث • وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث • وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث . هذاوحساب من قتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده . وأمـا مـن أسر فلم تـكف اطناب الخيم لقيده وشده. ولقد رأيت في حبل واحد ثـلاثين وأربعين يقودهم فارس . وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهـم حـارس . وهنالك العتاة عناة . والعداة عراة . وذوو الاسرة أسرى . وأولو الاثرة عثرى . والقوامص قنائص . والفوارس فرائس . وغوالي الارواح رخائص . ووجوه الداوية الداوية عوابس . والرؤوس تحت الاخامص . ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم اصـيد صيد . وقائد وقيد . ومشرك مكشر . وكافر مفكر . ومثلثـــب منصف . ومكيف مكتف . وجارح مجروح . وقارح مقروح . وملك مملوك . وهاتك مهتوك . ومتبر مبتور . ومحسر محسور . وكاب في الكبول . ومختال في الغلول . وحر في الرق . ومبطل في يد المحق .

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صـليب الصـلبوت . واهلك دونه اهـل الطاغوت . وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع . سـجد له كل نصراني وركع . وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليهـا معبودهم ومسجودهم . وقد غلفوه بالذهب الاحمـر . وكللوه بـالدر والجوهر . واعدوه ليوم الروع المشهود . ولموسم عيدهـم الموعود . فاذا اخرجته القسوس . وحملته الرؤوس . تبادروا اليه . وانثالوا عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف . واخذه اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب لهم في ذلك المعترك . فان الصليب السليب مـاله عوض . ولا لهـم في سواه غرض والتأله له عليهم مفتـرض . فهـو إلههـم . وتعفـر له جباههم . وتسبح له افواههم . يتغاشون عند احضاره . يتعـاشون لابصاره . ويتـلاشون لاظهـاره . ويتفـاضون اذا شـاهدوه ، ويتواجدون اذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج . ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبـدونها . ويخشـعون لهـا في بيوتهـم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليب الاعظم عظم مصابهم . ووهت اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما . فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر. والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

وندب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها . وغادرت طبرية آهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما اصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتارية ، وقال : أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وامر بضرب اعناقهم . واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجهه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من ابى ونبا وعذر . ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد انجزه . وحمد احرزه . واجر استدامه بدم اجراه . وبر اعذق اليه بعذق براه . ونصل خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للاواء طواها ° وكفر أماته لاسلام أحياه ° وشرك هدمه لتوحيد بناه ° وعزما مضاها ° لأمة ارضاها° وعدو قصمه ° لولي عصمة° وسير ملك الفرنج وأخاه وهذفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون ° وتستبدل حركاتهم السكون° وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا °

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مديلا الطيب ° مزيلا الخبث° وسار عسكره° وثار عثيره° وظهرت راياته° وبهرت آياته° ونعرت كوساته° وصاحت بوقاته° وجالت خيوله° وسالت سيوله° وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصاته وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه ° وحفرت حوا فر الصلاد م أصلاب الصلاد الصلاب° وفصحت باعراب الحماحم صواهل الجياد العراب° والاسنة مشرعة° والاعنة مسرعة° وبحور السوابح متموجة وغدران السوابغ مترجرجة° وبوارق البيارق متبرجة° وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة° ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح ملبيا ° ولجيش النصر معبيا° ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا ° وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر° جانيا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر• وأصبح وقد اصحب جماح الدهر• وصح نجاح الأمر• وحص جناح الكفر• واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج• وسار سارا سره بارا بأرباب الدين بره• زائرة أسوده• طائرة بنوده• ظاهرة جنوده زاهرة جدوده• سامية أضواؤه• هامية أنواؤه• رائعة مواكبه• رائقة مراكبه• مجنبة عتاقه• فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثري به• وهذا الأمير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج• وهو ذو شيبة تقد كالسراجِ وما برح مع الملك الناصر• مأثور المآثر• ميمون الصحبة• مأمون المحبة• مبارك الطلعة• مشاركا في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره • ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره• فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايرا • ورأيت السلطان له مشاورا محاورا • وأنا أسير معهما• وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما• ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى• وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها • وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها• فلما قرب منها خيم وراء تلها • وأننت عروش معاشر الشرك بذلها• وعقود معاقدي الكفر بحلها • وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه• ووقف كالأسد في عريسه • فخرج أهل البلد يطلبون الامان • ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام والانتقال• ووهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونسائهم • وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة • واغتنموا تلك المهلة • وفتح الباب الخاصة • واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة.

فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المحرج • كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم انهم يغنمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة.

الا من ركب السفينة • وذلك ان الجند لما دخلوها • استولوا على الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار• وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع •

ومواضع ورباع • فاخذها بما فيها من غلال ومتاع . ووهب عكا لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الاحسن الاجمل • ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة • ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القاضي الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابة ، وخلى سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها مانبذها ، وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر ، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لمستحليها ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ، ولملكتها متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر ، بما أتاحه الله من النصر ، وقيضه له من افتضاض الفتح البكر ، فوصلت البشرى بوصوله باشرا ، وللواء الحمد ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مباشرا ، وأنه فتح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمها غزوة ، وتسلمها حظوة ، فقصده من عساكرنا القصاد ، ووفد اليه من عندنا الوفاد ، فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالذقود ، ووعدهم مما سيحصل بالنسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويستفيض حسنى وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويستزيل من الكفر يدا ، ويستميل الى الهدى هدى ، والدين بسيف سيفه منصور ، والاسلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العادل مالك بعدله ، سالك نهج النجح بفضله ، فائز العزيمة حائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتيبة ، ميمـون النقيبـة مـأمول الرغبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغنمه ظاهرا بكرمه ، شـاكرا عرام عرمرمه ، ملهبا ضرام مخذمه ، مـرويا أوار لهـذمه ، وأمـر أمراءه بقصد البـلاد المجـاورة ، وأمـدهـم بـالضراغم المراوغة المغاورة .

فتح الناصرة وصفورية

فسـار مـظفر الدين كوكبـوري الى الناصرة فـاستباح حماها ، واستبي دمـاها ، وحلهـا واسـتحلها ، وأزالهـا وأزلها ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشـفها ، وشـافهها بشفار البواتر ، فشـفه منهـا مـوارد الذخـائر ، واجتلى عرائسـها ، واجتني مفـارسها ، وجمـع نفـائسها ونزع ملابسها ، واستدر طبيها ، واسترد سبيها ، واسـتقل منهـا بما استقل به مـن كل غانية عانية ، ورقيقـة رقيقـة ، ومصـابة مصيبة ، ومسـبية مصـبية ، ومجلوة مجلوبـة ، وسـالبة مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعذف جارية ، واسـيرة مـن أسره ، وحـاسرة عن حسره ، وثـاكلة لواحـدها ، وآكلة لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خـديها ، وناهدة متنهدة ، وفـريدة متفـردة ، وناعمـة شـقية ، وقينة نقية ، وعذراء مفترعة ، وحسـناء منتـزعة ، ومخـطفة ، وقـوية مسـتضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصـحيحة عليلة ، وسـاجية عبـرى ، وصـاحية سـكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

ظمياء ، وغضيضة غضة ، وفضة منفضة ، وخمارة مخمورة ، وسحارة مسحورة ، ومخدرة مهتوكة ، وموقرة منهوكة ، وجاءوا بالأسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الأقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الأعناق والسوق وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من الذخائر مبلغ وافر .

فتح قيسارية

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء الى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس بها حاكمي الحتف والحيف ، وسبوا ، وحبوا وسلبوا ، وجلبوا ° وجالوا ، ونالوا ووقذوا ، وأخذوا ، واحتووا وارتووا ، وربطوا ، وضبطوا واستفادوا ، وفرسوا الفوارس ، وكنسوا الكنائس ، واستبوا الأبكار العرائس ، والعون العوانس ، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف ، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف ..

فتح نابلس

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس حاسما بحسامه داء الشرك ، مالئا بسهام الفتك جعاب الترك . تاليا آي الفتح . جاليا رأي النجح ، ووصل الى سمسطية فتسلمها ، وتعجل مغنمها . ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسة ، واعادوها بالصور والآلات النفيسة أميسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد

والآلات . وأعاده مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضـــع فيه مـــن بـــره بالاسلام منبرا ، وأصبح الدين به مثريا والكفر مقتــرا ، ثــم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف جده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ســاكنوها مـــن الفرنج والنصارى الســكون . وأيقنوا أنهــم ان اقــاموا لايأمنون المذون ، فان المسلمين بهـــا وبـــاعمالها نهضـــوا اليهــــم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أمــاكنهم ، وخلوا دورهم وأخلوها ، وتسللوا منها وسلوها ، وتحــول الاقــوياء الى قلعتها ، وتحصـــنوا بقلعتهـــا . ونازلهـــا حســـام الدين وحاصرها . وطـــال عليه حصرهـــا وصـــابرها ، ولم يزل عليهـــا مقيما. ولقتالها مـــديما ، الى أن وثقـــوا بـــأمانه ، وعلقـــوا باحسانه . وسلموا وســلموا . وا ســتأمنوا وأمنوا ، وخلصــت له نابلس واعمالها . وحليت به احوالها . ولكون معظم اهلهـــا وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مســلمين ، فـــانمحى بـــالسعود رســـم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، وا ستبشرت وجــوه اهلهـــا بعد العبوس . وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعـــدد وا شحنها . وهي الداوية حصـــن حصـــين . ومـــكان مـــكين وركن ركين . وفيها مشتاهم ومصيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومـــربط خيولهم . ومـجر نيولهـــم . ومجـــرى ســـيولهم . ومجمـــع اخوانهم . ومشروع شـــيطانهم . ومـــوضع صـــلبانهم . ومـــورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . وا ثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا وا سروا . وخسروا وتحسروا . خلت طاول الفولة . بحـــدود

اهلها المفلولة . وماء داويتها المطلولة . ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة . ولم يبق بها الا رعايا رعاع . وغلمان واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حماية المكان . ووجدوا امنهم في الاستئمان . فسلموا الحصن بما فيه الى السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . وذفائس الأعلاق . فوثقوا بما احكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين . ودخلوا في الذمام لاجين . والسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون . وبيسان والقيمون . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومذوات .

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ، وقلصت من الضلال تلك الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابن أخيه الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه تقي الدين بقصد حصن تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين ، فالقى عليه جران بأسه ، ولقي بالتذليل حران ناسه ، وأخذ في مضايقته بأنفاسه ، ولمح مالمع من قبس فتحه فشفعت باقتباسه ، وسنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على الوصول اليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره ° فضرب الكوس ، وسمت النفوس ، والنهوض في ظلام القتام من الترك والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل النقا ، واشتبك على الآساد غيل القنا ، وسالت الاودية بالسابحات العتاق ، وطالت على السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق ، وجرت الفجاج ، وتموجت الأفواج ، وتفوجت الأمواج وتحركت غدران السوابغ ، من رياح السوابق ، وتدركت ضواً من الضوامر بالأرفاد في اردا فـ الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث مراحل ، فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالذوازل ، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل ، فتبلدوا من الرعب ، وتجلدوا على الحرب ، ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا ، ورغبوا ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحوا ، وعجزوا فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب.وندبوا فدانوا وبذوا ، وأذغذوا إذعنوا ، واعتذروا مما جذوا ، وراسلوا السلطان ،وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين ، فخرج المأسورون مسرورين ، وأصبح الصحب المكسورين مجبورين ، محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين ، وسر بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم ، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه وملك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف اسير للقيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدووي ، فأرشد به ذلك الصقع الغوي ، فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيس النافر ، وتعكيس الكافر ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخندقها كل مايمكن من التوثيق والتعميق ، ورحل ومعه رفيق التوفيق ، وكان النزول على تبنين يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر منه .

فتح صيدا

يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد، والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لمناشق اهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، واوجهنا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة ، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للممالك من الملائك أمداد النصرة المتواتية المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين ، وعن حمي الحق دونها لأهل الباطل صادين ، ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ماتوعر ، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة الى صرفند ، وأسمنا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروثة المناهل ، ذات بساتين ، وأزهار ورياحين ، وأشجار النارنج والأترنج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج ، فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية ، ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بدورها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آرابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدح منبرها ، وصدق مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني عشري جمادي الاول وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين ، وجمع لهما التحصين والتحسين ، قال لعصمة الله شيدي مابصيدا وتبنين تبنين ، والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولايطرق ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سنانه ، ورحل على سمت بيروت ، مالئا بعسكره الآكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك الجحافل ، يجر على البحر مائج ، ومجر مجر الى الهياج هائج ، وذقد من عقد الجد رائج ، وعزم على صدق القصد عائج ، ووصل اليها ونزل عليها ، وبنيت القباب ، وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب ، وزحف الى الأعداء الاخباب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد ، وأحاط الرجال بأرجائه ، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجل نحوه الباس ، واصطفت التراس ، واشتد المراس ، واحتد القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خروج الجروخ للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، ومدت الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد النصر الموافي المواتي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل النفط ، واشتغل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأتى الوادي فطم على القرى ، ودبت الدبابة بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث النبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجزت مواعد الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالنوازل نوازي الأهوال ، ورعدت بوارق البوار ، واسعدت الأقدار ، بالأقدار ، وشغلت الرقاب، قواضي القواضب ، وحملت النواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الأشراك ، ودام القتال اياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا واضطراما ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة ، وتعادت الأسود العادية ، على أولئك القردة ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق ، وكاد النقب يتسع ، والبرج يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض وترفض ، وسوار السور ينكسر ، وقناع النقع لاينحسر ، وخرج من البلد رجال ، الى الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤوس المنون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا بالقواطع ،وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا وتجالدوا وتواقدوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض يقد ، والبيض تقد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللدد ، وضافهم الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدموا سكينتهم ، ليركبوا سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يستدعي الأمان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما

- ٥٨٥ -

يحرمهم ، وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا في عقد الأمن ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ، ومضض أجفاني ولعيون العواد ابرزني ، وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الأمان ، فطلب السلطان كل كاتب في ديواني ، وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه ، فلم يرضه ماكتبوه ، ولم يكفه مارتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومرضت اذهان الأصحاء ولم يمرض ذهني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان الناس قد انسوا بما اسطره وازبره ، وأنسوا سوى ماأذكره واحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، ولقوا السقم في غيره فأنفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله توثيق ، فما فتح الا بمفتاحه ، ولارتق فتق الا باصلاحه ، ولاجلي ظلام الا باصباحه ، ولاوري زند الا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة ، ووقدة القيظ متأججة ، وضرم مرضي ملتهب ، وروح روحي منتهبا ، وبقيت مضطربا ، ولقيت من ذلك الوصب نصبا • وحصلت من الاقامة أو السفر على الخطر أو الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن آلاء شغلي بالآلام،

وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصبي ، وعزت علي مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت على مضض وانصرفت بمضرة ومرض ، وحملت الى دمشق في محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبدل الكدر بالصفاء ، وعدت الى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الوحشة الى الأنس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى مطاع الأمر ، مذاع السر في تضوع النشر • وتوضح البشر ، مستفيض الزيادة ، ناجح الارادة ، راجح العبادة ، رابح المتجر ، واضح المفخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العدى واستجدى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد ملكا ، واستزاد ملكا ، وبر بيروت اذ برت ، وحفلت له اخلاف

- ٥٨٥١ -

الفتوحات فدرت ° واستمرى صوب من عزائمه وصرائمه فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل أسر اليه في أسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت . وابحتها لكم وتحرمت . واخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وازيلها من وثاقي اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيده . واحضاره في قيده . فأحضر في صفده وسمح ببلده . فخلص ناجيا وملص راجيا . وملكت مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون . ولاعداء الله مصابرون مكابرون . وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين . مساكين لساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصدحت المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت الآيات . وجليت الغيايات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط الشيطان . ونطقت الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست الذواقيس . وبطلت الذواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا نفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . وانتفشوا من شوكة عارهم . وقروا في ديارهم . وقروا ابصار بأنصارهم . وكان كل من استأمن من الكفار . يمضي الى صور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجا شريدهم . ومأمن خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم حسرتهم .

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها . وآوى الى طرابلس وتوافى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغي نجوة   من هلاك فهلك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلائه فوقع في البلاء. وظن ان صور خلت . وان مجانيها حلت . وان جماحها اذعن . وان كفاحها امكن. وان فرصتها انتهزت . وان حصتها احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس .فادرك ذماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروع بعدما اغفى . وضبط صور بمن فيها . من مهزومي الفرنج وبمنفييها . وكان المركيس من اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . وأضرى سراحينه . وأخبث ذئابه . وانجس كلابه . وأنهش صلاله . وافحش ضلاله . وأعوى اعوانه . وأخون اخوانه . وأبغى بغاته . وأجفى جفاته . وأرعى حماته . وأحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وافجر فجاره . وأروغ ثعالبه . والسب عقاربه . وأحنث معاهديه . وأنكث معاقديه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن فيها من المسلمين ذاهل . فعزم على ارساء الشيني بالمينا .ثم

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر مـا تجـدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعـاقل التـي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمـادى الآخرة، ولما فرغ السلطان من فتـح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجـر ويجـري مـن العسـكر والعثير على السـماء والأرض الذيل والسيل . وعاد عابـرا على صـيدا وصرفند . وقـد اورى فيهمـا باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صـور ناظـرا اليهـا وعابـرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها .ولا معتقـد في تعقدها .ولا متئد في تـوردها . وعلم ايضـا انهـا ممتنعـة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلتـه الفـراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحصن . فعطف الأعنة الى ما هـو منهـا أهـون . وكان قـد استحضر ملك الفرنج ومقـدم الداوية . وشرط معهمـا واسـتوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بهـا محسور محصور . فلما أرخي مـن وثـاقه . واتسـع ضـيق خناقه . حلق في مطار اوطـاره . وحـرك لغـواته أوتـار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقـا على طـي المراحل ونشر القساطل . وحل معـاقد المعـاقل . وسـل قـواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشديدها قـد لان . وقـد آتـاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخـادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهـم اسـتقبلوا الموت

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر مـا تجـدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعـاقل التـي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمـادى الآخرة. ولما فرغ السلطان من فتـح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجـر ويجـري مـن العسـكر والعثير على السـماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابـرا على صـيدا وصرفند . وقـد اورى فيهمـا باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صـور ناظـرا اليهـا وعابـرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها .ولا معتقـد في تعقدها .ولا متئد في تـوردها . وعلم ايضـا انهـا ممتنعـة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلتـه الفـراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالسـاحل بلد منها أحصن . فعطف الأعنة الى ما هـو منهـا أهـون . وكان قـد استحضر ملك الفرنج ومقـدم الداوية . وشرط معهمـا واسـتوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بهـا محسور محصور . فلما أرخي مـن وثـاقه . واتسـع ضـيق خناقه . حلق في مطار اوطـاره . وحـرك لغـواته أوتـار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقـا على طـي المراحل ونشر القساطل . وحل معـاقد المعـاقل . وسـل قـواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشيدها قـد لان . وقـد آتـاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخـادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهـم اسـتقبلوا الموت

واستقتلوا . وتعقدوا على الفتح وماتحللوا . واحزنوا في الاباء وما اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقها . وفرجت بالحجار طريقها . ورجت بالتفريق فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق وثوقها . وجمع شمل الحجارة ب (النار التي وقودها الناس والحجارة)(البقرة ٢٤)ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة منا لهم الخسارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عبث بورهم بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع الحجاب . واشتد القتال .واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا تخلصت خلصت . واذا استنقذت استنقذت . وخرج • مقدمون وشاوروا الملك . ونهجوا في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة .وتلألأت السعود في أوجها بالاوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح بالشهادة . واختتم بالسعادة . وكان السلطان قد أخذ في طريقه اليها؛ الرملة،ويبنى،وبيت لحم،والخليل . واقام بها حتى تسلم حصون الداوية؛ غزة، والنطرون، وبيت جبريل . وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم اطلقه • فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه . واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة وبشارة . وراية وآية . وهيأة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعده . وجدة وجده .وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغه . ورروعه . ونخوه . وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساعير .

ومغاوير . ودهم . ونهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب وانجاد . وجلب ولجب • وبيض ويلب . وبيض وسود وا ساود وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعتاق . وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف وثقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحد لا يكل . وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك . وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقرت عينه بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر . بالفلك المواخر . وجاءت كأنها امواجا تلاطم امواجا . وافواجا تزاحم افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها • وضرغام غابها وهمامها • فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا . قد اصحب ريض مناه . واخصب روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الارجاء سيب العرف . طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملا فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق . وكأنما اعاد العجاج وأد الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل • والسماء حاظية بأقساط القساطل • وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على ماتنشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعمي ليحمل عنها بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع زهر المصابيح في سمائها . واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء الذين اقصاهم الله بلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان . وكف كف الكفر عنه بايمان الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . وادناس ادنى الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار انها ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل بال باليان . واشتعل بالنيران . وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها مقامتنا . ومنها قيامتنا . وتصحيح هامتنا . وتصحيح

ندامتنا . وتسيح علامتنا . وتسح عمامتنا . وبها غرامنا . وعليها غرامتنا . وباكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وان تخلينا عنها لزمت لامتنا . ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي والمرقب . والمشرب والملعب . والمموه والمذهب . والمطلع والمقطع . والمربي والمربع . والمرخم والمخرم . والمحال والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في احبارهم . والرهابين في صوامعهم . والاقساء في مجامعهم والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة والسيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحوت . والمنعوت والمنحوت . والتلميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة الكبش والحمار . والجنة والنار . والذواقيس . والذواميس. قالوا: وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتأله الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل النور . وزال الديجور . وازدوجت الطبيعة بالاقذوم . وامتزج الموجود بالمعدوم . وعمدت معمودية المعبود . ومخضت البتول بالمولود . وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات .ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت . وعنها ندافع . وعليها نقارع . وما لنا لا نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا . وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا وتباهوا . ومالنتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق امات الاسواء على الاسوار . وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطفت طواغيتهم . وأصلتت مصاليتهم . وذشرت طواميرهم . وتسعرت مساعيرهم . وهاج هائجهم . وماج مائجهم . ودعت دواعيهم . وعدت عواديهم . وسعت افاعيهم . وحضتهم

قسوسهم . وحرضتهم رؤسهم . وحركتهم نفـوسهم . وجـاءتهم بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العسـاكر الناصرية منصورة الجذود . منشورة البنود . موصولة القـواطع بـالاشاجع مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهودة الكتائب . مقـودة الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهـدى . مشـبوبة العزائم . مجذونة الصـلادم . مسـلولة الظبـا . مـطاولة الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسنونة اسنة صـعادها . مـطلقة اعنة جيادها . محققة مظنة طـرادها . قـد سـالت الوهـاد باكامها . وجالت الأعلام في اعلامهـا . وسـدت الفجـاج امواجها . وحجبت الغـزالة عقبـانها . والهبـت الذبـالة خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجـرت كالحبـال رمـاحها واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بـالعظائم قبيلهـا . ووافى كل واف بعهد ربه . كاف لكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضـاف بفيض شربه . خاف في لبوسه . باسل بباسه . عاسل بأمراسه . ناسـل بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند بسواعده . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده . جاد بحـده . وكل شـاب لنار الحـرب شـاب . ورب دين لدين الرب راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي ذبـاب عن الهـدى ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مـال . واقبـل السلطان بـاقبال سـلطانه . وابـطال شـجعانه . واقيال أولاده واخوانه . واشبال ممـاليكه وغلمـانه . وكرام امـرائه . وعظـام أوليائه . في مقانب بـالمناقب مقنبـه . وكتـائب بـالمواكب مكتبة . وذوابل بالكواكب منصـله . وجحـافل بمضـاء المضـارب محفله . وألوية صفر للاواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصـوافن صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل مـن يبـذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطـريقه الادنى • وفريقه الاسنى • يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه مـن الحسنى •

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا. وأي يد له عندنا اذا ايدنا. فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة. لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه. ودامت همم الملوك دونه متوسنة. وخلت القرون عنه متخلية. وحلت الفرنج به متولية. فما ادخر الله فضيلة فتحه. الا لآل ايوب. ليجمع لهم بالقبول القلوب. وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار. ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار. وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى. والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى. وهو مقام الانبياء. وموقف الاولياء. ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء. ومنه المحشر والمنشر. ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر. وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج. ومنها منهاج المعراج. ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج. وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق. ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود. وفيه كرسي سليمان ومحراب داود. وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود. وهو اول القبلتين. وثاني البيتين. وثالث الحرمين. وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال. ويعقد الرجاء بها الرجال. ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره. كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة. وقال عز من قائل: «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى». وله فضائل ومناقب لا تحصى. واليه ومنه كان الاسراء. ولأرضه فتحت السماء. وعنه تؤثر انباء الأنبياء وآلاء الاولياء. ومشاهد الشهداء. وكرامات الكرماء. وعلامات العلماء. وفيه مبارك المبار. ومسارح المسار. وصخرته الطولى. القبلة الاولى. ومنها

تعالت القدم النبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين . وصحب الروح الامين . وصعد منها الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله فيه : « كلما دخل عليها زكريا » . ولنهاره التعبد ولليله المحيا . وهو الذي اسسه داود واوصى ببنائه سليمان . ولأجل اجلاله انزل الله « سبحان ». وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمه . واعلاه واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن حالاته واحلى محاسنه . وأزين مباهجه وابهج مزاينه . وقد اظهر الله طوله وطوله . بقوله : «الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه . ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه والاياه . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفع بأعلاه علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصفي الى صرخة الصخرة . ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقا بكمال النصرة وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع ألحسرة . ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفر قد وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب . والقدر قد اظهر العجب . وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون الف مقاتل . من سائف ونابل . وبطل للباطل . وعاس عاسل بالعاسل . قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون . ويعاجزون ويناجزون . ويرمون ويدمون . ويحمونه ويحمون . ويحتدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشبون ويسبون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتغوثون . ويلوذون ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمون . ويتململون ويألمون . ويتعاوون . ويتضاعون ويحترقون البلايا . ويقترحون المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضال . ونازلوا اجد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح . لارواء الظبا الظماء من ماء الأرواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الآجال . وصالوا لقطع

الاوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبوا وتشبوا . واستهدفوا السهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق . ومري من آفاتها الافاويق . واصرخ الصخرة بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم العبوس . ويلقون على الردى النفوس . فللداوية دوي . وللبارونية من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . وما للفريرية من الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب . وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكائن المجانيق مجانين يرامون . ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال . ورجال تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكم نجم من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها ينفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات نكاياتها . وركات ادراكاتها . ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تقلع بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتح بأشطانها . وتمرح في ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصدع . وتنهز بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد بضربها من اساها . وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف . واخذ النقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنار خندقه . وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وابى في تأمينهم الا الاباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا ايسنا من أماذكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري بالشر . ونقتحم اقتحام المستضري من الضر . ونلقي انفسنا على النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فإنا نعطبها ولا نعطيها . وإما الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا نستبطيها . فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد السلطان محضرا المشورة . وأحضر كبراء عساكره المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاورهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستكشف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصالحة المربحة . وقال ان الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها . وأن فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه العبادة . ورأيك حاشد .وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد . واستقر بعد مراودات ومعاودات . ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير او صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء . فمن سلم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الذواب . ووكل بكل باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى . وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلي من السور بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهبة . وفي التمسك بملتها متعصبة . انفاسها متصاعدة الحزن . وعبراتها منحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياع ومتاع واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن أدعى انه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ من أحد الدواوين خطا بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا امناء . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والدفع وبقي من بقي تحت رق واسار . ينتظر به انقضاء المدة المضروبة . والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج . وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء الاكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيأة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الأبرار . ووجهه بذور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه مفتوح ورفده ممنوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبته تروق ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة الأمل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسته به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف ينشدون وينشدون . والأعلام تبرز لتنشر . والاقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة تخشع . والألسنة بالابتهال بالله تضرع . والكاتب ينشي ويوشي ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلمي الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلامي الا لطائف وحي اللطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعي الرسائل . ويشيع الفواضل . ويشبع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر . ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر . ويسمن الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلف والوفاق . والارقاق والاعتاق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع العروش . ويوحش المستأنس المستوحش . وينعش العاثر ويعثر المتنعش • يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء •. فبشرت باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت فضيلتها وبينت . واديت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من النوبة فأقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدبيري وادبر علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة في النفس وأنست بابلالي بعض الانس وامنت لو ثوقي بالصحة والاستقامة من النكس ، فاوجهت الى تلك الجهة وسرت بطاعة النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المنكرهة واخترت تعب السفر على راحة الاقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالاسعد واليمن والنجح فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة وسرى عنه وسر وابر وبر وقال:اين كنت.ولم ابطأت.وحيث اصبت في المجيء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك.والسؤال عن اخبارك.وهذا اوان احسانك.فاين احسان اوانك.فاجر بنانك بجرأة بيانك.واجر في ميدانك.وما للبشائر الا واصفها.وللفرائد الا راصفها . وللفصاحة الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها . واقتضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز.فقال لهذا من هو اقوم به وعناني.فلما رآني ناداني واستدناني • فصرفت الى امتثال أمره عناني • وسلم إلى الكتب التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال : غيرها . ولاتسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها . وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بايات الذكر . فاستجديتها فما استجدتها . واستجدبتها فما استملحتها . وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في افتضاض الابكار . واقتضاء الافكار . واقتراح القريحة . واقتراء رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز وا وردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت واشبعت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت . واطربت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت وجانست . ووافقت وانست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه . وذكرت من هذا كل ماراق وشاق . وذور الافاق . وان هذه الفتوح تفوح بارج نشره . وتحيى بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه . ومااسعد امالنا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف . ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي . وحليت المعالي . وقرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت : (شرع لكم من الدين ماوصى)(الشورى ٤٢) وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق . وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مـايساوى اكثـر مـن عشرة . وجدوا في ضم ماوجدوا من امـور لهـم منتشره. وكنسـوا كنائسهم . واخـذوا مـن نفـائسهم . ونقلوا منهـا الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحـريريات والمذهبـات . مـن الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ماكان على القبـر مـن صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجمع ماكان في قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للسلطان،هـذه امـوال وافره. واحـوال ظـاهرة . تبلغ مـائتي الف دينار . والامـان على امـوالهم لاامـوال الكنائس والاديار . فـلا تتـركها في ايدي هـؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولانتركهم يرمـون اهـل الايمان بنكث الايمان بل يتحدثون بمـا افضـناه مـن الاحسـان . فتركوا ماثقل وحملوا ماعز . وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور .وكتفوا بالديجور . وبقـى منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحـق فـاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقـدير سـبعة آلاف فـانهم الفوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي أيدي سبأ . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهـاد والربـا . واحصـيت النسـاء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسـمة • واصـبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكه ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت .وفارغة شغلت • وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحنت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولمياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة أصحبت . ورضية أصبحت . فـكم تسرى منهن سري . وتجرأ عليهن جري . وقضى وطره عزب . ونفى نهمـه سـغب • وفثـأ سورته شـغب . وكم غانية اسـتخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت .ووحشية صـيدت، وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذول . وقابلوا كل مالزموا به بالتزام وقبول . واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وشحت افواهم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصمه . وشغلوا بالخدمه . واستعملوا في المهنه . وعدوا المنحة في تلك المحنة .

ذكر مااظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحراب . وحتم به امر الايجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسة رفيعة . فاوعز برفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف ماحوله من الافنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصب المنبر واظهر المحراب المطهر • ونقض مااحدثوه بين السواري . وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقت القناديل . وتلي التنزيل . وحق الحق وبطلت الاباطيل . وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات . وصفت العبادات . واقيمت الصلوات . واديمت الدعوات . وتجلت البركات . وانجلت الكربات • وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبوس والبوس . وطابت الانفاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد . وعبد الواحد . ووحد العابد . وتوافد الراكع والساجد . والخاشع والواجد . والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم والقاعد • والمتهجد الساهد . والزائر والوافد . وصدح المنبر • وصدع المذكر . وانبعث المعشر . وذكر البعث والمحشر . واملى الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث الرواة . وروى المحدثون . وتحذف الهداة وهدى المتحذفون . واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المترخصون . ولخص المفسرون • وفسر الملخصون . وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء . وكثر المترشحون للخطابة . المتوشحون بالاصابة . المعروفون بالفصاحة •الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب الرتبة • ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقا . وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا من البلاغة فائقا . وفيهم من عرض علي خطبته . وطلب مني نصبته • وتمنى ان ترجح فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهم طال الى الالتهاء بها عذقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . ومامنهم الا من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعرض ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه . وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان . اصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان • وامتلأ الجامع • واحتفلت المجامع • وتوجست الابصار والمسامع • وفاضت لرقة القلوب المدامع • وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع • وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور الشوائع • وغصت بالسابقين اليها المواضع • وتوسعت العيون • وتقسمت الظنون • وقال الناس:هذا يوم كريم • وفضل عميم • وموسم عظيم • هذا يوم تجاب فيه الدعوات • وتصاب البركات • وتسال العبرات • وتقال العثرات • ويتيقظ الغافلون • ويتعظ العاملون • وطوبى لمن عاش • حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وماا فضل هـذه الطـائفة الحـاضرة • والعصبة الطاهرة • والامـة الظـاهرة • ومـاا كرم هـذه النصرة الناصرية • والاسرة الامـامية • والدعوة العبـاسية • والمملكة الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا فيمن يخطب • ولمن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفـويض • وتحدثوا بـالتصريح والتعـريض • والاعلام تعلى • والمنبـر يكسى ويجلى • والاصوات تـرتفع • والجمـاعات تجتمـع • والافـواج تزدحم • والامواج تلتطم • وللعارفين من الضجيج • ما في عرفات الحجيج . حتـى حـان الزوال . وزال الاعتـدال • وحيعـل الداعي (١) • واعجل السـاعى • فنصـب السـلطان الخـطيب بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القـاضي محيي الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بـان يرقـى ذلك المرقى • وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى • فأعرته من عندي اهبة سوداء من تشريف الخـلافة • حتـى تـكتمل له شرف الافـاضة والاضافة . فرقي العود . ولقي السعود . واهتزت اعطاف المنبـر . واعتزت اطراف المعشر . وخطب وانصتوا . ونطق وسكتوا . وافصح واعرب . وابدع واغرب . وابدع واغرب . واعجز واعجب .
واوجز واسهب . ووعز في خطيتبه . وخطب بمـوعظتيه . وابـان عن فضل البيت المقدس وتقديسه . والمسجد الاقصى من اول تـأسيسه . وطهيره بعد تنجيسه . واخراس ناقوسه واخـراج قسـيسه . ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقـوله تعـالى « ان الله يأمـر بـالعدل والاحسان . (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب . وافتتح ببسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك الامة . وثم نزول الرحمـه . وكمـل وصول النعمـة . ولما قضـيت الصـلاة انتشر الناس . واشـهر الايناس . وانعقد الاجتماع واطرد القياس . وكان قد نصـب للوعظ تجاه القبلة سرير . ليفرعه كبير . فجلس عليه زين الدين ابو الحسن علي بن نجا . فذكر من خاف ومن رجا . ومن سعد ومن شقي ومـن هلك ومن نجا . وخوف بالحجة ذوي الحجا . وجلا بذور عظاته مـن ظلمات الشبهات مادجا . واتى بكل عظه للراقدين موقظة . والظالمين

- ٥٨٧٣ -
محفظة . ولا ولياء الله مرققة ولا عداء الله مغلظة . وضج المتباكون . وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت النعرات . وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون . واناب المتحوبون . وصاح التوابون . وناح الاوابون • وجرت حالات جلت . وجلوات حلت . ودعوات علت • وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة . والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولالعيون المدركة ملمسا ولامطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبه . وقالوا محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير. والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة • فامر السلطان بكشف نقابها . ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها ونقض بنائها . وفض غطائها . وابرزها للزائرين . وأظهرها للناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراءة حسنها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجلاء شرفها الصريح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازينهم طلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والنشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى اليه معروفا دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات . وربعات معظمات . ولاتزال بين ايدي الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه • قومة تشمل مصالحها ضامه • فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون • فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع • وزهرت الشموع • وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين الدموع • واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايوبه له لو اقسم على الله لابره • وهناك كل من يحيي الليل ويقومه • ويسمو بالحق ويسومه • وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسحار • ومن الفته لتهجده الاوراد والاذكار . وماا سعد نهارها • حين تستقبل الملائكة زوارها • وتلحف الشمس اذوارها أذوراها • وتحمل القلوب اليها اسرارها • وتضع الجناة عندها اوزارها • وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها • وماا ظهر من تولى اظهارها • واطهر من باشر اطهارها • وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية . ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بانت مقاطعها . فهي الان مبرزة للعيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهـذا كله تـم بعـد انفصـال السلطان . والشروع في العمران • وامر بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصي . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثـر بهـا مـن الاثار الحسنة . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشـكر الالسـنة . فمـا منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ماامكن . وجلى وبين وحلى وزين.

واشـفق واذفـق . واغنى واقنى . واعتني وابتني . ووفى واوفي . واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمـة . وفضـيلة بهـا تـرجع . ووسيلة بها نجح . واتي الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم بـه العرف وغمر . ونهى وامـر . وبنى وعمـر . ومـن جملة افعـاله المشكورة • ومكرماته المشهورة • انه حضر يوما في قبة الصـخرة . مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولاجـل الصدقة والرفد مال . فانتهز فرصة هـذه الفضـيلة التـي ابتـكرها بالافتراض . وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسـلها بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت.

وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتـى بمجـامر الطيب فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى • وأرغمت آناف العدى • ومازال مع قوته • في تطهير البقعـة المبـاركة طـول يومه • حتـى تيقنت طهـارتها • وبينت عمـارتها • وراقـب نضارتها • ووقفت عليها الاستحسان نظارتها • ثم فـرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق • وافتخر بأن فـاق الكرام بـالانفاق • وجاء الملك الافضـل نور الدين علي .بـكل نور جلي • وكرم ملي • واحسان سني • وانعـام هني وعرف زكي وعرف ذكي • وعطـاء مبتدع • وانطلق بحمده الالسن • وبسط بها الصنيعة وفرش فيهـا البسط الرفيعة • وهدي واهـدى • واعاد بعـد مـاابدى • وانار واسدى • وافاض الندى • وفض الجدا • ونفض الاكياس • حتى خلنا به الانفاض والافلاس • وسيأتي ذكر مااعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه • واعجز بما اعجـب مـن سـوابق معـروفة

ولواحقة • مالم يشق احد فيه غبارة • ولاملك سابق فيه مضماره • واما الملك العزيز عثمان • فانه اتى بـالاحسان الذي استظهر بـه الايمان • وذلك انه لما عاد الى مصر • وقد شاهد الفتـح والنصر • ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها • ولم ير بعد حصولها به نقلهـا • وكانت احمالا باموال • واثقالا كجبـال • وذخـائر وافية • وعددا واقية ودروعا سوابغ • ونصـولا دوامـغ • وخـوذا وتـرائك • ورماحات ونيازك • وقنا وقنابل • وصوا قل وذوابـل • وجـروخا وقسيا • ويمانيا وهنديا • يزنيا • وردينيا ومشرفيا • وزيارات • ونفـاطات وقـطاعات• وعدد الذقـوب . وجميع ادوات الحـروب . فاستظهرت بها المدينة . وتوثقت بها عراها المتينة . وكان مـن جملة ماشرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم . ويخرجوا قبل ان يستوفي الباقون في اداء القطيعة مدتهم . فتـوفرت بـذلك عدد البلد . واستغني بذلك عما يصل من المدد .

ذكر محراب داو د عليه السلام . وغيره مـن المشـاهد الكرام وتبطيل الكنائس . وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصـن عند باب المدينة منيع-وموضع عال رفيع . وهـو الحصن الذي يقيم به الوالي . فاعتنى السلطان بـاحواله الحـوالي ورتـب له امـاما . ومؤذنين وقواما . وهـو بمثـابة الصـالحين . ومـزار الغـادين والرائحين . فاحياه وجدده . ونهج لقاصديه جدده . وامـر بعمـارة جميع المساجد . وصون المشاهد وانجاح المقاصد . واصفاء الموارد للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام . وكان ينتـابهما فيهـا الانام . وكان الملك العـادل نازلا في كنيسة صهيون . واجناده على بابها مخيمون . وفـاوض السـلطان جلساؤه من العلماء الابـرار والاتقياء الاخيار في مـدرسة للفقهـاء الشافعية . ورباط الصـلحاءالصوفية . فعين للمـدرسة الكنيسـة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط • وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ماولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة • وحرم على النصارى زيارتها ولاالالمامة • وتفاوض الناس عنده فيها •

فمنهم من اشار بهدم مبانيها .وتعفية آثارها . وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة أباطيلها . واطفاء قناديلها . واعفاء اناجيلها • واذهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليها . ونبشت المقبرة وعفيت . وأخمدت نيرانها وأطفيت . ومحيت رسومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضها . انقطعت عنها امداد الزوار . وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها ولا هدها . ولايؤذن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء . ولاينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولونسفت ارضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الأعز الكريم . والشرف الذي نخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . وافتضاض عذرته . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى بـه مـن سراره . وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى مـا كانت موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس . وقد اقصي عن المسـجد الاقصى الاقصـون من الله الابعدون . وتـوافد اليه المصـطفون الاقـربون . والملائكة المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسـبحين . وخـرج المفسـدون بدخول المصلحين . وقال المحـراب لأهله مـرحبا وأهـلا . وشـمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة مـاجمع للاسـلام فيه شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت مـن بـره أوف نصيب . وتلت بالسنة عذبـة : « نصر مـن الله وفتـح قـريب» . (الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بـدموع المتقين مـن دنس المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد ينسي من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجـاز المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجـدد لهـا مـن البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثـاني المسـجدين . بـل ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر. وتـطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أدناس الارجاس . وتضـوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحـاش بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمـة عليه لبـاس البـاس . وجعـل عصر مـولانا أمير المؤمنين صـلوات الله عليه على الاعصر مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخـر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامـه فتـح البـلاد السـاحلية بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطـاغية مـن الفـرنج بقتلهـا وأسرها . ولقد حـل الكفـر عروة عروة . وهـد ذروة ذروة وعادت حباله رثاثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعـد أن شوهد اهل الذمة أحـداثا . فـالرتاج مسـتفتح . والرجـاء مستنجح . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة . والعقائل مفتضه . والمعاقل منفضـة . ومناهـل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضه . والثغور مبتسمه . والأمور منتظمة . والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي في جميع أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ٠» (الكهف:١٠٩) والقاضي ضياء الدين القاسم الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ماتسنى من فتحه . ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه .

عادالحديث الى ما جرّى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتي تسلم مابقربها من حصون . واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله الى عكا عائدا . وعن حوزتها بيأسة وجوده ذائدا . ثم تبعه الملك المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه . وفرضه بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن السبيل . وحمل به عن الغارم . واحيى به سنن المكارم . ووضعه في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي الاضافة . والانفاق في أهل الفاقه . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل المجاهدين منه وظائف . وابقاه بافنائه ذخرا للاخرة .
وكسبا المحامد الفاخرة . فاكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما
فضه بفضله . فقال كيف أمنع الحق مستحقيه . وهذا الذي أنفقه هو
الذي أبقيه . واذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فانه
يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة
احفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة
في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتفيأ كل
فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل .
والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوارد .
والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون الطرائق .
والمالكون الحقائق . فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح . وراويا
للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحصا عن مشكلة وموردا
لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي .
ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا
بتعريض أو جالبا لمدحه . أو طالبا لمنحه . او مستضعفا بفاقه . او
مستسعفا بافاقه . أو ناشدا بنشيده . أو مسمعا بتغريب وتفريد .
وما فيهم الا من أحظي بسهم . أو ارضي بقسم . وأصيب وأجيب .
واجيز بتقرير وتقريب ، فقيل له لو نخرت هذا المال للمآل . لشفيت
به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال .
فقال أملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء
المطلقين . وكانوا ألوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم .
وواساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره .
ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في
مصالحه مستديما . فقيل ما قعودك عن صور . فأنهض اليها
عسكرك المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظى منها بمرادك
وسؤالك ، فآذن السير . وآخر الخير . وأحصر الخبر . واحظر
التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضة . وفي بدار
الالمام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بابدارها . فأسر
بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال وأقطع . وأكثر من
كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

- ٥٨٨١ -

بالمشطوب . وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وبيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحض . وحرض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها. وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا . وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق اليها مضيقا .واحكم اسباب الاحكام . وأخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان .وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة .ثم اوصاه وشيعه واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظهرا باخائه . ومستبشرا بآلائه . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستغنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل .وبشده يشد وبحاوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضه .وللخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة . ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه .باهرا بتاخيره وتقديمه .قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره .وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهله .ويحرض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه ملبيا . ولجيش النصر معبيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تـاسع شـهر رمضـان يوم الجمعـة . بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا مـن سـورها . سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة بالبذود والجذود أرضه وسماؤه . مذشورة راياته منصـورة آراؤه . خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجـح في الانحـاء ثرات صوب صوابه.قد كست خيامه عري العـراء . وفضـت أشـعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء . واحتوت مضاربه المضـيئة بـالائه وآرائه على مضارب المضاء . وبـاحت اسـتباحه حمـى المشركين الموحدين بسر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المـدد . وتـكامل العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصـغار والكبار .ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس .في خميس يسير في الوشـيج كالأسـد في الخيس .ونزلت النوازل المركسـة مـن نزوله ونزاله بـالمركيس .فـوقع في الدردبيس .والعذاب البيئس . فكانما نفخ في صـور صـور . فحشر أهل جهنم وملأوا السور *. واتصـلت زيارة الزيارات للجـروح بالجروح . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت الحجارات حاجرة جاجزه . وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج مـن القدس وبلاد الساحل محتـوية . فضـجوا وارتجـوا . وعاجـوا وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا .وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا من الشرافات الشرفات . بـالشرور والافـات . وسـلب الحجـار حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت * ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نزفـت . وطـود نسفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صـغيرة . وانهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصـف الجفـاتي . فصـدف اتيهـا الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر مـن المنجنيق بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبـط رجالهم برجاله . وقابل الابراج بـالابراج . وحـاول بـالردى علاج العلاج . ووالاها حجارات وصـخورا . حتـى جعلت سـور صـور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي . فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام المغصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لصم الصفاح مصافح ، وكل جاندار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار ، وكل منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال بالهدى لأصماء أهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الأفق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدام قرنه دام ، وكل ضرغام صريعه في رغام ، وكل قمقام ضارب بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل ذمر مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح مزيح ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد ساع ، وللاسلام راع ، وللاشراك ناع ، وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر الناس بشجاعته ناج، وبباغت المذون لمن يلاقيه شاج ، وكل عتال عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين . فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا . وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الاقواس الى أوكار الأحداق أفراخا . واستصرخوا الاقدار لاقدارهم فحبتهم حين أحبتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا الشقاء لأولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والان الشديد . وأعان

السيد . وأفلح ففلح الحديد بالحديد . أوجد الجديد ومد المديد وصور مرتجة أبوابها. مرتجة أربابها. مغتصة جوانبها . ومرتصة عصائبها . مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابها . محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشوة كتائبها. والمركيس بها متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسخط لبلده . وارتبط بجلده واختلط بكمده . وغلت مراجل غلوائه وعدت غوائل عدوانه . وطاش وجاش وأوخش الأوباش والأوخاش(٢) . وتوشح بالشر وتوحش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره . وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجله في مكر مكره . وكر في وكره وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعسر وتسعر . وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . ماض عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فازدحم على بابه وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجار جار . وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب . وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب مجرد وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث . وكل غيث غياث .وكل سفاك لدم الكفر سفاح . وكل جراد لسيف الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتمن في نقعه .ملتم بزغفه . مثلم بحرفه .مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سابح في بحر الموت بسابحة . سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمراءه . واستحضر عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه من الارض مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطريقه الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه . وقد قطعو بخندق في عرضه . وعمقوا ونزلوا في أرضه . وكان من احكام الحزم . واتمام العزم . تكميل الآلات وتتميمها ، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها . وتقريب الجفاتي وتصفيفها ، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها ، وتنحية أثقال العسكر وتخفيفها ، وتنخية نخب الرجال

وتصريفها ، وتسنية الأسباب ، وتهيئة الأخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الأنصار ، فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياع ، وتيسرت وتوفرت الأصول والأتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، واذا حالت الاحوال وضاعت الاوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وازاله الخلل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل مابتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصفت من سور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لقلاع ، ومدبر بايجاف .ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ ، واطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد الف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله.والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شده شدة ، وفي جده جدة ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولامصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكا ن السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا ماكان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان وللردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل ، فاستشعر المركيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها مناكب ، وسفننا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريها ، وتجري سواريها وتسري جواريها ، وتطير للقنص بزاتها ، وتغير للفرس غزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتلاطم الأمواج بأمواجها ، وتزاحم الاثباج بأثباجها ، وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواة باقلاعها ، وتنقض على شياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآبيب الذعر سحبها ، فكأنها الاساود والسود ، وركبتها الاسود ، من كل افعوان يحمله افعوان ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشتات العدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالها من اغربة دارت بعقبان . وأجنحة طارت بظلمان . ورواس سوار ، وغواز بغوار ، وقد ملئت برماة الحدق وحماة الحلق ، وزراقي النار وطراقي الثار ، والخاطفين بالخطاطيف . والقاذفين بالمقانيف والكالمين بالكلاليب . والسالبين بالاساليب والحاربين بالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فانشقت مرائر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصت جناة الجنوية ، وكرثت ادواء الداوية.وكثرت اسواء الاسبتارية . وزادت آلام الألمانية،وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم في الميناء لاتبين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت جبالا تسفن . وأنس اصحابنا بعلو الأمر ، وخلوا البحر.وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف.ودام

تطوا فهم.وا ستقام ايجافهم . وا غتروا بالسلامة.وسروا بـالا ستقامة،
وباتت لنا شوان خمس . لها بزوال الوحشة انس.وربـطت بقـرب
مينا صور راصدة ، ولأخذ مايخرج من شوانيها قاصدة ، والدياجي
مدلهمة والدواهي ملتمـة،وعيون الزهــر را قـــدة.وعيون الكفـــر
ساهدة ، وللمكايد مصــايد. وللعـوادي عوائد.وللغـــوائل طـــوائل.
وللمسائل دلائل ، وللمقادير مقــادر.ولا ولذلك المراد مــراد ، فحفـظ
اصحابنا الى السحر الحرس ، وســـهروا الى أن شــارفوا الغلس
وكل منهم لما استأنس نعس.وغاص في النوم وماتنفس.فما انتبهوا
الا وسفن الفرنج بهم محدقة ونيرانهم محرقة . فـولجوا في البحـــر
والتجوا . وتطافروا (٤)الى الماء لينجوا وعدت العداة وأخذت تلك
الشواني الشناة واسروا منها عدة.ولقــي البــاقون شــدة.فـــاغتم
السلطان بسبب هذه النكبة.وفرح الكفــار بتلك الضربــة.وكانت تلك
اولى حادثة كرثت،وكارثة حدثت.ونائبة رابت،ورائبة نابت،فضـــاقت
القلوب، وضافت الكروب،وحصلت تجربة الغارين . واتصلت حـــركة
القارين . وا ستيقظ الناعس.وا ستوحش الآنس .وهب الراقـــد.ودب
الراكد ، وذاب الجامد . وشب الخامد.وهاج الزائر.ومــاج الزاخــر.
وتحرك الساكن،وتورك الراكن.وعقل من غفل.وذهـن من ذهـل.وتيقـــظ
من غفا ، وتحفظ من هـفا، وتقبض من انبسط.وتقيد من نشط،وهـــم
من عف.وألم من كف.ورجفت الآفـــاق بـــالمرجفين.وطـــالت ألســـــنة
المعنفين.فمنهم من يؤنب ويذنب.ومنهم من يقــول ويطنب . والعــاقل
ينجنب . ويقيم العذر لمن يذنب.ويقول هذه مـــن الله مـــوعظة.وآية لنا
موقظة،

وا شار الناس بانفاذ الشواني البواقي، وقطعوا بان هذه القـطع
لاتكفي لملاقاة في يلاقي ، فجهــزوها نهـــارا وصـــيروا سرهـــا
جهـــــــــــــــــــــــــارا . وامـــــــــــــــــــــــــروا
بتسييرها الى بيروت . ورجوا ان تسبق وتفوت . وركب العسكر في
الساحل يباريها . وهي بالقرب تجــارية في البحــر وهـــو في البـــر
يجاريها . فابصر ملاحوها شـــواني الفــرنج لمبــارزتها مبـــرزة .
وللاجهاز وراءهـا مجهزة .وكانوا رجالا من بحـــرية مصر مجمعـــه .

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظـارهم مـروعه . فتـوا قعوا الى الماء . وخافوا على دمائهم في الدأماء (٥) . وخرجوا الى البر على وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروههم . وفروا وفـاروا . وطـاروا وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدهم دعاؤهم الى التجمـع الا تشتيتا . فظهر بهذه الذوبة الواقعة . والنبوة الرائعـة . ان ذواب مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتـب فيه على مـا يراد رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة . ومستضعفة غير آلفة ولا مـألوفة . فـلا جـرم لما شـاهدوا الروع ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري والتجرية ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحةالدفاع . وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات . وهيهات ان يدرك هيهـات . فنجـا النجباء . وآب بهم الاباء . فبقيت المراكب البـاقية . وقـد اخـلاها حماتها الواقيه . فـرفعناها الى البـر . ورأينا الصـحة منهـا في الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحـر . وهـذا والمنجنيقـات ترميهم . والمفوقات الموفقـات تعميهـم وتصـميهم . والقتـال قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار تقلقل . والاسوار تحلحل . والاطوار تضعضع ، والابـراج القيام تسجد وتركع . والاصـلاد تقـدح . والاجـلاد تقـرح . والالواح تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح القوارع مـوسومة . والحنايا واتـرة مـوترة . والمنايا مـأثورة مؤثرة . وظعائن الضغائن تحـدي بصـليل البـواتر . وصـهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بألسنة الاسنة.وعنت الاعنة مـن الغريم الكافر . والاوداج شـاخبة كالعيون البـواكي . والابشـار دامية من الزنبوركات والناوكات الذواكي . وهناك العقـل معـزول بالتهور . والرأي مشـغول عن التـدبر . والعلم والحلم خـالطهما الجهل والسفاه والجرخي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بـلا اله الا الله . والزراق بـالنار يطيب القـاروره . ويحــرق الساتورة . والسباق الى المضـمار يسـاور السـور ويبـاشر الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظنوا فينا الفتور لاجل تلك الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبها . وكتائبهم اختل ترتيبها . وستجرى بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم . ولا وجه لتباعدنا منهم . فلوخرجنا صدمناهم . وأقدمنا عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوما قبل العصر . في عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأموا وانضموا والتظموا وتقدموا . وأقدموا الطوارق حاملين . والجمالات مطرقين . وعلى الفرق مجتمعين. والجماعات مفرقين . وبالرهق جانين . وبالجد مرهقين . والعقود حالين . ومن الغمود سالين . والمناصل منتصبين . والطوائل مقتضين . والسيوف مجردين . والسيول مجرين ، وبالزغف ملتثمين . وفي الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مغوار وار . ومحضار ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عنود . وكند كنود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا وتر . مصم اذا اوتر . مصم اذا نعر . مصر اذا ذعر . هائج اذا استعر . مائج اذا نخر . متنمر اذا زأر . متذمر اذا زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . ودنوا من متارس المنجنيقات . وجذوا من مغارس الجذويات . وبذوا امرهم على ان الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون قارون . فتلقاهم منا كل ضارب الهام . ضار بالحمام . وجار الى الأقدام . ملب الصوت . محب الموت . مشتهر باغناء . مشته اللقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متقاض بالقواضب القواضي. وكل ابيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض . واغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعادة . متمن للمذون . متجن على الحذون . مضرم نار الحديد في ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العديد . مفرغ ماء الظباء على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثم باللام . وتلفع بالالثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجوشن بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب . وجال بالهضب . وطال بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتار . من كنين الأوتار . وهفيف السهام . لذفيف الهام . وصليل بنات الغمود . من غليل ابناء الحقود . وهمهمة الابطال وغمغمة الاقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقرع الظبا بالظبا . ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من الحديد . وعجة الشديد . وجعجعة رحى الحرب . وقعقعة اداة الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهديل حمام الحمام . وهدير قروم الايدام . ووعوعة ذئاب الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدعة صاع المصاع . وجلجلة سباع القراع . وصلصلة الزبر . وولولة الزمر . وحيعلة دعاة النصر . وهيضلة رعاة الكفر . ورفرفة المريشات الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة اعطاف المران . وزهزهة اصوات الشجعان . ونعير الغالبين . وصخب السالبين . ولجب الجالبين . وزحير الطالبين . ونهيت (٦) الأسود . وقصيف الرعود . وهدة الأركان . ودهدهة الرعان . وقهقهة الأقران . وقرقرة كوم البكاء . وصرصرة بزاة الغزاة . وكشيش صلاص الضلال . وذشيش مراجل الرجال . وهزيز ريح الياس . وهزيم رعد المراس . وارنان المعاجس . وارزام القناعس . وهيعة الصارخ . وصيحة النافخ . وزعقة المستفزع . ونعقة المستنزع . وشعشعة الخرصان . وزهزمة النيران . وهينمة الاجل . وجمجمة الزجل وتكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابواب الجنان للشهداء . وصريف انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعت الاصوات . واشتبهت

الاحياء والاموات . ووقــع اصــحابنا فيهــم وقـــوع النار في الحطب . واروهـــم في مـــرايا البيض وجـــوه العـــطب. وولوا مدبرين . بعد مـاتولوا مـدبرين وجذوبنا تشـــلهم . وجـــدودنا تفلهـم . ولتـــوتنا تـــرضهم . وليوثنا تفضـــهم . وعادوا الى البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهـم نوادب . وايدي الردى بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخــل الليل . وعمهـــم الويل . واسرنا منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، وممن اسر فخسر قومص عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشــف عن حـــاله بالنهار . وكان الملك الظــاهر غازي . لم يحضر فيمـا تقـدم مـــن المغازي . فرأى ان يحقــق اســـمه بقتله . فضرب عنقـــه بحـــد نصله . وكان المركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فـظنوا انه هـــو الشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثــم عرف ان المركيس في نفسه لم ينكأ ولم ينكب . ولما عطب اشــياعه لم يعـــطب . وندم على ما قدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر مادبروه من الرأي ورأو ه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتـــج العـــدو ولج . ضـــجر العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الافــلات . ولا يكرهـــون الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومـــزاولة مـــالايزول تصعب . ومحاولة الممتنع محـــال . ومـــطال غريم هـــذا الفتـــح مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لايكترث بالكارث . ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلي ، ولا يفكر فيمـــن ولي أو ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا مـــن النصب ، وكل مـــا جـــرى الى اليوم منا ومـــن القـــوم لم يرعه ولم يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف الســبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعافه . وبم نتوسل ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله يحتوي الاقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومر به ما امروه ، وهمه ما به هموا . والله ما به الدواء فراسلهم بالهيبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه ، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة اذا فاتت لا تدرك ، والبغية اذا واتت فحقها تملك ، ونواظر الناس الى ما سيكون منا في صدور صدور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان ترددوا عن المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت منها في الكفر شقاته . والنصر قد آن أن تطيب نشقاته . والمركيس ابعده الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لاالتطاول الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . واذفقه في اهل باسه . وواصل البذل وهجر العذل . وملأ الايدي بالغنى . وروح للرجاء نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعادة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . ودنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانت . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام النكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولايشتطون ، فاول ماقالوا امهلونا حتى نعلم مايكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بذفانه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر الدين دلدردم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لنسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبى الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس ، واذا ابيتم التسليم عدمتم سلامتكم ، واقمتم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولمقاتلة اهلها مستديم . والى ماعند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة وذخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن. وشقيف أرذون . ومن عمل طبرية والغور: صفد. وكوكب. وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين ° من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صـور محـاصرا . والدين الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح . ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تسـتكين . وشـدتها تلين وابيتهـا تدين وسريرها يبين . وكان قد دخل كانون . وظهر من سر الشـتاء المكنون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي النشاط . وعادت العـزائم المتـوهجة تبـرد . والصرائم المتـأججة تخمد . والنخوات المتحـركة تجمـد . والحميات المتيقـظة تـرقد . والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخذم ينبو . والطبـاع تتـكره . والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختـل . ومعـاقدة النزال تنحـل . فلحاهم السلطان على مالاح .وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفـر الا مـع الصـبر . وان الظلم تنجلي عند تجلي الفجر . وكان في الأمـراء جمـاعة منتجـون منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة ولاكراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقـام ويؤثـرون بانفسهم في طاعة الله وموافقة السـلطان . وعصـيان الشـيطان في مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا راي المشـير به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا . وقالوا كيف نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . وننشر كفـرا طـويناه ونهجـر خيرا نويناه . ونداوي توحيدا شفيناه . ونشـفي اشراكا ادويناه . ومااللراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مـطلوب . ومـن امسى وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصـبح وهـو مغلوب . وهـذه صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شفهت . واذا تخلينا عنهـا وخليناها ترفهت واستفرهت . واذا حلمنا عنها سفهت . وهبت مـن غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بـالمثابرة مثاب . فمنهم الامير طمان بـن غازي مـااطمأن يومـا في الغـزو ولاسكن . وعز الدين جرديك النوري كم جـرد على اعناق المشركين سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدامان . من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخـر بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكرهـون . واما الباقون فانهم احبـوا البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الاتقاء . وابوا الا الاباء . وقالوا قد

لغبنا . ومابلغنا . وجرحنا ، ومارجحنا . فلورحنا استرحنا . ثم عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر . معتف العقل . مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم . عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وثلم مابرى من غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مبانى البلد هدم اكثر منه مباني الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأسا واقداما . ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع النواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد . وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت . وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم . واجترأ اصحابنا . وراض جماحهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في البحر خلف منهزميهم . واقدم من احجم منا لاحجام مقدميهم . فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلات السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض . وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم اياما . لنلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم.

والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا . وفينا الجريح والطليح . وحتى متى لانستريح . وقد توالت الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات كثيرة . والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . ومازالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل . ويقولون لاتتعب على تحصيل المستحيل . ولاتذهب الايام في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفق اموالا كثيرة على تلك الالة والعدة . ومامكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولو ابقاها لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقضها . وفك بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشتت بعد التجمع شملها . وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب ماتكاد تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى ويد ايده على جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف . وتزود للانفكاء والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . وذهب من ذهب على مواعدة في المعاوده . ومسارعة في الرجوع الى المساعدة . وودع الملك المظفر تقي الدين من هناك . واوعد بوعد عوده الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا . وان هذا الهدو الذي مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا . وبقي السلطان يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الفتح الذي ماادركه . والذين اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهوذون الخطب . ويقولون نمضي ونعود . وتساعدنا السعود . وتنجدنا الجنود . وتتجدد الجدود . ويورق العود . وتصدق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبل الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسعاد وساعد الامكان . ومازالوا بنا حتى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهم احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامرد لمراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عباده . وان تبقى صور في تلك الحالة للكفر وكرا . وللمكر مكرا وللشرك شركا . ولنار جهنم دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني وعم البرد في القاصي والداني . وتوحمت السماء من حوامل السحائب . وتوحلت الارض من سوائل المذانب . والذكب الرياح عواصف عواسف . قواصم قواصف . والسحب الدلاح (٧) هوامل هوامر رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بتات . وما مع مقامه وثباته مقـام وثبـات . وسرنا عباديد في لباديد . وبين جليد وجلاميد . على الناقـورة وطـريقها . والاثقال قد ازدحمت في مضيقها . والاحمـال تتـواقع . والاجمـال تتقاطع . والسبل تنسد . والسابلة ترتد . وسـالكت الخيل الجبـل . وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصـل . وتـأخر الثقـل . الى ان تخلص . وتقدم مـن سـبق وتملص . ووصـلنا الى عكا في ثـلاث مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الأمر وتـدمير الكفر . واثقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جـاولي . وكان مـن جملة الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي صابرا مصابرا وهـو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السـلطان لعلمـه ببيانته وأمانته . وبأسه وبسالته . ويقظته ونهضته وحزامته . وكله بحصن كوكب الذي على الغـور . وكانت فيهـا جمـرة الاسـبتارية القريبة الجور البعيدة الغور . وقـد تمنعـوا بشـدتهم . واشـتدوا بمنعتهم . وهـو حصن لايرام . وركن لايضـام . ومعقـل لايسـامى ولايسام . وذروة لاتفرع . ومروة لاتقرع . وعقيلة لاتفترع . وبـكر لاتخطب . وقلعة لاتطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت الحصون في سلك الحصول . وظفـر الاسـلام بـالفتح المأمـون والمأمول . وافتتحت طبـرية وأعمـالها . وتملكت أغوار تلك البـلاد وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهمـا . فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة والحمية . ومقدمهم مسعود الصـلتي أصـلتت سـعادته منه سـيفا

إصليتا . لايلفت عن لقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصرة . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم . واغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حزب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ماآمر وحلا . وكان ذا دين متين . ومكان من النسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . باردة مقشعرة . أنوارها بائدة . وأنواؤها جائدة . وهزيع جنحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مشيب . لايفرق فيها السماء من الارض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود * والعدم قد دنا منه الوجود * فما أحس محمود المحمود * وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الامير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا الى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع فلما عرف السلطان ماأصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد الى الجنة مآبهم . فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الأسد . والأحمى الأحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول اليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستديما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل للآمال فيها نجحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عوده من صدور

استأذن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأذن له وودعه . بعدما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك العادل وأوجه إلى مصر . مستقبل الظفر والنصر . وأقام الملك الافضل بعكا مستقلا بالأراء . ومستهلا بالآلاء . مستبدا بتدبير أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين . ولاقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب اننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من عندنا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج الودق .(٨)وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح الاوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد . وتجللت بابراد الجليد من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام تواصل البوارح والبوارق . ودخل السلطان الى المدينة . وسكن بها في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما الحجة المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وابرام معاقد الحل والعقد . واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح والفضل . واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام واكرام الوفود . واعادة ما بدأ به من افاضة الجود . واجازة الراجين . واجارة اللاجين . واسعاف العافين . وابعاد العادين . وادناء أهل العلم . واغناء ذوي العدم . وانجاح المقاصد . وانجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من الروم وخراسان والعراق . عاكفين على بابه . قاطفين جني جنابه • واقفين لرفع حجابه . مستسعفين لنعمائه . مستعطفين لابائه • متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه . وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهداه الى سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الاولى . وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي . فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه . ويقر بحكم النزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالك همذان واذربيجان واران . وهو عز الدين الطالبي الطالب للعز . الراغب في الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول . ويتصل به سول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها فقربها . وولى عز الدين جرد يك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين منها قطوفا . وأسدى معروفا . وأعطى ألوفا . وأرغم من الاعداء آنوفا . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه . وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة للمتفقهه . وللطلبة المتعففة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل . والنجح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الاجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل مايحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها ، ولا أجرا الا أجراه . ولاهدى الا أهداه . ولا أمرا الا أمره . ولا دارا الا أدره ، ولا فريضة الا أداها . ولا فضيلة الا اتاها . ولا فرصة صواب الا انتهزها ولاحصة ثواب الا احرزها . ولارمم فواضل الا انشرها ونشرها . ولا امم فضائل الا حشدها وحشرها . وماترك قارئا الا قراه . ولاراويا الا اشبعه وأرواه . ولاحافظ حديث الا حفظه من الحدثان ولامحسن صنعة الا اصطنعه بالاحسان . ولاناظم مدائح . الا نظم له المنائح . ولاموافيا بقريض إلا وفى قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي بالتردد في الاعمال . وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال وتعليل السقم وتسقيم المعتل . وتحليل العقد وتعقيد المنحل . فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من دار الخلافة للرسالة في العتب على احداث ثقلت . وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعايات في السلطان عثت . في الاحوال . وشعثت . وذلك في شوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزال .

ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الاكبر . وخص وعم النجح الاظهر . وقطع دابر المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين . أمرني السلطان بانشاء كتب البشائر الى الافاق . وتقديم البشرى به إلى العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح من الله عظيم . وملك عقيم . وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما انزله الله لنا من الرحمة والرآفة . الا من هو عندنا أجل وأجلى . وأعلم

وأعلى . وأجمع لفنون الفضائل . وأعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولايذبه لهـذه المقـامة الا القـويم النبيه . ولايرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فـان الشريف يتضـع شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بـكرت . ومـوهبة ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد . قد هاجر للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله . ونبـه بعـد خمـوله . فســأل في البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ . وشفع له جماعة من الاكابر حتى خص بأشرف البشـائر . فقلت هـذا لايحصـل له وقع . ولايصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير . وفي هذه النصرة الكبـرى كبير . فـان الرسـول مـن يندب للتفهيم والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعـظيم . ثـم سـار المندوب . وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشـير الجندي . فلم تجل به على كفؤ الجلالة من الهـدى الهـدي . وحقـروه . ومـا وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بـكلام اخـذ عليه . وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة نكره . مـا يعرض عن ذكره . فخيل ومـوه . وتنكر وتـكره . وظـن أن لكلامـه أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانهيت الى العرض الاشرف مقـالاته . وعلمت جهالاته . وتجني على السلطان بارساله . وطرق الى هـداه ماأنكروه مـن مقـال المذكور وضـلاله . ووجـد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا . وطلبوا لشـمل اسـتسعاده بـالخدمة تفـريقا . واختلقوا اضاليل . ولفقوا ابـاطيل . وقـالوا هـذا يزعم انه يقلب الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعـت بـالملك الناصر نعـت الامـام الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العـزيز على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي واذفـانه . وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفـل لنا في كشـف سر الامـر بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتـظم في سـلك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . وورد معـه جواب البشارة . وكتبت له تـذكرة بمـوجبات مقـاصد العتـب . ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه . ونشر الاعتاب في طـي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد الموهبة في بـرد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الأخ ، فسـار وهـو يبـذخ وقـد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، وألحـف مـن ذور الاهبة العباسية نهارا وليلا ، فوصل السـير بـالسرى وقـطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة وا شـارة رادعة وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امـامية ، وهيأة عصمة عصامية وفرند نبوي لاينبو ، وزند وري لايكبو ، ولسـان في الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري.وبلاغة بابلاغ . مـاليس بلاغ.وفئة وافية وصيغة بصياغة كل غريبة قول ، ورغيبـة طـول . وكافلة كافية وسني ذور وقار يستعير منه سنير . وثبات خاق يتخلق به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عابيا . جاحدا للنعمة شـاكيا . ذاكرا أنه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فمـا حـرك شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض . وغضب مغض . ولفظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامـات المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولاتدخل هذا البـاب واخـرج ، وليس هـذا بعشك فادرج.وقلت للسلطان سمعا وطاعة لأمر الديوان فان اظهـار سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم مـاقلت ، وقـد طلت بارسال أخيك وطلت وماأسعدني اذا شرفـت بـالعتاب . واسـعفت بالخطاب ، والمملوك يدفعه التأنيب . ويزعه التهـذيب . على أننا لم نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفـر . وأدنى الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجدين . أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما اسـتأذنا بهـا تـاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

والدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما أرحت من رق الشرك الساحل . أما ازحت عن حق الملك الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والحقتة بالبيت الحرام ، وألحفته رداء الاكرام.واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول . وبالسول وحبا ومرحبا بالاقبال والقبول . ومااتى الا بالحب والحبور . ولامرار الامور . ولاظهار سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصادق يرام اذا وعد ، وماأسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وابدى لمعي . وجمع شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي واصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم لجلالة قدومه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار الكفار ، ومواطيء اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبي الحب ، وسفر وجهه لوجاهة السفير . وأحل محل التوقير والتوفير ، وتبلج له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأميل . ثم حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده ؛ وأدى الأمانة في مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت المعرفة والذكرة ، فقراتها عليه بفصولها وفصوصها.وألزمته حكمي عمومها وخصوصها ° ووقفته على ظواهرها ونصوصها ° وكانت في الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة وخيلت سقطه ، وجلبت سخطه ، وقال ان الأمام أجل ان يأمر بهذه الألفاظ الفظاظ ° والاسجاع الفلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا وارفق وأوفى منها فضلا وارفق ° ومعاذ الله ان يحبط عملي ، ويهبط أملي. وامتعض وارتمض.ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف ° وانتجع بارق الاستسعاف ° وقال اما ماتمحله الاعداء وعدا به المتمحلون ° وتدفق به المتقولون وتسوق

المبطلون • فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة • ومـاهزرت منذ اعتززت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بـالنعمة السالفة ، يوجب أنفي من هذه الآنفة ، وأما النعت الذي اذكر ونبـه على موضع الخطاء فيه وذكر • فهذا مـن عهـد الامـام المسـتضيء رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الالسنة . ومتي عد سيئة ماعد من الحسنة ، والآن كل مايشرفني به امير المؤمنين من السمة فانه اسمي الذي هـو اسـمى واشرف . واطـرأ وأطـرف وأرفـع واعرف . ومازاده ذلك العتب الاخلوص ولاء ، وخصـوص اعتـزاز واعتزاء . ثم قال كل مـا اعتمده مـن نصرة الدين وقهـر اعداء امير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وماتعبدت به سواه . فـاني افترض الطـاعة الامـامية الدين لا الدنيا، ومـا أتقوى فيهـا الا بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتـوح لامير المؤمنين وقـطع دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقـاصد ، وبعـد الأباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجـرى اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر ذعر الخاشي . وجرب غش الغاشي . وخرب عش الغشي . وذوت همـوم ذوي الهمـم ، وأوليت كرامة أولي الكرم ، ومازال السلطان مدة مقام أخـي عنده ، يوري في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تـكدر ذات البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة مـن الأكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له:قد نسب حقـك الى البـطلان . ورميت بالبهتان ولحت طـاعتك بعين العصـيان . فـكيف خفـت وماعفت والفـت ومـا اذفـت . ورغت ومـا غرت . وصبرت وماسبرت • وأغضيت لما اغضبت • وأعتبت لما عوتبت • وراقبـت ومـاروقبت

فقال تذللي للديوان العزيز تعزز بـه أبين . وتـوسلي إلى مـرضاته توصل بالله فيه اسـتعين . فتـواضعي تـرفع ، وتخشـعي تورع ، وحبل حبي متين ، ومـكان قـربي مـكين . وممـا قلت له واوضحت له سبله ، انا كنا بـطاعة امير المؤمنين نطـول ونصـول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت . ووسيلتنا التي نجحت وكنابها مسعودين . وعليها محسودين . وقد شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولاتتثبت لمن لايثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس وبالغ في ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ماحلا وجلا جدة وجده ، وكل مايبطل سوق المتنفقين ويعطل نفاق المتسوقين . ويهجن خلق المختلفين . ويزيل تلفيق الساعين . ويزيح سعاية الملفقين . ويتعرف الى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه البشر ماعليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا ومضى ماأمضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفة لابداعه رسما ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطا.وذلك ان امير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت نفره ، ولما نمي الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لا شك ان طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

-٥٩٠٧-

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله علاءه ، وظاهر آلاءه وضافر نعماءه ، وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده،وأعز أولياءه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه بالايامن مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة ، ودالة على البشرى بالفتح الأكبر ، والنجح الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الأبهر . والفضل الأكثر . والافضال الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الابلج الابلخ (٩) ، والعز الأسمق الأسمى . والنور الأنم الأنمى . والظفر الأجل الأجلى . والوطر الأحل الأحلى ، والشرف الأسنم الأسنى . والعزم الأغنم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى . والصيت الأبدي الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح . وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غوادي النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح ، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه واستحكم وهنه ، وقوى نكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال حسنة ، وأجدبت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوفة وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام آسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد ، الذي تعالي عن الولد ، وان المسيح ابنه وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه ودرج الملوك الاقدمون على تمني استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نفانه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهذا العصر . وأنزل على نصلنا نص النصر . وأطلع الليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اسباب الاسلام وقطع دابر الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع اهل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفر والبأس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بردهم عن المراد وصدهم ، واقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا سلك امدادهم في ذلك المسلك ، حتى وصل الحاج سالما . وذل الكفر عن قصده راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا الجهاد في سبيل الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمرنا ولدنا الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ، وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربنا عماراتها ، وأحرقنا غلاتها ، وقطعنا ثمراتها ، وأزعجنا ساكنيها ، وأخفنا أمينها ، وأجلينا عنها فلا حياء . وأقمنا النوائح عليها في نواحيها ، ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية ، واجتمع بالمخيم الافضلي برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية ، والجزرية والموصلية والديار بكرية ، فانتهز ولدنا هناك فرصة الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسبوا وسلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، واخذت دون خروجهم الى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال للرياح العواصف ، وشرعوا الى عرانين الكفر اسنة الرماح القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه مملوكنا قايماز النجمي صارم الدين ، فلقيا بصدريهما صدور العوامل ، وحملا في عسكرنا على الفارس والراجل ، وحصل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ، ولما قضينا الوطر من تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات اهل النار بالنار حق الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عدنا الى الشام . وقد تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام القتام وعلق بالافاق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشترا (١٠) شهرا . وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلبوت . وقائد اهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره فراشهم . وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامة رعبهم قائمة . وسوابح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية وسراياهم طالعه . ومقدمات رعيهم منا السائرة لجذوبهم وقلوبهم مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض . ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الأعداء . عالية كهمم الاولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في كتائبها نازل القضاء . وسحب نيل الأرض بمثار نقعها . على السماء . وقطعنا الأردن . وتأييد الله مواصل . وقدره باقدارنا على الأعداء كافل . فما المنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف . ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس . وأسد

الوغى قد اتخذت من وشيجها العـريس . هــذا والملك العــادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصـاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبـرية . ان نلاقــي الفــرنج على صـــفورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغــر بـــالاقحوانة (١١) . وتمســـكنا مـــــن الله بـــــالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبـــل قصـــــد طبـــــرية الى الفـــــرنج في مجمعهم . واشرفنا عليهم في مـــوضعهم . فمـــا بـــرحوا مـــن مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتـــدنا في صـــحراء لوبية مـــوضعا المصـــاف واســـعا . وفضـــاء لمأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اســـباب الظهـــور ميسرة ° وجـــئنا في خـــواصنا والجاندارية . ونزلنا في العدة المجردة على طبرية . واخذ النقـابون ساعة النزول في النقب . فصرع قائم سورها للجنب . ودخل الناس اليها ليلا للنهـب وكانت ليلة مـدلهمة معتمـــه . وارجـــاء المدينة مظلمة . فاشعلوا واوقدوا . ودخلوا الدور وتفقـدوا مـالم يفقـدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار . فـاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصـــن اهلهـــا بقلعتهـــا . وتمنعـــوا بمنعها . فأصبحنا على حصرهـــا . وســـلكنا جـــدد الجـــد في امرها . فجاءت رسل الامراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجـت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهــم الندم كيف تــركت ومــا ادركت . وأنها قد عبت جنودهـــا . وشـــبت وقـــودها . ولبـــت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران ســوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابحها الاعوجية . وان جمــرهم قــد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهــم قـــد اتـــوا في عددهـــم وعديدهم . وحدهم وحـــديدهم . وخيلهـــم ورجلهـــم . وطلهـــم ووابلهم . وفارسهم وراجلهـــم . واحــــزاب ضـــلالهم وابـــطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخـــواتهم نار الحمية . وســـاقوا الى معتـــرك الردى وملتقـــى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . واللجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي . ولمعت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت قوانس قوامصه . وارتعدت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلاهبه . واشتعلت نيران قواضبه . وشدت الاجادل دون صوار صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسرعت الاعنة . واشرعت الاسنة . ونقع النقع .(١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرمرم عارم . ومجر جارم . وعوامل جوازم . وصواهل صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسوابح قد أقلت بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض.وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران محصوص . حتى دخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعي الموت بتلبيتهما . واصبحنا يوم السبت واهل الأحد على حالهم ولم يريموا موضع قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣)تتواثب وتتثاوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والرواعف في زرع الطلى رواع . والمنايا تئن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجوامح النيران شواب . وضمائر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامرار أمراسنا والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره . والاوام يتوقد ولايتوقى احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة للارتواء • فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم • وحلأناهم عن

الورد . والجـــأناهم الى الردى بـــالرد . فـــاعتصموا بتـــل حطين . وصرنا بهـــم محيطين . وتحـــكمت فيهـــم قـــواضي القواضب . وذشبت من النشاب بهم نيوب النوائب . وكان جمعهـم جمرا وقد وقد . فصب عليهم السـيف نهـرا فخمـد . وفضـــوا بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجـاج بـالقتلى والاسراء . واسر الملك واخـوه . والابـــرنس الكركي ومؤازروه . ووجـــوه الكفـــر ومقـــدموه . ومقـــدم الداوية وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفـري بـن هنفـري وابـن صاحب اسكندرونة وصـاحب مـرقية . ولم يفلت الا ابـن بـارزان والقومص (١٤) . وتم لهما مـن الورطـة المخلص وكان كلاهمـا ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القـومص فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهـل الجبـروت . وحيز صـليب الصلبوت . وبار وبـاد اولياء الطـاغوت . وهلك عبـدة النا سـوت واللاهـوت . وملك عليهم القدر كتـاب الاجـل الموقـوت . وقـدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر . وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر . وألحقنا بـه الداوية والاسـبتارية . وادرنا عليهـم صـبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبى من نجيعهم . وقربنا سيد الفـلا من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتهـا . وحللنا عقـدتها وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثـم سرنا الى عكا ففتحناهـا بالامان . واعلنا بها شعار الايمـان . واسـتقربنا بعـدها البـلاد الساحلية من جبيل وحـد طـرابلس الى الداروم غير صـور فـانها امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفـر غير سـورها . وانهـا وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتـح اخـواتها . وكثفـت مـن عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعـــة ثـــالث عشر رجـــب • فـــرجف

بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصـمون . وانهـم مـن بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقـات هـدت احجـار السـور بسورة احجارها . واذن ركوعها بسـجود الابـراج في اجبـارها .

ووفت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القلل لاقالة مادام بها من العثرة . وكشف النقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبي الدار . وأيقنوا بالقتل والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان . مبتهلين في طلب الامان . فأبينا كل الاباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا . فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق . وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخره افضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . وبنا المسجد الاقصى للراكع والساجد . وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد . وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجليت هدى الهدي من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح . وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لاجلها من تبار التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجال . وهو للحرمين ثالث ولاتثليث في حرم توحيده . فتجدد جد الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدبيره . وقضينا حق تقديسه وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شر ذمته . وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها . وان جمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تـؤذن بـأصحابها . واذا تسـلمناها تسلمنا بأذن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقـع بهم واق . ثم رأينا ان حصـار صـور يطـول . وان مسـألة بيكار (١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفـوت . وله وقتـه الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء . وتواصلت الانداء . ولابد مـن اسـتئناف جمـع العسـاكر في ايام الربيع . واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . مـن يديم شـن الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليهـا . وفسـحنا لاجنادنا في الاستراحة مـدة شـهرين الى النيروز . فـان في تلك الايام تتـوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جـرت المواعدة على المعـاودة . والمعاقدة للمعاضدة . والمعاهدة للمسـاعدة . فليس في الفـرنج مـن يقاتل الان على الخيل . والنهـار عليهـم في اظـلام الليل . والعـز متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حـربنا مثير للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعاقل المبينة . وهـي: طبـرية . عكا . الزيب . معليا . اسـكندرونة . تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صـفورية . الفولة . جينين . زرعين . دبورية . عفربلا . بيسان . حيفا . صرفند . صيدا . قلعة ابي الحسن . جبـل جليل . بيروت . جبيل . مجـدل يابـا . مجـدل حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التـل الاحمـر . الاطرون . بيت جبـريل . جبـل الخليل . بيت لحـم . لد . الرملة . قبيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشـقيف . ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والابـراج الحصـينة الجـارية مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البـلاد التـي ذكرناهـا اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقـد جـاس المسـلمون خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصـدنا البـلاد . وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سـيف الدين ان يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفـر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون) (المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد من مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها عنوه . ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوه . ثم حضر مجدل يابا وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الي ان نفتح مافي جانبنا من البلاد ونتسلمه . وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده ونغتنمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية . وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالامان . بعد ان قاتلنا اهلهما قتالا شديدا الجأهم الى الاذعان . فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان . وهان لنا كل ماا ستصعب منها ودان . وظهر لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لمارميناها بمصائب . واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحيالها وعصيها . واقتدنا بخزائم الكرة انف الطاعة من عصيها . وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها . وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى احجار البناء فهدتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب . ولما ايقن اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسالمين مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب والطافه المنفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناه الله من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها بحق منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو عروسها البكر في حسنها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمه . لازال المجلس مشكور الشيمه عالي الهمه . منصور العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بعكا وربيب الربيع رضيع . ووشي الروض وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار منيع . واريج الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيع . والدهر قد ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون النرجس مصفره . وشفاه المنابع مخضرة . واحداق الحدائق الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنه . وجفون النوار متوسنة . والافنان مورقة والورق متفننه . وخد الخيري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل . وشارب النبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى وسر . وطبي الطيب قد حفل ودر . وتقاضى السلطان غريم عزمه

بدين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العـرين . فـأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقـه . ونشر بيارقه . وحشر رواعده وبوارقه . وانفق خزائنه . وانفـد دفـائنه . وبذل في صون الدين ديناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتـال العـدى فيه لهج المحب المغرم . ولعزمه وهيج الهيب المضرم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهـي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتـركب . فـأحطنا بـالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجـال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السـلطان ورازه . واسـتصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تـطول . وان مسـألته تعـول . وان محـاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرته . واضاقته في مضايقته . وان مـافي هذه الحال اقتضى تعذر افتضاض عذرتـه . ولا مـطمع الآن في فـرع ذروته . ولاقرع مروته . وكان في خواصه . واهل اسـتخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستقلا وللاشغال مدبرا . وبالاستظهار متأيدا . وبتـأييد الله مسـتظهرا . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب الحـرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لمرابطها بالليل والنهـار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان سـعد الدين كمشـبه الاسـدي بقلعـة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابـرنس الكرك في الشرك . بمعتـكر يومـه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضـه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعـت اسـاسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها هنفري بن هنفري في قبض الاسار وقيد الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها.والهة دخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف العطف لواحدها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها ، سائلة في فلذة كبدها . جائلة بجذوة كمدها . باسطة يدها . ناثرة خرزات دموعها . عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها . ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بذوحها . عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . باديا صبح وجهها اليقق (١٦) في ليل شعرها الحالك . مشرقة من اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة . معتزة متذللة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة . مستدعية مستعدية . عاطية مستعطية . ساكبة عبراتها . راكبة عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ولقرمها الندب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملكة فانه مكن محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . ودخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هذفري من دمشق اليها واقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنها وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأفحشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسبوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لاينتهم خاشنوها . وكلما قاربتهم بايذوها فوجدت نبوة ذوابها . وعدمت إصحاب أصحابها . وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم ففلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن . ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما المت بالشوبك ألمت من شوب كدرها واملت دفعها فعادت بضررها . ولقيت من ذوابها ذوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فآبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال ذعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرفد والرفد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا ° الى صور ° واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لحاصرتها . ويفي بمصابرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

السلطان هذه المراتب . ورب هذه المآرب . أقام حتى وثق باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مادبره في عمارة عكا

اختلفت الاراء في امر عكا فانها كانت مدينة متخرقة . وبيوتها متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بلا سور . ورأوا أن في ابقائها خطرا . وأن في اخلائها ضررا فمن اصحابنا من اشار بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قال اذا صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قائل بابقاء برج الداوية لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أدناها . ومن قائل نجدد سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح اقفالها . وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلها . ويحلي عواطلها . ويتوحد بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها * ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان:ماأرى لكفاية الامر المهم . وكف الخطب الملم . غير الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمام المحرب . الذقاب المجرب . المهذب اللوذعي . المرجب الالمعي . الراجح الرأي . الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامح . وتعديل الجوانح . وهو الثبت الذي لايتزلزل . والطود الذي لايتحلحل . بهاء الدين قراقوش الذي يكفل جاشه بما لاتكفل به الجيوش . وهو الذي ادار السور على مصر والقاهرة وفات وفاق الفحول بآثار مساعية الظاهرة . فنامره ان يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

وذؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بـالحضور . لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بـالشغل . متحمـلا للثقل منشرح الصدربالعمل . منفسح السر والامل . مبتهجا بالأمر . ملتهجا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه مـن اسـباب العمارة والاتها وأدواتها . وانفارها وأبقارها . ورجالها وعمـالها وعمارها . ومهندسـيها ومـؤسسيها . وحجـارتها ومعمـاريها . والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير الدفقة والذهب الابريز والرقة • ومثـل بـالخدمة السـلطانية على كوكب . وحضر الموكب وشرف باسني الخلع وأعطـي الملبس والمركب وفـوض اليه وقلده • واسعفه من عنده واسعده° وقوى جانبه • واعذب مشاربه وأوضح مذاهبه • وانجح مآربه • وأجد جده . وكثر مدده • ووفـر عدده وعدده • وخصه بعطاياه • واستخلصه لوصاياه • فتوجه الى عكا وشغله متوجه • وعزمه متنبه وسره مترفه • وفـكره في رياض الهدى متنزه • وامره ماض وحكمه قاض • والله عنه راض • وقام بما أقيم له • ونهض بالعبء وحمله • ومشى بكفايته عمله • وشرع في التعمير والتسوير • وتسوية الأمور بحسن التـدبير • وسـياتي شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه • وما ظهـر مـن حسـن ايالتـه واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسـلان وغيره من الرسل .

لما شاع خبر السـلطان بـاستيلائه على البـلاد . واسـتعلائه في الجهاد . وتارجت الارجاء بعرف عرفه . وأرخت السـير بمحـاسن وصفه . عنت الامصـار لمصره . وأعنت الامـلاك لملكه • وانقـادت الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح . وشروح ايراده واصداره تحـل في صـدر الزمـان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم . وتـأهب له بـالطاعة كل اقليم . ورهبـه ملوك الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه اهل الاشراف . فـكاتبوه

مستسعفين . وخاطبوه مستعطفين . ورا سلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خلاف الامتزاج . والاتشاح والالتحـــاف بحلاف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . وليده وقدمه من تمكينه وتاييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوسل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولايقبل عليه منه الا بقبــوله . ومــن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحـــاد . ســـلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بـــن قليج ارســـلان . فـــانه بـــذل الاذعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وأبدى الرغبـــة الاستكانة . واستنهض في ســـفارته الســـفير الالب . وندب الندب . وانفذ أكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بـــن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكتـــه محـــكما . وعند اهـــل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولاتصرف له في ملك ولامـــال الا بتصريفــــه . ولاتعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفســـه لتمهيد القواعد . وتشييد المقاصد . وتجديد العهود . وتاكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حـــاضرا وحضر خـــادما . وقبـــل البساط وبسط وجه القبول . وتمثـــل له الشرف فتشرف بـــالمثول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والتـــرحيب . والبـــر والتقـــريب. وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جـــاء به وأجابه . وابعد بابناء مآربه ماربه . وشافهه بشـــفائه . وأرواه برووائه . وأولاه اولائه . وعرفـــه بـــالتعريف الى آلائه . ونصـــبت له خيمة مسردقه . شهادات الاقبال الناصري لهـــا مصـــدقة . ووجـــوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لهـــا مغـــدقة . فـــأقام أيامـــا بايامن مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم الســـلطانية مشـــيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء الســـماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام . ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا • باحسان الخطبة وخطبة الاحسان • راغبا في تتميم الوصلة • وتعميم الصلة • آخذا لصاحبه ملك ديار بكر عهدا محكما • وعقدا من الميثاق مبرما • وقد أحضر قضاة بلاده شهودا • واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودا • وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل • ومت بكثرة الشوافع والوسائل • وكان خائفا على آمد فانها من فتوح السلطان • ووهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان • فاشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة المظاهرة . وان يفتح بها باب المزاورة للموازرة . فآواه الملك العادل الى ظل هذه المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده الاماثل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك ديار بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوبا . وعاد نيله بالافخار مسحوبا . وقال له:قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركنك فالى سواه لاتركن . ومامن كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه . لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

واقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم رأينا انه يطول حصرها . ولايفوت أمرها • وان الفتح يبطىء . وان كان السهم لايخطىء . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون . بالمقام عليها وابتذال سرها المصون . ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطول . وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقباله متهللة . والسنة بالدعاء له مبتهلة . وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه . واسماع لامره مستمعه . وأيد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه منشرحة . وأمال في انعامه منفسحة . ونفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة • واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل اليها السكينة • فوجدت الروح بسلطانها . وعادت الروح الى جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها . وابتدأ بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتألمين . وكشف الظلامات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل قصة . وقرأها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقام للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحل بانصافه كل مشكلة . وطب باسعافه كل معضلة . واصحت سماء السماح . وأصحب جماح النجاح • وأعدى المستعدي • وأروى الصدي . وحيا الحي واورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحق حتى قيل هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانفض اولئك القوم • الا عن مظلوم أجير بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم أهين . وهاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقد ومعتل شفي ومعتر كفي • وما حل جيد • وأمل زيد • وركن حق شد وشيد • وخدن باطل أبير وأبيد • وراح أدنى فوزه . ولاح أسني عزه • وجلس يوما آخر للاكابر والاماثل . والاكارم والافاضل . فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهدى . وكر الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتظم الشمل • وصان العلماء بالبذل . واعان بافضاله أعيان اهل الفضل . وفاز بالحمد وحاز الثناء . واجاز الشعراء واكرم الكرماء . وروح الرجاء . واولى النعماء . ونعم الاولياء وتقاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واستضافة المملكة الى المملكة . فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جذبية لحب لقاء العدى اهل النار نار ° وكان الصــفي ابن القابض قد استجد للسـلطان على بعض أبـراج القلعـة دارا . وأذهب في نضارتها ذهبا ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مـطلة على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين ° صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهـو . شـهية الزهور . مجدة لأهل الجـد ذكرى اللهـو . فـرشها بمـاء الورد . وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق سـتورها . واعلى ذورهـا . وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسـمى أنوار مشارقها . وتوصل الى حضـور السـلطان بهـا وجلوسـه . وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقـرظ بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضـالة رجـائه بنشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب ° وكل مطر مطرب . وظن ان السلطان تـروقه تلك الحلية والحـالة . وتلك الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعـة المقـدسة . وذلك المشرف العـالي . وذلك المشرف الحـالي . وانتـظر نظـــر استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا . ولا لمحة بطرف استطراف . ولامنحه حرف استعطاف . بـل اعرض بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضـارة . وغض عن تلك الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بـالرياضة . فـالعاقل مـن لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل النوازل منزلا . ولا يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيف يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغرم . وقال: السعيد من يبني دار الآخـرة . وينجـو مـن امـــواج الدنيا الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصفي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخـزانة على مكانه . وسمعته يقول في بعض محافله . وقد اجـرى له حـديث مـن يفـرح بمنازله : كان مـن ذنوب الصـفي عندي انه بنى لي تلك البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال مايعمل بالدار مـن يتوقع المنيه . وماخلقنا الا للعبادة . والسعي للسعاده . ومـايخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومـالنا والمقـام في البـلاد والبلد . ومـاجئنا لنقيم . ومـانروم (الا) ان لانريم . ومـــاتحركنا الا للسكون . وماسهلنا الا العود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحـة الا من مغرس التعب . ومايجنى نصيب المغنم الا من مغرم النصب . فأين الأين . الذي تقر به العين . ومايحصل السـكون في المسـكن . ولايكمل الوطر في الوطن . لاسيما والدين يطالبنا بـدينه . والكفـر يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . والبلاء هائبه . فلا تفـوح الفتـوح الا بهبـوبنا . ولاينزل النصر الا بـركوبنا . وغدا الحـزم متمما . والعزم مصمما . ووصـل الخبـر بـوصول عسـكر الشرق بالغرب الماضي ،والحد القاضي . والجمع الوافر الوافـد . والجمـر اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قـد اقبـل بقبيله. ووصل برعيله . وقدم بجده ، واقدم بحده . وانه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش النجـدة والجـدة جـامعا . فأرهف العزم السلطاني خبر وصوله . وحـل بـالشد الرحيل عقـد حلوله . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة والنبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبـرها . واسـتقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثـرها . والسـلطان بنجـح سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقـوله عامـل . وبعبارته قائل . ولاشارته قابل . فأراد السـلطان ان يقـدم بلقـائه الاجتماع . وبـرأيه الانتفـاع . ويسـتنير بنوره . ويسـتشيره في اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني السـعاده مـن مـطالعه . واجتنى جني الارادة من صنائعه . وافتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه . وجاءه بالوجاهة في دينه ودنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خـرج الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بـكرة يوم الثـلاثاء حـادي عشر ربيع الاول على الرحيل . فقصده لابرام ماوجده في مملكته من الامر السحيل . واقام عنده في الجوسق الى الظهر . مستظهرا به على الدهر . حتى كشف مهمات مهماته ورشف شفاه مشـافهاته. وانتجـى معـه في الاراء والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل الفاضل وشيعه . وبات تلك الليلة مخيما بالعرادة . محتما بالسعادة راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سـلك في جبـل يبـوس الى عين الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخـالق ومتبعـه والخاق تابع امره المطاع . واتى بعلبـك المحـروسة . وخيم بمـرج عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادر درها . وقسم لها من عدله . وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليهـا بحـكمه . وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية امر الرعية . وحكم على القضـاة بـالحكم في كل قضـية بـالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبـوة . معصـوم الذبـوه . مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قـد تنزه ، وقـد كحل عتير العسكر طرف الجو الامره ،(١٩) وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع مـن الزراعة مـن السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتمـاع به

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جـامع من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قـدس (٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تـأنس ، والكفـر بقـدومه تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهـر الشرك ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قـد زحـف على الليل برايات اذواره ، والفجر قد فجر انهـاره نهـاره ، وسرنا بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب مقبلا ، ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملقاه ، ونزلا

فتعانقا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقرب مخيمه ، وجثمنا وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجندان ، وسعد الجدان. وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمان واتحدت الكم ، وأتأدت الهم ، وسأل السلطان ان يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره حبوره ، فساق معه الى سرادقه وارتفع في صدره . ورفع من قدره . وصار العسكران مختطلين . وجلسا منبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين . وقرأ القراء وا ورد الشعراء . وتجاذب بينهم اطراف الطرف والاداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن الهائم . ومن عادته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم . فأنشد مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البساط . ومدت الموائد . وعادت العوائد ونضد الخوان . وكونت الالوان . ولونت الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهاة من كل حاجة وباجه . وخروف ودجاجة . وحلو حامت (٢١) وحامز وحامض . وتفه (٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصنوع ومقلي . ماطاب مذاق مذقه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من ناديه القرى . وفرع بأياديه الذرى . قدم ماعده للهدايا . والتحف السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعدد المعجبة . والاسلحة المذربة . وكل مايروق ويروع . ويضيء ويضوع . ثم انفض النادي عن ندي منفض . وسدي لبكر الشكر مفتض . وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده . وانه يستضيف فيه خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمارقة . وضرب بيت الخشب له لحسب بيته . واسميت الحسنى بحسن سمته وسمته . واحتفل بحفله . واجل لاجله . وارجت ارجاء النادى بالند . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على البسط ماحضر من الياسمين والورد . وفاح النشر . ولاح البشر ، وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . واشرعت القباب . وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح الذوافج . ووضحت مناهج المباهج . ووضعت المطارح والمساند . والاسرة والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصحبه . فتلقاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جذبه . وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس رسمه . وسما في الرؤوس اسـمه . ووقـف الامـراء والحجـاب . والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتـزاز في معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبـا . والذرا رحيبـا . والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل موردا . والحفل حـافلا . والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والنشاط مقبلا . والمرئي عاليا . والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخبر جليلا جميلا . والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمـــــــــان جليا . والربيع في انتهائه . والصـنيع في اشـتهائه . والمصـيف في ابتـدائه . والمضـيف في انتـدائه والنعيم في نضرتـه . والاريب في اربه . والطـروب في طـربه . والضريب مـــن الخلق الحســن في ضربه .وكانت ايام المشمش وقــد وصـــلت مـــن دمشـــق احمالها . وحلت في تلك الحـــالة حـــالها . وأقـــدم الجـــذل قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبـر مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى من السكر . واعبـق مـــن العبير .واحســن هيأة مـــن النارنج الأحمر . والليمون المركب المدور . وقــد زفـت عروســه في الثـوب المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خــرط مــن الصــندل . وخلط بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربــه مثــل الثمل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه مــا نضر . ومــا حظر مـــا حضر . ورئي هناك لقـــطوفه قـــطاف . ولطـــوا فيره طواف . ولعقوده مصارف . ولذقـوده صيارف . فـكأنها وجـــوه العشاق اكتست اصـــفرارا . أو جمـــرات تشـــتعل نارا وتبـــدي شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بـــل هـــي احداق الحدائق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صـبغها بلونه البرق .وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت من مهـــابة الجنات الجناه . وانتـــظمت مـــن جـــواهر الحيا الحياة . واضطرمت لهاها شوقا الى فتـــح اللهـــاة . ثـــم صرفـــت

الاطباق . ونظفت الآفاق وبسط المكان . وسمط الخوان . وذبهت اجفان الجفان القدور الرقود . وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي النشاشة . وتزينت مقار المقاري بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب المطبوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو المحبوب . والاغنية والحمان .والا شوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي والروابي . والصواني والاواني . وقد صفت البوارد . وصفت الموارد . وتذوقت الطهاة . وتنوعت المشهاة . وحلت الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط . وعاش اخوان الخوانسلار الضابط . وتداولوا وتناولوا الذوالات والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا موردا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا مسعودا . وصنعا محمودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت المقاصد . أحضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياد من طوائف الطريفيات . وسوابق سوابح من العتاق الاعوجيات . والمذاكي المنسوبات . من كل مطهم مطهر الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاديم . ومعرب مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سلهب . وبحر جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيظم . ويعبوب صلدم . واجرد قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهد . وجواد ورد . ومسح رفل طمر . واشق امق غمر . ومفرع طموح . وعتيق غير جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختار منها كل طرف . قد حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشعل سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم احوى . واشقر مدمى . وابرش مدبر . وكمين مضمر . واخضر وادبس . وسمند اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات والدروع والزرديات . والرؤوس والرانات . والخوذ

والترائك . والبواتر البواتك . والدلاص الموضونه . والنصال المسنونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحم والدبيقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تونة وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على النمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح . وامره متحبر متربح . ووده مترح مترجح .ودعاؤه صالح . وثناؤه صادح .ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها . والنزول بعقرها . وانها اذا ملكت ملكت طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الغلس . واقام العسكر اياما على قدس . وبقبس النصر قد تأنس . ولسناء الظفر قد توجس . واتي العرب . وواتي الارب . واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع . وآن لليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع . ونبعت الفيوض من النعيم وفاض الينبوع . واينعت ثمار المبار وطابت الينوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى الجهاد هوادي الجياد . وادنينا قطاف الطاف الله لاجتناء الاجناد . وكانت الاعشاب بالشعاب واصية . والشوائب من المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر .وطاف الذعر . وقال ذفر الشرك ذفر . ولاذ ستقر . وتشوروا وتشاوروا . وحاوروا وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد التجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الاثقال .وتجرأ على اخذ اهبة القتال . وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهــو الذي حين يواري صــارمه المشهور في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصــحبه مــن فــرسان العرب كل فارس معــرب . ومـــن شـــجعان الاكراد كل فـــاتك محرب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكيش على اكديش . وقارح على قارح . وخضم على سابح . وجــري جــار جــارح . وبهمــة وبطل . وجبل على جبل . وفحل على فحل . وذمر ذكل وورد على ورد ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس اليس . واحمى احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وبــاسل ذي باس . وعاسل عاس . ورئبــال على رئبــال . ومشــتمل على شكال . وبحر على بحــر . وصـــقر على صـــقر . وركبـــوا سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا بالذوابل نيولا . وطــار ابليس طــرابلس بخــوافي الخــوف . ودام الجوى في رعب اهلها بدم الجــوف . ومــا سار الا مـــن خـــف في نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكدار . وصــفت على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقــرت . وتعــرمت العريمة وتعرقت . ومــزعت تلك الاعمــال ومــزقت . وارهقـــت وازهقت . وذفرت اذفارها . وبقــرت ابقــارها . وملئت بــالدوائر ديارها . وسيقت مــواشيها . وحشــيت بـــالنيران اوســـاطها وحواشيها . ونزل السلطان على حصــن يحمــور فمـــا قـــدروا يحمونه . وابتذل مصـــونه واســـتخرج مـــكنونه . وفتحـــه ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقــام في تلك الديار عشرة ايام يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها ونفــوسها . ثــم رحــل بمغنمـــه . وقفـــل الى مخيمـــه . وعاد العســـكر مسرورا منصورا . محبورا مــوفورا . قـــد اطلع مـــن تلك البـــلاد على العورات . واضطلع بالغنائم في تلك الغارات . وذكا منها في الاعمار والعمارات . وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يمــوج بــالعساكر موج البحر الزاخر . وقـــد وصـــل قـــاضي جبلة يحـــث على قصـــدها . ويحض على انجــاز وعدهــا . ويحـــرض على اعذاب وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقــول

ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها . وكثرة ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها الحصار . وتجذبها عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل . قنيصة الحابل . وفرصة المتناول . ولهنة للآكل . ونغبة الناهل . وامنية العاقل . لم يفترع عذرة امنها ذعر . ولم يفتأ سورة دفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان سلكنا سبيلها . ملكنا سلسبيلها . وان جزنا ساحتها . حزنا راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها حوينا عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم . فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه • واصغى السلطان الى قوله . واصفى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له العطاء واكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . فوفر لهم رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالمواهب واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياعهم . واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجحافل . ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي المنصل . فسرنا في آجام مؤتشبه . وآكام معشبه وحزن وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . وروابي وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك النواحي المواحل . ومعنا احمال واوساق . واثقال واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد نشأ العجاج كعجاج النشاص . فانحلت بحلولنا معاقد المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحن في استباحة واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياد وارتياء . وفتك باعداء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور ، وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل ويل • فما نقطع الا واديا يغيظ الكفار ، ولانحضر الا ناديا نزيدهم به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا ساعة ، فلم يجد اهلها الدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها، وفل غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه • ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده ، وحل من احكامه ماالكفر شده ، وركب الذقب على ركنه العالي ، ونكبة في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية بدائها الدوي • واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطرطوس وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وماكانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن البلاد ، والفرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب لايعرج على بنيات الطرق ، ولايستغني مدلج الليل بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبتارية عالي المذكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطريق ، وقد صفت الفرنج في البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل والراكب ، وفوقوا الجرخ للجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح والطرح ، فعسر العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الأعواز ، وذلك ان صاحب صقلية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العادية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط ° قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله واسطوله ، وصوله وصوله ، فما أحلى ولاأمر ° ولانفع ولاضر ، ولااستقل ولااستقر ، ولانقض ولاأمر بل صار على الفرنج وبالا ، واحدث لهم بما يسومهم من مؤونته امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفع ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتلدد وأبلس ، وتفرقت جماعته ، وتجبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولايظهر له رأي ولايرى له مظهرا ، فتقطلت اقطاعه ° وتتابعت في الفرار اتباعه ، حتى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسيرة ، وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جوانبه ، قد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتي الى هناك وتصفيفها ، والستائر وتأليفها ، والتراس وترصيفها ، واقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وازائها ، الكماة النخبة ° والرماة الجرخية ، حتى تباعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمت عليها المحن ، وأنحت الأحن ، ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس ، وقد أجفل عنها الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجذبات الوادي مريضة ، والنسيم العليل بليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبحنا على الرحيل مبكرين ،(فساء صباح المنذرين) ،(الصافات ١٧٧) وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سفور وجمعنا في اجتماع ، وجدنا في ارتفاع ، ونهجنا في اتساع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازدحم العسكر عند ذلك النهر ، وتواقعت الاحمال والاثقال عند العبر ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده • وعانت الاثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطىء هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة الفناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق ، والفينا بلدة خاوية على العروش • حاوية للوحوش • خالية من الانس والانس ،(وكأن لم تغن بالامس) (يونس ٢٤)، وقد انزعج اهلها ، وتشتت شملها ، وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، واقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضح في الجد من الجد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعز الاسلام معتصمين ، وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبورة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على الميناء ، قال انه بحصانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصن البلد وهو المعقل الأكبر ، وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الأمان بعد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا من استرهنوه ، في انطاكية من أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم من سلاح وعده ، وخيل وذخيرة وغلة ، وتسلمنا الحصين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بالكرام جبلة جبلة ، ونفت عنها بالفئة المقبلة ، الفئة الشقية المختبلة ، وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة بالرخاء ، وافضى اليأس بهم الى الرجاء ، وفاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد العصيان ، مصافحين بالمصافاة بالايمان أيمان أهل الايمان ، وكان حصن بكسرائيل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضي جبلة مذعنين بايمانه مؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقائه محبين • ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجوا بالاستبصار والاستغفار والاستنذار ، وأضحت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سكانها حانية ، وتلك المدينة لأهل الدين دائنة دانية ، وتلك الجنة العذبة الجني لورد دم الجناة من شوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعالي في هدم اساس الاساءة بانية ، وتلك الهضبة راسية ، والتربة كاسية والرتبة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحالة حالية ، واقام السلطان بها اياما حتى أزال شعثها • وأزاع خبثها ، ورأب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشد حصنها ، حتى أزال كفرها ، وجبر كسرها ، وجد بها جدبها ، وحض بها خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبالرعاية ملأها

والرعية كلأها ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور الاولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الغزو يصممه ، وأمر لأمرار الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين يقفة ، وحد في تدمير الماردين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار يشعلها ، وجيش للوثبات ينشطه ، وجاش بالثبات يربطة ، وهيبة تروع الخواطر ، وهيأة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة منهم خافقة والانية بهم متضايقة ، والمهج في سوق الردى نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر النيل ، ومن السوابق في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم في احتزاز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتخاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضيب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات تسرج والسريجيات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى • والصرائم تقتضى ، والقوارح تضمر ، والقرائح تخمر ، والضوامر تجرى • والبواتر تعرى ، والصلاد تلجم • والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية تعبي ، والجاوشية تلبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والمفخر متوضح . والجاش فرح . والجيش مــرح . وقــرح العــدو مقترح . وزند الفتح مقتدح • وباب الســماء لنزول مــلائكة النصر مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام مــن موقها آماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضــنا اليهــا الحجار والنقــاب والزراق . وأطــرنا النشــاب الى أوكار المقــل . وأزرناهـم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل . ورأيناهـم تغلي من صدورهـم بنار الحقــود مــراجل الغلل . وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجــدوا في القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهــواء بــالاهوال . وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرخ دورك . وقلنا للكفر اخــرج لندخل الى دورك . وأي دار فيها التــوحيد بــأهل الشرك شــورك . وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقــاتلهم بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من السور حجابه بالحجار . حتى فــزنا بتمــكن النقــاب والحجــار . وأخذت عليهم الذقوب . ووقــذت منهــم القلوب . وبلغ النقــب مــن الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة أذرع في العرض اتســاعا . وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على رأس رأس راسخ . وذروة أشم شــامخ . فســهل الله لنا فــرعها . وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتــال . وجــاوبنا بالنصال النصال . وأوضــعت بنات الكنائن بــظعائن الضــغائن . وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن • ودام الرماء • ومــريت الدماء • وانتجع النجيع • ووقع ذلك الرفيع • فاستبطيء السريع . وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعاينوا مــا عاذوه من غريم الموت المطل في مطله • وفتح الحتف بابه . وحفــز الزحــف اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمــه المطلول مصــبه ومصابه . ونفر الناس اليهم • واستطالوا عليهم وطمعــوا فيهــم . والاجل يظهرهـم والوجل يخفيهم . وهـم من وراء أسوارهـم • بــواء في بوارهـم . ووبل النبل هــام . وأهــل الجهــد في ضراب وضرام . وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهــم الزمــع • ومنافيهــم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبــار . واســتشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق وارهف فقبل خده سهم . فرجع واذا وجهه طاق لاجهم • وهو بقرحه فرح . وللفرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح • وحسنه القبح • فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولايتركون . صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع • ولم يكن للكفر غيره مفزع • وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوه • وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلى النور . وأشرق الفاق وزهق الديجور . وبدا الفجر وباد الفجور • وسرت القلوب وأقبل السرور . وسلموا القلاع بما فيها من عدة ونخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم • وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم . وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه • وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه • ثم ولى بها سنقر الخلاطي مملوكه • وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه • فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية • وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية • واقام جاليا للغاية • عالي الرأي والراية • وركب السلطان الى البلد وطافه • وهز إلى إحسانه أعطافه • وأدنى الى عدله قطافه • ووفر الطافه • وأصفى نطافه • وامنه بعد ماأخافه • ورأيتها بلدة واسعة الافنية • جامعة الابنية • متناسبة المعاني . متناسقة المغاني . قريبة المجاني • رحيبة الدواني . في كل دار بستان . وفي كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكنتها مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة . ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة . ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية • وقطوفها دانية . وأسواقها فضية . وآفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها مونقة . وأرجاؤها فسيحة . واهـواءها صـحيحة . لكن العسكر شعث عمارتها • وأذهب نضـارتها • وأزعج سـاكنيها . وأخرج قاطنيها . وملك دوز المشركين المـوحدين . وطهـرها مـن رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامـراء الزحـام على الرخام • ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجـوه الاماكن • ومحوا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة . نفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاع مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة . واجناس تصـاويرها متنوعة . وأصول تمـاثيلها متفـرعة وهـي متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه . وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخـوان الشـيطان . وعينت لعبدة الصلبان . ولما دخلها الناس اخـرجوا رخـامها . وشـوهوا أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهـد أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابـلاسها . وحـكموا بعـد الغنى بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخـربت وتـربت . ثـم لما طـابت النفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هـذه الكنيسـة بالأمان القسوس وهي متشـوهة متشـعثة مسـتمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة • ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت . وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بـأنها عادت للاسلام مرابع . ولسروحـه مـراتع . ولجمـوعه مجـامع . ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت • وشأت البـلاد اذا شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسـلام إلى أحسـن حاله.وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فآض مأمول الجني مأهول الجناب . وعاد بتجار البحار مملوء الرحـاب . وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار . والاشرار أهل النار . وكانت شواني صقلية . قد قـابلت في البحـر اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنياده عنهـا ودفـاعها . فلمـا خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب مـن يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صـونها ببـذلها . فـامتنعوا عن

الانتقال . وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة مناها . فطلب مقدم ذلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه . فأمنه حتى صعد . ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان . وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك رحيم • وقد شاع عدلك • وذاع فضلك وقهر سلطانك • وظهر احسانك • فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها وأحسنت • لملكت قيادها • اذا أعدت بلادها • وصاروا لك عبيدا • واطاعوك قريبا وبعيدا • وان أبيت غير الغيرة والاباء • ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق • وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثأر .. وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان:قد أمرنا الله بتمهيد الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في الجهاد . وامتثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد . ولاتكترث الاساد بكثرة النقاد . ولو اجتمع اهل الارض . ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد الأعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على وجهه . وركبّ بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في نصره بين أنصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لايتمادى . وان العزم عن الفداء بالمهج في سبيل الله لايتفادى . وأخذنا على سمت صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتـون . وللإسـلام محيون . وكان الطريق اليه في أودية وشعاب . ومنافذ صعاب . ومضايق غير رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطـرق في يومين . ووصلنا ليلة الثـلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صـهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جـانبين . والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وسـور وثيق . والقلعـة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممتلئة بذئاب سغاب * وأسـد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء مـن نواحيهـا الاربـع . وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل السـلطان خيمته الى جانب الجبل بـكرة اليوم . وشرع في محـاصرة القـوم . وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغالاة السوم . وتـوفرت سـهام السهام من المقل . وتبـدت بنات الكنائن مـن الدم القـانيء حمـر الحلل . وأسقطت حوامل المنجيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مراء الرمـاء . وزخر دأماء الدماء * وطـارت الحجـارات . وحجـرت الطيارات . ودارت حميا الحمـــام على أولئك . واسـتنجدت ملوكنا الملائك . وأدامت اليهم المجانيق والجروخ والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين * ونهـج بهمـا مـن جـانب الوادي الى رديء الأعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فـانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه . وقـد اسـتصحب الكماة الحماة . ومعـه الرجـال الحلبية . والمنجنيقية والجـرخية . والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتـال على المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظـاهر في تـظاهر ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعنفوان جلاله . وشـباب رهان مجاراته . وشبا برهان مبـاراته * وابـراق عوده . واشراق سعوده . وغرة عزته* وميعه منعته * وصدر تصدره * وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشــوء اغتبــاطه • وفتــاء فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع يفاعه • وترعرع سنه • وتعرعر ركنه • وتسامي سيادته • وتراقي سعادته • واجد لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واســتلذ في ســبيل الله نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله ذوبــا • ولأحــواله رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجــارات الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم المحصن • وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر . فلله در المسيء المحســن • ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصــن • وهــان بمــا دب فيه مــن الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الاخرة • وطمــا بحر العسكر بأمواجه الزاخرة . وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهره . وهاج الشباب . وماج العبــاب . وتســابق ذوو الجرأة والقوة . وتلاحق ذوو الحمية والنخوة . وكان في قرنة الخندق عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقــه . ولم يتــم تــوثيقه . فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة . وتســوروا الســور وتســلقوا . وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذروة . وامسكوا العــروة . واستولى على أهلها الرعب . واستشرى بهم الكرب . فتعــادوا الي القلة . وتفادوا من الخوف لامن القلة . وملكت عليهم ثلاثة أسوار . بما فيها من متاع وشــوار (٢٥) . ونعــم وأبقــار . وصـــاحوا الأمان • وبذلوا الاذعان . ونادوا مكنونا مــن الســلامة وتســلموا المكان . فما امنوا على المال والنفس . حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس . واغلقت دونهم الأبواب . وسير إليهم النواب . ومــا استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار . وجبي الدرهم والدينار . وعم الكبار والصغار الصغار . وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ، ثم سلم حصن صهيون بجميع اعماله . وسائر ماحواه مــن ذخــائره وأمواله . الى الامير ناصر الدين منكورس بن خمار تــكين . اســد العرين وامير المجاهدين . المقدام الهمام • والمطعام • فألفى الثغر سداده بسداده . وامرع به مراد مراده .

-٥٩٤٥-

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين • ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه . وسلكه في سلك الفتوح ونظمه .

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة الله والنصر قد نزل . والكفر قد اتخذل . يوم الثلاثاء سادس الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر . وحكم السلطان في القهر ماض باذن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القلل • على هضبة منقطعة . عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها • واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولاعليها طروق • ولا فيها للطمع علوق • ولاللسهم اليها مروق • ولاللزحف فيها مقطع • ولاللذر نحوها مطلع • ولاللطير في مراحها وكر • ولاللمكر في افتتاحها مكر • ولاللوهم في توقلها مجال • ولاللفهم من تصورها منال • ولالها بمن يحتفل بها احتفال • وماعليها للنازلين عليها قتال ولانزال • ولايتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل الشغر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • وداومها بالحجارات أياما • ولكم سدد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها • وابت الا ثبـاتها وثبتـت على ابـائها • وأعيا اعضال دائها • واستفحال بلائها • وخـام الرجـاء بـالارجاء عن ارجائها • ولو لم يضجر حاميها لضجر راميها • وسـئم سـائمها لتساميها • لكنه وهي جلده • وهوى خلده وخار قلبه • وحار لبه • وخاف من الاقامة • وخاب من السلامه • وارتـاح الى الراحـة • وسـما الى السـماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لداء خـوفه في الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعه • والخروج مـن الضـيق الى السعة • فبينا نحن في ترو وتفـكير • وتخيـر للرأي وتـدبر • ونقول هذا حصر يشتد • وأمر يمتـد • وعمـل يصـعب • وأمـل يتعب • ومعقل لايختل ومعقد لايحتل • ومقصـد لايدرك • ومـورد لايملك • ومكان لاامكان لفتحه • ورجاء يطـول الزمـان في تـطلب نجحه • اذ خرح من الحصن من يضرع في الأمان ويمتـري ضرع الامن • فشكرنا الله على تسـهيل المتـوعر • وتيسـير المتعسر • وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتنقيح مناط حـكم الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارجاء • ليخبـروا صـاحب انطاكية ويستأذنوا • ويقبلوا عنده العذر ويخـرجوا مـن الحصـن ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر . والكفر صاغروفـم القهـر منا لهـم فـاغر . والاسلام قد ثلم ثغر من هـو له مثاغر . والحصن البـكر مفتـرع • والدين المتأصل بشعب النصر متفـرع • وطلع العلم الى ذلك العلم الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع • وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين ، وكأنمـا أبـراج تلك القلعـة مسـامع الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بـأيدي الأيد ايمان ذوي الايمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر . وفرغ القلب من شغل الشغر ، وسلم هـو وحصـن بـكاس ، الى غرس الدين قليج الساقي عدوه الموت بكاس الباس . وانتقل السلطان يوم السبت الى مخيمه والاقبال جاثم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واسـتطلق منهـا البـررة العانية . وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ماكانت له من المال مستطيعة • ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج حتى خربها عاليها • وعطل حاليها • وانجلى ثاويها • وانتأى جاليها • وبقيت دمنة دائرة • ودمية عائرة . ورسما عافيا • ورقما خافيا • وربعا باليا • وصقعا خاليا • وعادت دارا دارسة • مستوحشة بعد أن كانت آنسه • وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية • في أيام الجمع الخمس المتوالية • باء فيها لنصر اهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد واصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر اليد •

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه • وسرنا سار • ودر الظفر لنا دار . وهي احصن القلاع وافرعها • واحسن التلاع وارفعها . واسمق الرواسي واسماها واسنم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق اليها واشرف عليها . ثم استدعي الثقل واستحضر . وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء في الذرى . لاتكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال . مترامية في السماء ارتفاعا ،وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعاء فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها . وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسماها. وتحاجزت عنها الحجارة فلها من اجارتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة قلائعها . ولاطلعت الى التلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فـكأن الصـخور سـلم نحـورها . فإن سورتها تتكسر دون الوصول الى سـورها . ولما رأى السـلطان انه لاوصول الى نيقها بـالمنجنيق . وان الاشـتغال بـه يطيل زمـان التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك الحف . وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثـلاثاء . فقسـم الناس ثـلاثة اقسام على السواء . وجعـل الذوبـة الاولى لعمـاد الدين صـاحب سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد الحلاحل (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح وعفاة الصفاح . وذفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقـدام . وشـفاة الاوام بعلة الانتقام من الاقوام . واسـاة ذوي الاسـاءة بـاحسان الحسام . وكساة عرى العراء أردية القتام . ورقاة اراقـم الهـاذم وسقاة حـوايم الصـوارم . والمزاق في حـومة الردى رداء المآذق . والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبـار . ولاسـع بحمـة الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولابس لبـاس البـاس كالاسـد الباسر باسل . ومعتقد الدين الرديني معتقل . ومعتـد على العـدو بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتـاز ، ومجتنب لحب المذون لرهون نفائس النفوس محتاز . فـانقضوا على الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هـده . والصـدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقي . والمصـاعب تلقـى . والمضايق تولج . والبوائق تحرج . والاكام تفرع والرجـام تقـرع ، والصخور ترديد . والجـلاميد تميد . ومـازالت هـذه الذوبـة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وتـرد وترد . وتصد وتصد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجـم . وتصـدع وتصدع . وتحمل وترجع . وتذكو وتنطفيء . وتبدو وتختفـي حتـى كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبـت . لولا انهـا لغبت ، وسمت . لولا انها سئمت ، وألفيت هـذه الذوبـة خـاصة ، لاهـل الحصن حاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا التناوب الاستبدال . ولما ظهـرت في الذوبـة النبـوة ، وكاد جـوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية . والعزمه الناوية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف الى الجبل بالجبال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاوعال . وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على تلك الهواجل . وترقوا في ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مشاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها، ودخلوا في مخارجها ، وصارت الجروخ تجوزهم . والجروح لاتحوزهم . والسهام تعبرهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن أقبل أغبطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظة . ومن تقاعس احفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا . فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء . وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة . وقلعت الطلعه . وافتضت العذره . واقتضيت النصره . وأعان القدر فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لايهلكوا . فلما سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا للضراعة التياعهم والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص . عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة . وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا النفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان السلطان امنهم وحظرهم . وبقـي اولئك الافـراد بهـم متفـردين . ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار مابالقلعة ومن فيها لهم كسـبا وسبيا . ومارأوا لحق مـن شـاركهم في السـعي رعيا . وحـرموا ماارتفقوا به وحرموا الرفقـاء . وحـازوا دون الغـانمين النهـب والاسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقـة ظمـئة . ولما تسنى ذلك الفتح وتهنا .وتسهل ذلك الصعب وتهيأ . عاد السـلطان الى خيامه . وعاذت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبهـا حتى أظهروها وأحضروها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن عليها بالاعتاق من الارقاق . وحل عنها وعن زوجهـا قيد الوثـاق . وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهـم في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلهم بعد البتات . وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقـد تجـوعوا . وحـظرهم وقـد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهـم وقد استميحوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد مـاهتكوا . وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا . وجبـرهم ونعشـهم وقـد انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها . فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضـمر بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمهـا والفـرج في كربهـا .

وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان بهذا الحصـن على عز الدين بـن المقـدم . الكريم المكرم والمقـدام المقدم . والعظيم المعظم . والماجد الممجد . ابراهيم بن محمـد . فإن

هذه القلعة لثغر افامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهـي لهـا في السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هـذه البشرى وسـارت ودرت هـذه النعمـى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبـت ان هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيز بفتـح حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثـوابها . وتفتحـت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سـفرت بـه عرائس الايام في حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في انوار محاسنها . وهـذا الحصن لايمكن وصف ما هو عليه من الحصـانه . وكأن حجـره في حجر حضن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصـون ، وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مـرتج لم يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر بـه مخـرجا . حتى أتت ايامنا ، ودنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا . ووصل الينا ما هو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخـرنا . وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسـقينا بمـاء الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفـارس الهـدى الزاكية . وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العـدو البـاكية . وهـذه الحصون التي فتحناها . والمعاقل التي اسـتبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا في فتح احـدها . لتعـذر ولو أنجـدت عسـاكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفـر ، وان حصن بزريه لم يكن عليه قتال . ولا للوهم فيه مجـال . ولا منصـب عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسـالك طـريق . وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟ فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سـلاحه ، وتوقل الرجال في ذروته توقل النجوم في الافـلاك . ولنصر الله اهـل التوحيد على اهل الاشراك.وفتحناه بالسيف عنوة . ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضـحوه . فـانا لما تـوكلنا على الله في منازلتـه . واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العـزائم والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القلل . وسعوا الى الاجل. في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (ومـا امـرنا الا واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في الاعتصام رجاء . وقد نقصـنا اطـرافها . واسـتبحنا اكنافهـا . وشفهنا نطافها . وعضدنا مـن رؤوس اهلهـا بحـدود الصـوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس . وقـد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورجحت اعماله . وحل اقباله واقبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد الجسارة . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح والمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجددنا بتأييد الله في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش الداوية بل عزيمتهم . وطالما أطال في التعدى أيديهم وعرانينهم . وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون . وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا على المذون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد وجب. ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم مددات مراميها ومرامها . وراميناهم بها ليلا ونهارا وارسلنا اليهم امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكدنا لا نذر في ارضها التي هي في السماء من الكافرين ديارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى . واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى . واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من السور الخارج . وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج . فطلبوا على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم من وديعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة واصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

-٥٩٥٣-

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس وقد ضايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس . وهي قلعة من انطاكية قريبة . وانها في الشدائد لدعائها مجيبة . ورأيناها راسخة على رأس راس . شامخة على عاص عاس . ارضها في السماء . وجوازها على الجوزاء . متوغلة في الشعاب ، متوقلة على الهضاب . منسحبة في السحاب . مضببة بالضباب ، مربة على الرباب . متعلقة بالنيرين . متسلقة الى الفرقدين . محلقة الى النسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مطلع فيها لطامع ، ولا مطمح للامح . ولا ملمح لطامح . وهي الداوية وجار ضباعها . وغاب سباعها ودار دوائرها . وغار مغاورها . وغيل غوائلها ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رئبالها ، ومذب ذئابها ، ومدب ذبابها . وكوارة زنابيرها . ومغارة خنازيرها . ومرقب صقورها . ومرقد اسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها . فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسنتنا في ظلماء نقع خيلنا مشعلات السرج . وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمع غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظر يقظته وارقد عينها ، فأقام على سبيل اليزك . ودخل في حفظ جانبها في الدرك . وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا . ويسومها من الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمريه بالاذعان على خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته . ومازالت الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه . والصخور فيه تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه . وألجأ جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخرج مقدم الداوية يستأذن في الحضور . ويسأل الأمن من المحذور والحل من

المحظور . ويقـول انمـا قنينا بغـراس بغـراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصـن البنى . والمعـاقل لايحميهـا الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصـن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السـلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربسـاك بـالامس . وسـلمها الداوية طـائعين فعجبنا مـن انقياد اولئك الشـمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليهـا مـن طلوع الشـمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وأذن المتطاول فيهـا مـن تـطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شـعبان . وسر النصر فيه شـار وبـان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفـاز . ومـاكان في الامراء الا كابر مـن لا يدعي سـواه الاعواز فـالزمه بهمـا ليعتني بحفظهما ، وحضه مـن عصـمتهما على حـظهما ، فتسـلمهما بذخائرهما . واطلع من النفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل سـاكنوها لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تسـاوى اثنى عشرة دينارا . والقـوم قـد شارفوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقـدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان مـن منبـع هـذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هـذه الغلة الى انطـاكية وبـاعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . واذهـب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي مـن حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظـن مـا كان بعـد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفـر مـن فتـوحها بـالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنهـا كانت مـريضة على شـفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائمها وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على مافي يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصادها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة . وأبدى السآمة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها . وقتلنا نحلها . واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى : (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوف رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا ، وللاوامر منفذا . وعلى المقاصد مستحوذا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جـزيل مذسكب الجود ، وذلك سوى ماغنموه مـن كسـب وكسـبوه مـن غنم ، واستطاقوه من رسم واستجزاوه من قسم ، وملكوه مـن رق سبي . وادركوه من حق سعي . وأجـدوه مـن غرض . وأدوه مـن مفترض . وأحيوه من حسـنة النصر ، وأمـاتوه مـن سـيئة الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجـح . وسـار السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتـاح الى العبور على أرتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتـاح ، ووصـل الى حلب وحلب احتفالها بـوصوله حـافل ، والملك بهـا للاهتـزاز بقدومه في ملابس البهاء رافل ، ودخلناها وقد خـرج كل مـن بهـا التلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المتـرقي ، وشـاهدنا مـن النظارة عيونا للمحـاسن ناظـرة ، ووجـوها ناضرة ، وقلوبـا حاضرة ، وألسـنا شـاكرة ، وأيديا في بسـطها الى الله للابتهـال بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء اساكنيها سـكون الدهماء ، وأقام بقلعتها أياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقـام ، واتسـقت الأمور بـأوامره على النظـام . ولم يرحـل الا وقـد خص عوامنا وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل مذقبـه ، وأعان بكل موهبة ، فما رآه والده مذ حل بحلب الا في أجمـل حلية وأكمـل حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجـد لعينه ولذفسـه قـرة وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طـرقنا المتصـلة بدليلي الشكر والثناء ، وتنكبنا طـريق المعـرة ، بسـلوك طـريق المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السـلطان بـزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي . ابـي زكريا المغـربي . وهـو مقيم في مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السـلطان على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسـخ واهتـدى بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حمـاة . وبتنا بهـا ليلة واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جـاحدة ، فـان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بـن ايوب ، قـد كشـف عنهـا

بايالته الكروب ، وملك القبول مـن أهلهـا والقلوب ، وأعاد لهـا بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبتـه ظـلا مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر مع المعاقل المرعية المرضية ، وهي ذات تـل متبـطح ، غير متـرفع ولامتسفح ، فلما تولاها تقي الدين قـطع مـن التـل مـاكان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيدا عاطيا ، وعمق خندقها في الصـخر وحصنها على الدهـر . وبنى فيهـا الدور المرخمـة ، والأروقـة المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصـينة ، فـاضلة في الشـام كل مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرتـه ورفعنا ، والنادي قـد جمعنا ، والشـادي قـد اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فمـا انفصـلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضـل سـني . وعدل احيي . ورسم نائل السـماح واجـري ، وزند سـائل بـالنجاح أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات الحصص ، وأصـبحنا على الرحيل ، ووصـلنا العنق بـالذميل (٢٨) ، وعبرنا مغذين على حمص وزدنا في الوصول الى دمشـق على طريق بعلبك الحرص ، وجـئناها قبـل شـهر رمضـان بأيام ، وركنا الى ماأنسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلالنا اهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما لبث السلطان ولامـكث ، ولانقض عهـد عزمـه على الغـزاة ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقـد بقيت صـفد وكوكب وأخـواتها ، وبـطول مضـايقتها فنيت أقواتها ، وقواتها ، فنتهز فـرصة فتحهـا التـي لايؤمـن فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شـهر رمضـان . وحـد عزمـه رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجـوه الأيام لأياديه البيض بيض ، ولسان الدهـر في ذكر سـيره وتسـيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفـر بجناح رجـائه ورواج مناجحـه مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدي بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي داؤه معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنيت ازوادهم ونفدت موادهم ، ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وابدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسالات تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يليذون والعادل يتشدد ، حتى دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت عن السلطان في بعض البشائر ، ماالهي بحلاوته عن أرى (٢٩) الشائر ، وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا ان لانستريح ، ولانثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح ، فقلنا نفتنم هذه الشتوة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماح الأصحاب ، وخرج منه الفرنج ودخله الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراكا اشراكه منه على طرق

- ٥٩٥٩ -

الاجتياز ، فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العـــام ، واضـــطر الكفـــر في اســـلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقـد كان هـذا الحصن ذنب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتسـم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فـالحمد لله على ماقدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحــه ، وادراك الســعي فيه ونـجحه

وقطعنا مخـــاضة الأحـــزان خـــائضين في بحـــار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشـدودة اسبابها ، في اطلاب ابـطال اذا أوعاهـا الفجـر لم يســعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط مـن عجـاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصـبر قـــد نفـــد . والنصر قـــد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العـادل وظـاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشـد بـالرأي والحـزم مـاالزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمـة على التصـميم ونخـاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة السـلعة، وجثـت المجـانيق لاجتثـاثها وحدثتها بألسنة أحداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وســمت الى هضاب تلك الأبراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجـارة ، ولم نعطهامن العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بهـا الحصـن الراسي رأسا ، ولاالحجـــارة مســـت منه ركنا ولاالذقـــوب بـــاشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والذقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثـامن شوال ، ونوعنا في افتتـاحها الاحتيال ، حتـى اذن الله في الفتـح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام ولبى ، وعلموا ان صفد ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالأساد ، ونزلوا من سماء العز الى ارض الهوان ، فأذعنوا للضراعة وتضرعوا بالأذعان ، وأخرجوا اسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب الأمان ، وصارت صفد المسلمين صدفا ، وكانت بالمشركين هدفا ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر ردءا ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا ادام تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)(مريم ٨٩-٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدع،ومرفقا للشر قطع.وناظرا للعدو غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويدا للباطل شلت ، وقد امتدت ، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج ان صفد لنا صفت • وانها على الفتح الذي يشفي اشفت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح الدين عن قصدها لايتنكب . وقد أقوت من القوة . وهي تهي ان لم نعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها • وقل ظهورها لظهور اقلالها • وهذا أوان انجائها وانجادها . وهي مشرفة على العدم فدبروا في انجادها . فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة في العواقب . وعصمة من الذوائب • فقال مقدم الاسبتار هي كوكبنا المتلالي • ومذكبنا العالي . ومعقلنا المحكم • ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمذبع المنيع . والمحل المحلى • والمعلم المعلى • وهي قفل من البـلاء على البلاد . وموئل من الخطوب الشداد • ولعلها تثبـت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا • فما تبـطىء جداتنا . وما تخطي نجداتنا • واجمعوا على تسيير مائتي رجل من النخب • المعدين لدفاع الذوب . مـن كل جـرخي نخـي • وكمـي أكمي • وجهم جهنمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلي . وكلب كلب . وذئب سغب • وعاسـل معـاسر . وبـاسل بـاسر • ومغوار مغو . ومتلوم متلو • وذمر متذمر . ونمر متنمـر . وسـبع ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من شـياطين يجذون الجذون . ويمذون المذون . ويشـيذون الشـؤون . ويهدون الهدون . ويحزون الحزون • ويفـوتون الفتـون . ويظنون بالله الظنون . وقالوا لهم: كيف تمضـون وطـريق السـلامة مخيف وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقـالوا نحن نسـيير ونصـيير في ضـمائر الكهـوف اسرارا . وعلى اجياد الاطواد أزرارا . وفي اوكار المغارات اطيارا . وفي اعماق السيول اكدارا . وعلى ظهور الريود اوزارا . نسري ليلا ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلج من الوتر . والنهج وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر .. ومـن رام النفيس الخـطير رمـى نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثـم عزمـوا على ما زعموا . وعملوا بمـا عنه عمـوا . وخـطروا الى الخـطر . وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا في الاكم . وتوغلوا في الاجم . وتبـطنوا في الاودية . وتمـكنوا في الاقنية . واحتـرسوا بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السـكون . وكادوا يصلون الى الموضع . ويحصلون على الطمـع . ويدركون الطـلاب . ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحـه . ويأسـون بعـد اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده وقيده . واتى به الى صاحبه صارم الدين قـايماز واسـتغرب مـن الافرنجي هناك الجواز ، فأخبره بـالحال . وان بـالوادي مـكمن الرجال . فركب اليهـم في اصـحابه . والتقـطهم مـن سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشـقياء . وانتشر الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجح راج . ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحـن على صفد الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله مـن الانصار . حتى وصل صـاحب قـايماز بـالاسارى مقـرنين في الاصفاد . مقوبين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد اشفيا على التبار . فان السلطان مـا كان يبقـي على احـد مـن الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان المنية . فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالا عند دخولهما . وامام مثولهما . ما نظن اننا بعد ما شـاهدناك يلحقنا سـو . فعـرفت ان بقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما . فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان تلك الكلمـة حـركت منه الكرم . وحقنت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفـر من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير ° وفتـح الله علينا صـفد ثامن شوال . فشكرناه على ان مدد النصر متوال . وسلمت القلعـة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجـئنا الى كوكب . ووجـدناها في مناط الكوكب . كأنهـا وكر العنقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بهـا ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحمتها بحميتهما وابـت النزول على امنيتنا ولو بنزل منيهـا . واختـارت العـطب على العــطاء . وامترت خاف الخلف والشقاق للشقاء . وابت غير الابـاء . وبصرت بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمـل الاصر . وتـرامت على التعامي بالمصائب . وتعامت عن المرامي الصوائب . وقـالوا لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الأبد من العـار . ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فنتجلد للاصطبار ° ونتشدد للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا . احد نزال وفوقوا الجـروخ

المصمية . وصوبوا الصخور المربية ورفعـوا المنجنيقـات المزجية . وتواترت زيارات الزيارات الموتره . وتناوبـت ذوائب الزنبـوركات المطيرة . واجترأوا على الاجتراح وجرى سيل الجـراح • ودمنا في الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرئه الرجال . والتجريد القتـال . وايتار الحنايا . وايثـار المنايا • والرمـي في المنجنيق . والجمـع والتفريق . والرقـع والتخـريق . والنقـب والتعليق . والحفـر والتعميق . والحصر والتضـييق . والهـدم والرد والردم . والصـد والصدم . وكان الوقت صعبا . والغيث سكبا . وتكاثرت السـيول . وتكاثفت الوحول . ودامت الديم لدمـوعها مـريقة . وبقيت الخيم في الطين غريقة فلا لمركب مبرك ولا مـربط • ولا اسـالك مسـلك ولا مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تقلع الاوتـاد وتـوتد الاقـدام . ووهـــي الاطناب ووقـــوع الخيام وكأن الخيم مناخـــل الانداء•

وعدمت الانوار لوجود الانواء • وفقد ماء الشرب مع سيل الماء • والروايا ما نهضت . ولا نزعت ولا غـمضت • والرواحـل في الطين باركه . والحياة فاركة . والعلف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل مستبينة • وقد كشر البرد بالبرد عن اسـنان عضـاضة بـالذرد . والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . والمثـق (٣٠) ثقـل • والقلق عقل . وما ثم الامانيط بالطين • وصعب علينا بصعوبة هذا الامر أمرا ولدك الشياطين • فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان . لتقريب وجوه الامـكان • وبني له مـــن الحجـــارة مـــاصار له كالسـتارة • فحضرت بين يديه والسـهام تعبـرنا ولا تـــذعرنا . والستائر تسترنا عنهم وعليهم تـظهرنا والنقـاب قـد قلع وعلق • والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجـد الجـد . ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فحفت الثقل بنقل النقـل . وطاب المقام بالغور • وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين وتحللت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما الحصن . وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهـن . حتـى علق بعض جـدرانه . وطرق الهدم الى بنيانه . فتسلمه بامانه . واذهب سكون سـكانه . فاخرجهم راغمين . واحرجهم غارمين . وتركوا الحصن بـكل مـا فيه . واصبحوا بعـد مقـاتلته العفـو والمعـــافاة معتفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقــدة . ورجعــت الليالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جمــاعة فلم يقبلوها . وخلوها وابوا أن يلوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فدوليها قايماز النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهــامها لاهية • وانتقــل السلطان الى المخيم بــالفضاء . وحمــد الله على قضــاء التــوفيق وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفــاضل على عزم مصر بعــد مــا استكمل لنا مقامه بصدق الكلمة وجد اعتزامه الفتح والنصر، ثم تحول السلطان الى ارض بيسان • وأزال البــؤس • وزاد الاحســان • واقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهــر . واظهــر مــن الفضل ما لم يكن مستورا، وأعطى الأمــراء والاجناد في إنفصــالهم دستورا . وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضــح الحجة لائح البهجة . وأوجها الى القــدس في طــريق الغــور وزارا البركة • وتبركا بالزور • ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبــرة • وعيد بهــا يوم الاحد الاضحى • وأضحى بعد ما ضــحى ، وقــد اصــحب مــراده وأصحى.وسار يوم الاثنين إلى عسقلان النظــر في مهــامها ونظــم أسباب أحكامها • وتدبير أحوالها . وترتيب رجالها • وأقام أياما يوضح الجدد،ويصلح ما فسد ويذشد من الذفع مافقد • ويخمد مــن الشر ماوقد • فاذا وجد شــعثا لمه . وان الفــى ذشرا ضــمه . وان صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حققه . وان عثر على بــاطل عفــى اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وآثره.ثم ودعه اخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في مورده ومصدره • فما عبر ببلد الا قوى عدده • وكثر عدده وواصــل بالرجال مدده • وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبني الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصــة الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشــفاء واهــدى عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قويم . وهو يبوب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها . ويعدل جوانح امورها . ويذلل جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهي • ويسري ماهوى ، ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ماانتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور . وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لآثار الدولة في ايثار العدل تاليا . ثم خرج السلطان وسار على طبرية • ودخل دمشق مستهل صفر . وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر • وعز من آمن وذل من كفر • وحزب الهدى قد انس وذفر الضلال قد ذفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • واحلى احلام الحلماء • وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • واسدى المعروف واعدى الملهوف • واذكر المناهي ، ونهى عن المذكر، وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر . واولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر ، وايامه مسفرة ولياليه مقمرة. ومغارس اياديه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاديه في ديار الشدائد مقفرة • والملك بزهوه زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيقة • وللدولة حق مدال وحقيقة وللجاه وافي جده وللجود وفي عهده وللسماح سماء تهمع.وللمراد مراد يمرع وللوجود بالبشر بهجة ، وللالسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة وللحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع الندى • ومشرق نور الايمان • ومشرع فيض الاحسان • ومرجع المرجين • ومفزع الملتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ، ومخفض جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجر نيول المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن التنزيل . وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة . ومرام الرأفة . ومحمل الامانة . ومحل الديانة . ومطاف الطائفين . ومعرف الواقفين . وموقف العارفين. وقبلة المقبلين . وموئل المؤملين . وكعبة القاصدين . ومثابة الوافدين. ومعفر وجوه العظماء . ومكفر ذنوب الكرماء . ومعصب السيادة القرشية . ومنصب الوراثة النبوية والسدة الشريفة الناصرية . ودار السلام . وقبة الاسلام . فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول . وسر سره . وأبر بره . وصدر بذشر الانشراح صدره . وقدر على الاتسام بالتسامي قدره . واحتفل بأسباب التلقي ةالحتف باثواب الترقي . وسأل عن الرسول المندوب . للسؤل المخطوب . فقيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه . وصل بالضياء والسكينة . والاحوال الحالية المزينة . وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديده • فعين لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف

اراءه السديدة • فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان وا ولاده • وكان يوم مشهودا حضره أعيان البلد ماثل العسكر وا شهاده • وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة • ثم جلس له في يوم سعد صباحه . وبدت في جبهة الدهر البهيم غرره وا وضاحه . وملأت طرفي الزمان والمكان افراحه • وجاء على وفق الآمال اقتراحه . وختم باليمن والاقبال رواحه . وورد بكل ماابهج الاولياء • وأزعج الاعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه • وثنى عطف تباهيه وهزه . ورسا له طودا بالوقار في ايراد الرسالة . وجلالة في مهب المهابة انوار الجلالة . وتلفظ له بالتفضل . وتطوق منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده • الى ولده عدة الدين ابي نصر محمد من بعده • واخذ بذلك العهد على من حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ماأولاهم الله به من النعمة . وا ستظهر بما خص به من هذه المرتبة • وامر بذكر ا سمه ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشوكة . والشكة.وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر . ولم يبق من الامراء والاماثل والافاضل إلا من حضر • واحضر معه الدنانير ونثر • وتولى ذلك الملك الافضل فاظهر ابهة ملكه وبهاء فضله . وحصل الاسلام من ري رأيه على نهله وعله . وندب للرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القاسم بن يحيى . ليذشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيي . وسيرت معه الهدايا . والتحف والطرف السنايا . وأسارى الفرنج الفوارس . وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليب والصليب • والملبوس والطيب • واضفيت على رسول الامام ملابس الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضيآن لاضاءة مطالع الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . وا عتزت الاطراف • وابتسمت ثغور الثغور لسدادها . وانتظمت امور الجمهور لسدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخزي الحاسد الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاذ . حتى وصل الى بغداذ • فتلقي الرسول بالسول • وقوبل بالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيأة يوم قراعها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعها . وقد نكست بنودها واتعست انوفها . وهيئت على هيأة فتوحنا حتوفها . ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها • ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها . والفى الوزير ابن حديدة قد عزل . وأقام في بيته واعتزل . وتصدر في الدست للنيابة . وسماع الخطاب والاجابة . من له المجد الاثير: الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء . وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها . وأولى صوبها ووالي صوابها . وسياتي في موضعه ذكر ما انهت اليه الحال . وجرى به القال . وكيف شغلت العوائق وعاقت الاشغال .

فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال . وأداه من فرض الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام به أمر الدين والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من حبائها • وعقد خنصر النصر لعزائمه على ماا عتقده من ولائها . وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها • ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين • وأبرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق المراضي الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده • وافتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وأنهى الى نهـاية النهـى • وأطـاع ماأطاق فيما أمر الله به ونهى • وماوضع الكتاب من يده حتى رفـع بالدعاء يده . وسأل الله لمولانا وسـيدنا أمير المؤمنين وافـد النصر ومدده • وان يعضده بولده ولي عهده المطـاع بـأمر الله عدة الدنيا والدين • ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البـركات . وآضـت الحسنات . وأضاءت الكرامات • وراضت جماح الاماني المبـرات المبرات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المرديات . وعمت الميامـن . وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر والبواطن . وضمت بسـكون الدهماء اهلها المعاهد والمواطـن . وصـدحت المنابـر . وصــدقت المفاخر . وصدعت الأوامر . وصدفت الفواقر . وصدمت قلوب أهــل النفاق من بواعث الرعب والبـواعث البـوادر . ونقشـت صـفحات الدرهم والدينار .ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات الانواء والانوار • وعرشت اسرة المبار والمسار . ورفعـت رغبـات الابـرار • وسـمعت دعوات الاسـحار . ونزل النصر . وفضـــل العصر • ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر • واصحب الدهر • وسحت سماء السماح . وصـح ارواء الارواح . وتضــوع نشر الانشراح • وتوضح صباح الصلاح . وطـال جناح النجـاح . وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامـر . وحسـن الذكر . وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشـام . وتبلجت ايا من الايام . وتروجت امـاني الانام . وأرجـت أرجـاء الرجال • وثبتت باسناء الأسناد رواية أمالي ري الامـال . وقـرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع • واقرت الألسن والتهجت بـالحمد الجامع . وقرت الأنفس وانتهجت بوسعها سنن العـز الواسـع • ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشـارع في نفـع الأوام (٣١) ونقع الانام مناب المنابـع • وأرخـت السـير وسـيرت التواريخ • وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمهـا وتضـخيمها التضميخ . واشرق المغـرب مـن بشر البشرى . وانارت مصر مـن حسن هذه الحسنى . وبسـمت بسـمة الشرف منابـر الأقـاصي والأداني . موافقة لمنبـر المسـجد الأقصى . وتـطرزت الفتـوحات الفاضل عصرها • الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب . وعاد الزمان الى اعتداله . وعاذ العدل بزمانه . وتاب الدهر من عدوانه . وآب إلى احسانه . ورجع الدين إلى سناء سلطانه . وفجع الكفر بعبدة صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . واستخلص من الشرك بلدانه بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف فيوضه . وعتب العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحث الحب على اقامة سنن الجهاد وفروضه . فقد درت افاويق الآفاق . وذرت أشعة الاشراق . وافترت نضرة الحدائق لنظرة الاحداق . وراقت أوراق الألوية كالتواء الأوراق . وأزهرت البيض والسمر كازهار الرياض . وأنف غرار الجفون في الاغماد من الاغماض . وتيقظت الاقدار للاقدار على ايقاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطاول . وتنزل البركات في انتجاع المراق من تجيع المارقين لا تزال نص النصر على النصل المسلول . وقد آن ان ترعى الحشاشات منهم على رعي الحشيش . ويطير الى اوكار المقل طير السهم المريش . وترتع ثعالب العوامل في عشب الكلى . ويطن ذباب المناصل في اوح الطلى . وترن رقاق المرهفات في الرقاب رنين الخطب على الأعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد . وتحمل اشجار القنا بثمر الهمام . ويجيش الفضاء المعشب بزهر الجيش اللهام . ويقطف ورد الموت الأحمر . من ورق الحديد الاخضر . ويوقف حد الهندي الأبيض على قصر بني الأصفر . ويجري في ورد الوريد جداول البواتر . وترمي من الحصون العاديات الى حصون العدا جنادل الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر ضدوا من الضوامر . وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان الجو بالفتخ الكواسر . ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك الماذي . وتعلق في ملتقى التقي الفات السمهري . بلامات السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي مع الفرنج من معاقل المعاقل . ويغرق بحر المجر الجرار ما تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق بـه مـن المدن المنيعـة الا صـور وطربلس . ومعالم الكفر بهما في هذه الســنة المحسـنة بعـون الله تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء منبوذة . وعند الاتجـاه اليهـا مأخوذة . على أنها بوقم قومها عام أول موقونة . وحدود العـزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحونة . فـانها قـد نقصـت مـن اطرافها . ودخل عليها من اكنافهـا . وجـدعت بفتـح حصـونها عرانينها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيهـا عرينها . فهي نهـزه لمفتـرض . وطعمـة لمقتنص . وسـلعة لمسترخص . وبلغة لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخـل البـلاد . ويستأنف بجهـده الجهـاد . ويسـتقبل الربيع بـربيع الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر مـن سـماء الرحمـة لأوقـات النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان ينجـد جند ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امله في تـطهير الأرض من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فـالجحافل حافلة . واسراب الكفر بين يديها جـافلة . ومعـاطف الاسـلام في لباس البـاس رافله . ونصرة الله بـانجاز عدائه في قمـع عداتـه كافله . والحمد لله الذي وفق عبـد مـولانا أمير المؤمنين في طـاعته لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهـره . واقتناء كل منقبـة حقق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجح مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف ارذون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اطاب لمناشق الآمال من نشره النشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الاول يوم الجمعة . بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعه . متوجها الى شقيف ارذون . ليقر بفتحه العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . وأقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتي مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في أواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرج الوسيع . والروض الوشيع . وأسمنا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط .وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولاجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من اهله ، وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل دينه يسليه . فأكرمه وقربه . وقضى اربه .وأجابه الى ما سأله . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهى (٣٥) غرب رغبه وأمهله . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في ناديه بنداه وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وترميم مستهدمه . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدبير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة . ويكثر فيه الذخيرة . وقد صدقنا كذبه . وحققنا اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشتغل به من عمارة يجدها . وذخيرة يعدها . وثلمة يسدها . وقوة يشدها . وميرة يستمدها . وكان بالمذكور سديد الظن . شديد الضن . لا يقبل ما فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصدىء بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل . وتحويل الخيم اليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر فيه بالصحة عقيم . وكان المقصود ان الشقيف من عيانه يقرب . واخباره عنه لا تعزب . فلما علم صاحب الشقيف بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واستمسك بالعصمه . وذكر انه متعزز ببذل الطاعة . وببذل الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخاف له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وانه يترقب وصولهم . ويأمل عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده الذكير الذكيث . واقام يوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السلطان دلائل امنه . وكانت المدة قد دنا انتهاؤها . وقرب انقضاؤها . فانها الى آخر هذا الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب واغتمام . وحضر عند السلطان فقال ما اظهر به الابتهال . واستزاد الامهال . وذكر انه رقيق الامتنان . وعتيق الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهن وانه يبقي أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن انشأ غرسا سقاه فأبقاه . وأشكاه فأزكاه . وأسماه فانماه وقد اصطنعتني ورفعتني فلا تضع الرفيع . ولا تضع الصنيع . وسأل ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنة في حقه حسنه . وان يرخي بطوله طوله . وان يشفي بشفاء ألمه أمله . فراقه قوله . فرق له طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فكره . فغادر على عزيمة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما حاوله . وأقام اياما يردده . ويخصه من الكرامة بما يجدده . ثم كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجحد ما عنه رقي . وانه كيف يلاقي بالكفران ما من الانعام لقي . وأنه لم يسعد بامهاله في الشقيف شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى وثاقته . ليدخل الموضع ويلمحه . ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن قد غيروه . وانه قد استجد في سوره باب . واستمدت له من احكام احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياب . وعرف ان السرح قد حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن فلا يحوج الى عقابحته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة المضروبة . والمهلة الموهوبه . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة وتنقضي . وتسلم الحصن وتسلم وتمضي . فأبدى ضرورة وضراعه . وقال سمعا وطاعه . وكان له ملقى وملق . وفي لسانه زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى ذوابي في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا عصيانه . وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه الى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول . والصعود والنزول . ويضايق غريمه المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكاك رهنه . فخرج اليه قس قاس . باسر عن باس . فحادثه في حادثه بلغته . ونافثه في كارثه بغلته . وتحاوروا في السر . وتشاوروا في الشر . وكأنما امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلما لم يفد خطابه . ولم يجد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاه وشجنه . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب لمحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهم بملازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحكم السلم . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الاحوال وماكان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تواصلت الينا امداد البحر . فثربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور . وفارقوا بالاستطالة القصور . وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمكنه من دخول البلد . ولج معه في اللدد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الامر . ويصله من الأمر . ثم اتفقوا على ان يقيم بصور المركيس . ويدوم منه لملكهم التأسيس ولملكهم التأنيس . وانهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم . يتساعدون علي رم ما تشعث من احوالهم . ويتعاقدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختلالهم . ويقصدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالنوازل اقامة المنازل . والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع ما يحتاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الغى الي هذه الغاي . وشرعوا فيما شرعوه . وفرعوا ذروة الأصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى

الاولى من اليزك . ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعترك . وانهم على قصد صيدا الحصر . وقد جسروا على عبور الجسر . فركب السلطان في الحال فيمن خف من ثقال الرجال واقتال القتال . وأطلاب الابطال . وانجاد الاجناد . واجلاد الجلاد . والباذلين المهج للجهد في الجهاد . ووصل الى الملتقى والشغل قد فرغ . والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت . والوقعة قد صدمت . والثورة قد ثارة . والسورة قد اسأرت . فان اليزكية لما شاهدت جاهدت . وتعاقدت علي اقانهم وتعاضدت . وخالطتهم . وباسطتهم . وواقحتهم وواقعتهم وجالدتهم وجاولتهم وحاردتهم وحاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين . وصدتهم منهزمين مثلومين . وقسرتهم وكسرتهم واسرت سرائهم . وبزت بزاتهم . وقنصت عقبانهم . وقصمت شجعانهم . وصادت صيدهم وفرست فرسانهم . ووقع في الاسر من سباعهم سبعة . وغودرت للنسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعة . واستشهد من المماليك الخواص ايبك الأخرش . وقد كان شهما بالوقائع يتحرش . وثبتا بالروائع لا يتشوش وانيسا بالحوادث لا يتوحش . وكميا كميشا بالكوارث لا يكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان . وكانت الدائرة على اهل الشرك والطغيان . وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك . وقال لعلهم يعودون الي ذلك المعترك . فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم . وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم . واقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر . والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوي الظهر . وركب في ذلك اليوم . ليطلع من الجبل على القوم . ولم يكن له نية القتال . فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه . وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه . وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه . ثم ظنوا ان وراءه عسكرا في الكمين يحميه . ونفذ السلطان بعض الأمراء الى الغزاة الرجالة ليعودا فما قبلوا . وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وختمت بشهادة اولئك السعداء تلك العشية . ونفذت من الله في استشهادهم

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجرأة وصدتهم . وتـزاحموا على الجسر . ففرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجال . والحرب سجال . ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على العدو له قربه . فخاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعاده . الامير غازي ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب شابا . ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الغزاة . انقض في اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه موارده . وأوجد جمعنا الأسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر مساعي ذلك المساعد . وضاقت القلوب . وفاضت الكروب . وألم البوس . وألمت النفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت . ونذير حدث وحادثة انذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ اصيبوا غير هذه الكرة . واذاقونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات مرارة هذه المرة . فايقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١) وعباده هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبور الجسر اليهم . والاحداق بهم من حواليهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل البلاد . بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا . وتسابقوا وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق وحوران . يجرون الى مر الموت . ويجرون المران . وتوافدن من بالمرج والغوطة . على الحالة المغبوطة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت الفرنج من هذا الجمع . وانافت على القمع . وتعكست الى سور

صور . وعاين اولئك البور البذور . وتحرزوا وتحرسوا . وتـوجلوا وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمكن على غرتهم حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى تبنين . صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . لتفقد احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا جريدة . ورتب في عمارتها وولايتها احوالا سديدة . ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقظ . واسرع عودته الى المعسكر . عظيم المفخر كريم المعشر . موفق المورد والمصدر . مقرظ المنظر والمخبر . وأقام الى يوم السبت سادس جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاد عدة من امراء العرب

وانتهى الينا ان الفرنج ينتشرون في الارض . وينبسطون في موضع القبض . ولايتحفظون في الرفع والخفض . ويحتطبون ولايحاطون . ويحتشون ولا يختشون . ويجذون ثمار الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل . وهم في غرة من غاره . وفي جسارهم تعود عليهم بخساره . وفي غفلة تجر عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العذاب ظله . وانهم اذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب . وانتشروا لضم الاعشاب من الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفظهم من متعد . وذفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك الملاعين . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها الكمين . وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . وذفذ الى عسكر عكا ليكمن في موضع عينه . ولا يظهر مكمنه . حتى يكون من وراء القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد . مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت وابرت وابارت . فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها . وعين اليزكية

وأوقظ عينها . ورتب ثمانية اطلاب من الابطال . وكمن بتلك الارجاء كماة الرجال . وانتخب من كل طالب عشرين فارسا اجوادا على الجياد .واجلادا في الجلد على الجلاد . فامرهم بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهم يفرون قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها عليه . ويوا قعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفوا من ان يقال عنهم فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتال واشتد . واحتدم المصال واحتد . وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى . ودارت عثرات الثرى . وانحلت عرى اللمم .وانحطت ذرى القمم . وعدم كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد اعتركت . وان البرك قد ارتبكت وابتركت . فتواصل انجادا للانجاد . وتراسل امدادا بعد الامداد . فلما رأى العدو ان المدد يكثر والعدد يكثف . وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف . صمم العزيمة . على الهزيمة . وعلم ان النجاة عين الغنيمة . فثنى اعطافه . وضم اطرافه . ورد احلافه . وجرت بين الفريقين مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مثقلة وكان قد حمل العرب على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى أسد ذلك العرين . ولم يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبرت من الطوارق بهم عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى منهج ملاذ . ورآهم العدو فعدا وراءهم . وسار بجمعه ازاءهم . فلما انتهوا الى الجبل ادركوا . ولم يقدروا ان يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهم الامير زامل بن تبل بن مرى بن ربيعة امير الذقره . وسري الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة . والامير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرى بن ربيعة وآخر معهم . فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهم في رياض النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا من العز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من المماليك الخواص . من ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضنفري السطوة . فلما حصل في المضيق . وأيس من الطريق . نزل عن فرسه على صخرة بنحوه . ونثل بين يديه كنانته . فارعا لذروه . وقد اوتر قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصاب بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح .وقد نزف دمه ، وترجح على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد ، رمق وبه رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع أعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته ، وأنشأه خلقا جديدا ، وأوجده في أجله مزيدا ، وهو أيبك الساقي زاده . ماجرى اجتراء على الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيعة الا طار اليها ولاأبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد ركب ، وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في رجله ، وسرحت ذئابه ونجت كلابة ، وجاش عرام جيشه العرمرم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من الذواقير ، وأضرم بنار السعير مساعي المساعير ، وهو على قصد عكا يجري الى المدى برأي جمعه المدامير ، وأن ذفرا منهم ذفر ، وسبق الى الذواقير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمون طرف الثغر ، ويضمون نشر الأمر ، ويصممون نحر الكفر ، ويجبون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون الحراسة ، ويطاولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد ماراجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور نفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالدنو ، وللعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في انباء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة.

ووصل اوائلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العنق بالذميل . وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة في الاودية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، آخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الفروبة . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، والفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في ارض صفورية بالانفال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رأيه بذور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكي ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبتوا تعذر حصدهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، واذا خلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطالبهم طلب الغريم ، وماأهون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا أقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، والمقصر عن التطاول فيه عذر ، فنمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب ، ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها الحصر . وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو ، حتى استظهرت بقوتها . وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاوائل الاواخر . كي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته وهيبته ، وانزل العسكر على تعبيته ، ونزل بمرج عكا على تل كيسان في ذوي اختصاصة ، وقد نصب من خيامه عليه اشراك اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب ، فدارت رحى الحرب ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى للأنجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ، ورتبنا بالزيب والذواقير رجالا يصدونهم عن سبلها ، ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ، ونراوحهم ونغاديهم ، ونعاودهم ونباديهم ، ونقدم بعوادينا على عواديهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجدهم البحر ونعدمهم ، ومازالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتطاول ، وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، مترادفون مترافدون ، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البطش . وحملوا على البحر أوزار النجس . وتبالهم وتعسا . فانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهم وبين اليزكية ، كل بكرة الى العشية ، الى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومظفر الدين كوكبوري الأسد الغضنفر ، فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ، ولج اولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ، والاسلام يناديننا باستصراخه ، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، وماسمنا الا من اسرج الجرد وجرد السريجيات ، وعاج بالاعوجيات . واشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال الردينيات ، ورديان العقيليات ، وأزكى المذاكي وقرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سيفه ردع الدم ، وضاف جوده مضيف العدم ، وأقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهلل ، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقت الآراء واجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة ، ومناب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده ، واجماع الالسنة والقلوب في الضراعة الى الله في نصرة المجاهدين من عباده ، وأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفلل مضاء مضاربهم ، وهم في مواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطئهن ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة مااليها مدخل ، وكالسور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشم مافية متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامت الحرب قائمة ، وديمة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما امسوا . وزادوا على ماجرى امس

وأهلوا عنه وأنسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس الظهور ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شديدة ، كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة ، وفرشوهم على تلك التلول ، وردوا مضاربهم من فلهم بادية الفلول ، وانهزم الفرنج الى تل المصلبة نحو القبة ، وثبتوا عند الوثبة ، وأخلوا ذلك الجانب ، وخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت أطماعهم عنها ، وانفتح لنا طريق عكا . ودخلها الرجال .وحملت إليها الغلال ، ونقلت اليها الأحمال ، ودخل العسكر اليها وخرج ، وانشكف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفرنج من سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادي ، وترك الهوادة في قصر القصر ، والهوادي والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ، ولكن اصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت ارادوا كانت منهم عزيمة . ومن العدو هزيمة وتوقفوا على الاتمام ، وتقدموا عن مقام الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هيأتهم وهيبتهم ، لباء الاعداء لنجحنا بخيبتهم ، فان الصدمة الأولى أخافت وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها انافت ، ولكننا تركناهم حتى عادت اليهم الأرماق ، وعاود فرقهم الافراق ، وابصروا مابين ايديهم وما خلفهم . وازالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في مستنقع الموت ارجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمراؤنا هؤلاء قد سهل امرهم ، وخمد جمرهم ، وقد حص رياشهم حصرهم ، وهم في قبضتنا اي وقت اردنا ، ولقصدهم تجردنا ، وقالوا نصبر الى الظهر ونمضي ونسقي الخيل ونعود وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود . فانصرفوا على وعد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلع العدو ريقه ، ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار راجله ، وزم رامحه ونابله ، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروخ وفوقوها ، وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقم ، وفي المجان

علاجم ، وفي النهوض قشاعم ، وفي الضراوة ضراغم ، واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم ، فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ،ونزورهم بالحتف ، ويترجل الامراء فيتبعهم الأصحاب . وتنشب من آسادنا في تلك الخنازير من النشاب الأظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فننسفهم ولو أنهم جبال ، ونطفيء نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال.

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد .فاذا زحفنا اليهم . واوجفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين .ولايبقى للدين بعد درك الثار منهم دين . ومنا من يقول لابل نفرج عنهم .ونبعد منهم .فما دمنا على هذه المضايقة والمصابرة .والمحاققة والمحاصرة .والمكابدة والمكابرة .فانهم يتيقظون وينتبهون .ويتحفظون ولاينهون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املهم . استرسلوا بعدما استبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما مااستقلوا . واطماذوا فطمعوا،واذا ابطأنا تسرعوا واغتروا بانا على غرة فأغاروا .وظهرت لهم اثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا .فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد النمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقمهم الا العدد الكثير . ولايقمعهم الا الجمع الجم الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابادتهم البادي والحاضر . ونستجيش الجحافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم • وازوادهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تنقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولمراكبهم في الشتاء شتات . ولحبائلهم وحبالهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤذن فناء ارزاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في تلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال).(الاحـزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خـطر . وفي المباشرة بحربه غرر . والمصـلحة العـامة تلحـظ . ورأس المال يحفظ ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها الاباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونسـتعدي على هـذه الافـاعي بعقاربها . ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها. ونعـدو على عوادي الاعادي بعواديها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحـر . وصلت لنا اسباب النصر. وحينئذ نقاتلهم برا وبحـرا . ونوسـعهم بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . ومازالت هذه الاراء بيننا متـداوله . وخواطرنا في تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفـرنج جـاريه وزناد الهيجـاء لاشـعال نارهـا واريه . وفي كل يوم نتصـافح بالصفاح . ونتكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بـكلام الكلوم . ونلحـق منهم الموجود بالمعدوم. وللطلائع وقائع . وللسهام افـواق فـائقة . وللحمام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتـأسر . وتبري وتأبر . وتكبس وتكسب . وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه .وهو يدأب في يومـه لغـده مجتهـدا في الزيادة على امسه نائبا عن اعوان المسلمين وانصارهم .ساهرا لهـم في ليلهـم. قائما بـأمرهم في نهـارهم .والعين السـاهرة في سـبيل الله قريره .وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر ذخيرة

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم .وتقـدموا من موضعهم .واشـتاقوا إلى مصرعهـم .وفـارقوا الحـزم في تسرعهم .وخرجوا عن رجالتهم .وتجردوا بخيالتهـم .وحملوا على الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد .فتحرك الصف الثـابت الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلحل من القـواعد .وتـراجع عنهـم المسلمون استدراجا .وملأت الارض السماء عججا وعجاجا .وزخر

بحر الحرب على أمواج امواجا . فما قربوا من خيام اليزك . الا وقد اعتكر جو المعترك وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على اعقابهم ووصلت الى رؤساهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا . وثنت وجه الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر عاثر . والذمر الباسل باسم بالموت باشر . فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعاديتهم الى الهيجاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها مشروحة والفرنج قد ندموا على ماقدموا . وعدموا بصيرتهم بما صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . وينقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهمام الباسل . والقرم البازل والندب الحلاحل . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فواته . أسف على عمره . وأسي على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم يستشهد في الجهاد سعيدا . وقال:قدموا حصاني حتى اشهد الحرب واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على الفراش عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، وتوفي عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبوأه الله الجنان ، وبشر به رضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فارس الحرب . ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب . حسام الدين سنقر الخلاطي النجيب المنتجب فنبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجل اجل الهمامين ، فوجمت النفوس ، والمت القلوب وفاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة العرب . أربت لنا بالأرب

انتهى الينا ان الفرنج . يتطرقون ويتطرفون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاش ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فارسة من الفرسان ، فاغاروا وهم غارون ، وساروا الى جمعهم وهم بتجمعهم سارون .وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم بؤسا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقل . وفي كل يوم تقوم الحرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتساق ، وكم قتل من حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتواقفا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغنوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ماجري وغرائبه ، وملح ماتم وعجائبه ، ان الطائفتين في بعض الأيام . ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صبيانكم الى صبياننا . وليكونوا في

امانكم وامانا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخــران . فقــاتلوا مليا ، والفوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المســلمين . على احد الصــبيين الكافـرين . وضرب بــه الارض . وقفــز عليه وانقض . وقبضه كسيرا وجذبه اسيرا ، فافتداه بعضهم بدينارين . وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظــاهرة . انه افلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن . فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربـطه . ومــازال يعــوم في البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصــحابنا اليه . واهدوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين مــن شــعبان . وقــد رفعــوا الصلبان ، وزحفت اسودهم في غاب المران . وطارت بهــم خيولهــم عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح . وجالوا دون التــل كأنهم له وشــاح . وخــرجوا على التعبيه . وشــفعوا نداء الكفــر بالتلبية . وشفعوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتــزمين . وعزمــوا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل امام الفرسان ، وزحفــوا اطــلابا ، ودبــوا دبيب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق الى القرار . وجروا ذيول السوابغ الى الفــوار ، وتحــركوا وهــم هضاب ، وتدركوا وهم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتــكثف . وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثــور . وتــرود وتــدور . وتهــم وتهمهم . وتدمدم وتدوم . وقد عبى الســلطان ميمنتــه وميسرتــه ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثــابت . وحــزبه في صــف الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحض علي حظ الابد . ويحث على الجلاد والجلد . ويذوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شاهد شروق بروقهم . وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشو حشود كثرتهم . انهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح ، وكلما تقدموا تأخر يستجرهم . ويحذر مكرهم ومكرهم . فعرفوا انه لا قبل لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميقات مقاتلته ، فتركوه واستقبلوا القلب وزخر بحرهم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منها الدو . واسود منها وجو الجو . ووصلوا الى جموع ديار بكر والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيرة ، وكانت من القلب الى الجناح الطيران وجبالها على الرياح للجريان فعرفوها بالغر . واستضعفوها لدى الكر . وألموا بها فما ألمت . وهموا بها فما همت . واندفعت ومادفعت . وتراجعت وما رجعت . وتعكست وماعكست . وادبرت وماتدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال الفرنج هابت وماهبت ولابت (٣٤) ومالبت . ورابت وماربت . وجاؤوا الى القلب وقلبوه . وحاربوه وحربوه وخربوا حزبه . وخرقوا حجبه . وهناك استشهد كرام باعوا انفسهم بالجنة . واسنو نحورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مروان . وكان مجليا في المروة . والظهير اخو الفقيه عيسى وكان ظاهر الفتوة . واخرون اعترفوا بذنوبهم فرحضوا بماء الشهادة دون حوبهم . وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استطالة حزب الصلبان . وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على التل نشاهد الوقعة وننتظر مايكون من القوم . وماظننا ان القوة بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خالطونا في المخيم . وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . استدركنا امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا في الاندفاع . والفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل . ووجدنا ساكنها قد اجفل . فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

مذكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لايألف مبيتا . ولايلفى بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد انن ضيق نفسه بضيق نفسه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طريق . واقمنا بموضعنا على الخوى والخيل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفرق غير مفارق . والقلوب مرتاعة مرتابه . والادعية الى الله مرفوعة مستجابه . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جده . وعدا جنده وان الكفر حاد فله وفل حده . وان الميسرة ثبتت فثاب اليسر . والاسدية انتصروا فأسد النصر . وكان هذا الصدى يقوى . والصدأ يروى . والبشرى تسري . والبرد بها تجري . والناس بين مصدق ومكذب . وذاهب في مذهب من الظن مذهب مهذب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صافي وقد ورد مورد الظفر الصافي . فنادى أين العماد . فقد جاءه من النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعنا عليه . فقلنا ماالخبر . وكيف ضفا الظفر (٣٦) . وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسلط القدر . والى اين انت سار بالنبأ السار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم . والخبر الكريم . فقلنا اهلا بشائر البشائر وطائر الاوطار . والسائر بالمسار والاخ البار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموافق . ومرحبا بالخصي الخاص لما مر حيا فحل بالخبر الفحل فحلا . وكم ام النجح املا وجلا وجلا . فأبنا محبورين مجبورين . وثبنا مثابين مأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخذ بالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومن مقامه ماانتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى اجرى الدماء .

-٥٩٩٢-

ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسره
وكيف ادال الله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتره . وكرت الكره . وامـرت تلك المره . وصل جماعة من الفرنج الى خيمـة السـلطان وشـيم مـن عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جـوله . وخـالوا دوله . وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشـياعهم . وعدمـوا اتبـاع اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتمـاعهم . فانحدورا عن التل . وقد جاؤوا بقـوة العـز فـآبوا بضـعف الذل . واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسيافهم . وردوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم . وكان في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بـالجبال الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد مـن كان مـن الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين . وقايماز النجمي والحسام بن لاجين . ومـن ثبـت مـن أبـطال المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانهلوها من دمائها وأعلوها . ولفوها وفلوها . ولقـوها واقلوهـا . ووضـعوا فيهـا السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . واوسعوها قتلا ذريعا .

ومابطأ الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعـا . فلم يفلت مـن الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الافها الا احاد . وامست لنا الحـرب فراشا . ولارض المعركة فـراشا . وتبعهـا اصـحابنا حتـى كلت سيوفهم وكلوا . وملت لتوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسـة الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحـامية لنار الحمية . وحكي عنه انه قال عرضنا في مائة الف وعشرة الاف . احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تـلاف فلمـا عجـزوا . وبـالخندق

احتجزوا . وقف عنهم اجنادنا . وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفا فردوا مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت من المثلثين ثلاثين واربعين . وتركتهم بالعراء عراة مصرعين . ولا شك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك مما شهده . ويعهد الينا بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قطوف . ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فارس مدجج . في بحر الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادي بشعار المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصلبي سنانه . فما شككت انه يشكني بلهذمه . ويفكني بمخذمه . وايست من البقاء . وانست الشهادة واللقاء . واستعذت بالله واستعنت . وتشاهدت مما شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني حدمته . فالتفت فاذا هو وحصانه ملقى كلاهما. وماوجدت بالقرب احدا اقول انه ارداهما . فعرفت انه نصر الهي . وصنع رباني في مذاق الايمان شهي . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصرة ماملكت ، الا الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لاسرار لله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الألطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها . وشكر الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيها واشاعة نشرها . وذكر فيها ماالفرنج عليه من اجتماع راجلها وفارسها . والاحتماء بخنادقها ومتارسها . وان لنا كل يوم فيهم نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامل في دمائهم والغه . ومضارب مناصل لرؤوسهم فادغة . ونيوبهم عواسل ماضغهم ماضغة .ونيول نقم عليهم في تقليص ضلالهم سابغه . وايدي ايد لصفحات البيض بنجيعهم القاني صابغه . وضمائر وضوامر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهمما وعزائم لاترى عن وقم القوم اهل الزيغ زائغة . ومابرح الفرنج في برح شديد . وامر غير سديد . وظل الذل مديد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتى ضاقت انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر يأسهم ووقع بينهم بطول المقام باسهم . فاجمعوا امرهم على انهم يجدون في اللقاء . ويهجيون الى الهيجاء ، ويلقون الالوف بالالوف . ويصدمون الصفوف بالصفوف . ويعرضون نحورهم ووجوهم على الاسنة والسيوف . ويكسفون بشبه التثليث ادلة التوحيد . ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحد الحديد . وبرز ذلك الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان . ورفعوا الصلبان واشرعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبوا الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها الحق ابطالا . وتأمل لشملها المتفرق اجتماعا . وترجوا الصليب السليب ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج . واقبلت بحار سوابحها وسوابغها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم . فانها خرقت حجاب الصف . وفرقت شمل الجمع الملتف . وزاغ جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمه . فظن من لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبلج قد اظلم . وهناك عرف اهل الثبات . وثبت اهل العرفان . ورقصت المران على اشاجع الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقى السنان بالسنان . وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت اللهاذم في كلا الكلي . وفتحت اليفالق مغالق الحتف . وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصلت ضرب الاعناق بقطع الرقاب . ومازالت تشل الفرنج وتفلهم . وتحل بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم . وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فرشت بعد ان سلبت اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع اجراء ولم تطق جريا.حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح . واعرب

حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل مــن مقــدميهم ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهى الاسلام بما اتســع مــن عطن عطبهم . وحسن منقلبه بسوء منقلبهم . وعاش بما شاع مــن قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين . وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحــاملين . وانجلى الغبــار عن كل قتيل مالعاثره من مقيل . ولالقائله مــن مقيل.وعادت اعلام الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهــدي الهــدى على النصر مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا مــن فقــد رجــاءه . ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهــم وقــد فجعــوا بتلك الالوف واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا مــن خلال تلك الحتوف . ودخل الليل عليهم . ووقفت العساكر حواليهم . وهم وان وهنوا لما اصابهم من الكسره . واخــطأهم مــن النصره . وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجــع كلهم بالجزء . ونقص منهم العــدد الكثير . وركد مــن ريحهــم ذلك العاصف المبير . فانهم في حشــد كالدبــى . وجمــع اغص الوهــاد والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشــدوا على حــب الموت الحبــا . وودوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصــنوا وتصــبروا . وتخيروا المقــام على الحين حين تحيروا . واوســعوا الخنادق وعمقوها . واحــكموا المتــارس ووثقــوها . وندمــوا على الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم ماداموا رابضــين . وعلى يد الصبر قابضــين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهــم ، وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها الشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق مــن ذلك الغرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب . ومــا ثبت الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سديد ساد الثغــور . ومجاهد الدين يرنقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين . وجــلا ظلمــة الوهم بنور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة بــاقدام الولد . ومــاذا

يقال في شبل ذلك الاسد . وانما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضــجروا من الحضور ففــابوا . والفــرنج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على قطع دابرهـم . واهلاك سائرهـم عن اخرهـم . وتحريك هـمم المؤمنين في تسكين سائرهـم . وتخــريب عمــرهـم وعامــرهـم . وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهـم . ومادام البحر يمدهـم . والبر لايصــدهـم . فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم وا سوائهم مــلازم . وتدبيرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيرة اهل اليقين . ومــا يقضي عجبنا مــن تضــافر المشرك على شركه . وتظاهره في اتساع مسلكه واتســاق ســلكه . وقعــود المســـلمين وتقاعدهـم وتعاضلهم في تعاضدهـم . وانحلال عقود تعــاقدهـم . فــلا ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فــانظروا الى الفرنج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا وأية شــالة نشــدوا . واية نجدة انجدوا . واية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهـم وجزائرهـم . ولا عظيم ولا كبير من عظمــائهم واكابــرهـم . الا جــارى جــاره في مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجــد والاجهــاد . واســتقلوا في صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس باذواع السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا . الا لمجرد الحمية لمتعبدهـم . والنخــوة لمعتقــدهـم . وليس احــد مــن الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجــاب عزهــم وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يدإلى بلده . والمسلمون بخــلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدمــوا الغيرة . ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان . اوخبــا سنى ونبــا سنان. لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقــربها . مــن لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهــذا اوان رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على انا بحمد الله لنصره راجون . وله بــاخلاص السر وسر الاخــلاص مناجون . والمشركون باذن الله هــالكون . والمؤمنون آمنون ناجون .

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء . وزادت مشاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن جملتهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل الرجاحة والسجاحة . وهو شاعر مفلق . وفقيه محقق . من ولد عبد الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق . فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الارموى المكبس . وكان سديدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلام في الخزانة امين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة . واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم.

وفثأنا سورتهم . واخمدنا فورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز والاحتراس الطريق . فنحن نوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع . ونذرعهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع . ونوسعهم قرى القراع . ونذيقهم حر الحرب ، ونسقيهم في طعم الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهاما ، ونتخذ لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر ، ونطيب من نتفهم النشر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع وأوشابها . ظنوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء دين السودان. واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجرىء متندم . فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمدد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة أمكنت . والحصة تعينت . والجو خال . والضو عال . والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى . وعرانا المضض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبتة مبتته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل النسور . وان قدرها بطون الضباع والنمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صديدها اهل الكفر ، فحمل الى الماءاكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتبر واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حزب من الخلل

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدي عليه بمثلما اعتدى . فاحضر كل ما

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئا اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الوبل الرشاش . وصح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلاص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها . وقضاة القواضب الى اقتضابها . وغار الآنف وأنف الغيران . وتسلط العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور . واشرأب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية للتقاضي . وقالوا حتى متى التراضي بالتغاضي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد

وحضرا أكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال إعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكلاكل كله . وقد برز بالكفر كله إلى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفد وسعه .وإن لم نعاجل الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل داؤه . وتعذر غدا لقاؤه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الاعداء . فظهر الاعدام من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما بلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بلاد الاسلام من يعدنا . وعساكرنا حاضره . وعزائمنا للتواني حاظرة . وعيون أسنتنا إلى الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين . ولا بقاء للنقاد إذا أصحر منه ليث العرين . فالرأي كل الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المحاجزة . ثم قال ليشر كل منكم برأيه . ولايقدم على قول ورأيه من ورائه . فتجاذبوا حبل الاضطراب . واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل منهم هواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين الثاني لا الأول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطول . والنائب الأعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوما . وما طعمنا في هذه الليالي نوما . ولاسمنا لطارق طيف غمضا . ولا شمنا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنما خلقوا على صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وفلت البواتر . وملت العساكر . وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما يتأتي قلعه الا لمن يتأتى . وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لايتمكن منهم إلا بالجمع الجم . والسيل لايغلبه غير الخضم . والصواب أن نصابرهم . هذه الشتوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء العلوج . ونعيد السريجيات إلى سلها والسلاهب إلى السروج . والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسل إلى الاطراف والاوساط . ومكاتبة دار السلام . واعلام الامام عليه أفضل السلام بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون . ويقومون بالنصر . ولايقعدون . ولايترك استنفار التركمان . وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعاؤهم بالعطايا . والتشريفات السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمم والعزائم الوانية . إلى ان تمتلىء بالجموع ساح الساحل . وتغلى بنار الحميات بها مراجل الراجل . فحينئذ ينتهي أمد المصابر .

ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر . ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر . وننسفهم ولو أنهم جبال . وننزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطرق جفن بلد منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهم غرار . ومازلنا في مشاورة ومحاورة . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة . والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب . إلى المنزل الرحب . ومن المعترك المعتكر . إلى المبرك المبتكر . فلم تعجبني هذه الحالة . ولم توافقني هذه المقالة . وقلت لعمري أتيتم بمصلحة . ولكنها غير مترجحة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار . ولم يحدقوا بجميع الأسوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخينا خناقهم . وأطلنا إلى مرادهم اعناقهم . وباب عكا من جانب البحر مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق إليها سابلة . والذخائر إليها في كل يوم داخله . والفرنج عن قطع الطريق عاجزه . وعزائمنا على مصابحتها وممساتها لها دون قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وان هونا احكموا . وإن نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم تحفظوا . ومتى نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فانهم لحصر البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايبلغون . فقالوا هذا أمر هين . وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا بالرجاء.لم ييأسوا من الارجاء . أرخينا لهم حبل الأنظار . حتى استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث . ونصدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان متكرها لما أبدوه من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

ذكر الرحيل إلى الخروبة . عند خيم الأثقال المضروبة .

كان السلطان مع ما ألم به من الألم . غير مبد وجه الملل والسأم . وهو في كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف . ويقف مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر . وعليه أثر الضر من الصبر . فليم على فعله . وخصه الطبيب بعذله . فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان ، وخلى المنزل الأول وأخلى العسكر ذلك المكان . وتقدم إلى من بعكا باغلاق الباب . وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب . وجرى الامر على ما كنت قلته . وتحقق من الخلل ما خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خاليا . ورخص عنده ما كان من سوم خوفه غاليا . وشرع الفرنج في حفر خندق على معكسرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر . وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم . وبما ظهر من أثرهم . والجد في تعميق الخندق وتتميم محتفرهم . والعسكر هاجم . كأنه واجم والظن فيه راجم . وشر الكفر ناجم . وما فينا لعود الأمر عاجم.وقلت يوما للسلطان يركب العسكر إليهم . ويركض عليهم . فلعله ينال ظفرا . ويقضي من كسر العدو وطرا . فقال ما يعمل العسكر شيئا إلا إذا كنت معه راكبا . ولعمله شاهدا مراقبا . ولقد صدق في مقاله . فانه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا يبذلون معه المهج . ويخوضون من بحر الحرب اللجج . ويوسعون لهزم العدو المازق الحرج . وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم . وأمهلناهم بل أهملناهم . حتى عمقوا الحفور . ووثقوا من ترابها السور . وملأوه بالستائر . ومنعوه من الطير الطائر وبذوه وأسسوه . وستروه وترسوه . ورتبوا عليه رجالا . ولم يتركوا لواغل مجالا . وتركوا فيه أبوابا وفروجا . ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا . ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقول

لامبالاة بهم ولا أكتراث . وما أسهل إذا عزمنا عليهم لأصولهم الاجتثاث . وبسيول سيوفنا نغسل تلك الأخباث . وأي وقت قصدناهم وجئناهم وجأناهم . ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما حفروا الا قبورهم . ومادبروا الاثبورهم ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم مذونهم . وامتلأت باشلائهم خنادقهم . وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسفر عن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل باتمامه سمعه وبصره .

لما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة . وضمت أشلاءهم المعركة . وشوهدت على الربا حجب نحورهم المهتكة . وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابر انه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر . وانهم قد عدموا القرار . وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان:ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم . فانهم يرهبون ويهربون . ويبعدون إلى صور ومن بعدها من عكا لايقربون . فمال قوم إلى مقاله . وتخيلوا مثل خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدر عن ورد الرصد . والجد في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولايعوقهم فانهم كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه . وبدا وهنه . ومازاد الفرنج الاثباتا ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأي القائل . ونقول ما أعجب قبولنا لقول هذا القائل .

- ٦٠٠٤ -
ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد العزائم من البواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه . ومداراة ألمه . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له ألطافه الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مرابعهم لوقت الرجوع . وأقام في مماليكه وخواصه . ورجال حلقته المنصورة من ذوي استخلاصه . ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار بهلاك القوم منه فلكا . وكان في مماليكه كل مقدم مقدام . وكل همام همام . وكل ليث ذي لوثه . وكل حدث محسن له حسن أحدوثه . وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم . وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطال . وكل مغير للنصر مريغ . وكل مسيء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ . وكل تركي للرماء غير تارك . وللاصماء غير فارك . قوسه في ظفر الهدى مؤتر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر . وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد . وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار . وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللبسالة كاس ومن الغار عار . وكل مهراني في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الابطال ظاهر . وكل كمي كميش واكديش . فما خلا يوم من وقعه . وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير سهامهم إلا بلسعه . وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم إلا على لطعه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل صباح ومساء حيت . وبلي الفرنج منهم بالمبير والمبيد . واعتاق بهم مراد العدو والمريد . ومازال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم . وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشرك بتصديهم . وحركوا

ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلينا به من سني النصر مطلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة . وغنيمة صفوة . ونشوة أعقبت صحوة . وصيحة استصحبت ضحوة . وقوة من وهن العدو . ومحبة فكت رهن السلو . فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم . وانخفض اغتباطهم . وفترت عزمتهم . وقصرت همتهم . وخمدت فورتهم . وركدت ثورتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتفشوا . وتذفعوا وتنعشوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتدرك الضامن . وصاروا يخرجون ويحرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمسون على القتال ويصبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم . وجم جمعه واجم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والذوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكبة .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمى الخبر بوصول ملك الالمان إلى القسطنطينية في عدد دهم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور الى بلاد الاسلام . وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وانه في ثلاثمائة الف مقاتل . من كل سالب باسل . وطالب باطل . وجهم جهنمي . وأشقري سقري . وأنمش أفعواني . وصل صليبي صلائي . وأرقش حنشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومغوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجار للدرع جار . وكل ذئيب عاسل .ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصيال . ومشمر على الموت متمرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع . ماله سوى السوء

من مقنع . وأنه مع الالماني ملوك وكذود . وكل شيطان لربه كذود . وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن . وهو في قلعته على الفرات ومن أهل الذمة في المأمن . يبدي تنصحا وإشفاقا . وتخوفا على البلاد واحتراقا . ويقطع بان الواصلين في كثرة . وان الناهضين الى طريقهم في عثره . وابرق في كتابه وارعد . وابدع بخطابه وابعد . ولا شك انه الى جنسه النجس مائل . وبملاءة اهل ملته قائل . ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبر وخيل أنه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصدقون ويكذبون . ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضح هذا الخطر . وصح هذا الخبر . فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون . ويغضبون لله ولايرضون انهم لايعضدون . على أن الله ناصرنا . وموازرنا ومظاهرنا . وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس . وبثثنا بالارسال الى بلاد الروم عيونا وجواسيس . وندبنا رسل الاستنصار . وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار . وقلنا ما هذه المرة الامرة ولايسيغها الا كل مرىء ابي . وما هذه الكرة مثل كره . ولايحضرها الا كل كميش كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعل له الى كل الذي ظرف في طريقه رسالة . واودعه اليه مقاله . فسار من عندنا في شهر رمضان مغذا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل السير جذا . ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيي بن عبد الله الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد . وذكر انه قد بلغ المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل العدة الاستنجاز والعدة الاستنجاد . فما هذا الرسول الرائح . وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح . واذا اختلفت الحديث حدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الفي الائتلاف . فما هذا العجل . ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن كل ما ابان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا لا اقدر على صد من الخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة تردى . وأنت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعا . وتجد شمل ما الفته جميعا . فوصل ضياء الدين الشهرزوري وهو مغتاظ . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي . ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخالي ومخالطي . ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن . فما بسط عذر . ولا قبض ذعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف . ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه . واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ . والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للامام يكن لك . واقبل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني . واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير مبرم . وأن الرأي الذي أحكموا . غير محكم . ومازلت أوكد الأمر حتى يؤمن انتقاضة . واتعرض دون الرأي حتى لايمكن اعتراضه . وأيقن ان الامر مافيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلبث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان . بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة . ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهرزوري بشهرزور . واستدعيت عسكره المنصور . وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا راي رائب . وشاو شائب . وأمر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

الامام بما لايقرن بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد . وينجح هذا القصد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل ما يدخل في استطاعتك . اما صاحب الموصل طلبها فمنع . وصاحب اربل عنها دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لحدها وحقها خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من الجنود والنقود انجادا خفافا وحمولا ثقالا . فاذا عرف انك اخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . وملك مالك الامر امركم . وابدوا في انقطاعهم عنك عذرهم . وانقطع الواصل . وارتفع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بكتمر في خلاط . قد جمع الاخلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغيابة والغباوة . فقال السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحق والحقيقة . فان وصل الينا اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشهر زوري الى بغداد . صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد ، وقيل له جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، ونندبه فيما نتخيره ، وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الأحماد وسيأتي ذكر ما آلت اليه نوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان والاستظهار بمجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الايمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال . في جيش وآل . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشكة رادعة . وشارة سارة . وديمه من البأس داره . وعدة منتخية منتخبه . وعدة منتقاه مهذبه . من كل أجدل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على سوذليق .(٣٨) وبحر على سابح . وجذع على قـارح . ومـن كل رئبال على تذقل(٣٩) . وأغر محجب على أغر محجـل . ومـن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل بـالسمر سـلاب . وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شـجاعا . وكل أحمـى أحمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقسور قـاسر . وضيم ضاغم . وقمقام وأقم . وليث به لوثه . وحدث له في الشـهامة أحدوثه . واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبسي عابس . وكل مغامر المـوت مغـامس . وكل غربيب حلكوك . وكل سرحـان صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خـارح لثـار . وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسـخ . وجاؤوا بالغبسة القبطية . والترسة المطية . والصلال القفـطيه . والالال النوبية . والحراب الحربية والصعاد الصعيدية . والصوارم المذروبة . والصرائم المشبوبه . والاسـنة المسـذونة . والصـوابغ الموضونه . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماسيح المزدرده . والشـياطين المتـوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يترك في كل مـا يراد من القوة مجهودا . واقبل في روع ظاهـر . وضوع باهـر . وبشر ذائع . وذشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهـزة وطـرب . وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى . وغياث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبـى . لقـد نص النصر . وكف الكفر . وسـلم الاسـلام . ونام الانام . وأمـن الايمان . وتسلط السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت الآمال . ونيل رجاء الرجال . وأزيل إبـطاء الابـطال . وورت زناد الأجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعـد اليوم . الابعـد القـوم . وادرك ما استقام من النهج . وهلاك من أقـام مـن الفـرنج . ونزل الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقـدم السـلطان إلى راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخـل العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صقع من صقعه . وفي كل ليلة

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم مليه . والملك العادل يركب في كل يوم ويبلي . ومن جهده في القتال لايخلي . والفرنج على البلاء صابرون . وللعناء والعناد مكابرون . لايبرزون ولايبارزون . ولايجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومجاولة أهل الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . براياتهم المذكوسة وآرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الاقدام المصدودة المسدوده . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات التي وقعت . أكثر من عشرين الف مقاتل . من فارس وراجل ورامح ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرث الا نار حرصهم . وما فلل حد حديثهم الحادث . ولا قلل عدد كثيرهم الكارث . ولا غضوا عيون أطماعهم . ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولاردوا وجوههم عن مواجهة الردى . ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا بالمدى . وهم لمواضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البوائق محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون . وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون . وإن جندنا لهم المنصورون . والعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية شديده . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ذاكية . وصدمة صادعة . وحدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

الوصول إليهم . جمع راجل البلاد . وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس . ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل الأخ العادل وفقه الله المراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع من في ديار الكفر . فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة . ولاخطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وأنهضت كتائبها . وتحرك ساكنها . وبرز كامنها . ونفضت خزائنها . وانفضت معادنها . وحملت ذخائرها . وبذلت أخايرها . وثار ثائرها . وطار طائرها . وذللت كنائسها . واستخرجت دفائن دفاسها . وخرج بصلبانها أساقفها . وبطاركها . وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها . وتصلبت للصليب السليب . وتغضبت للمصاب المصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم . وأن أخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا . وبحرب الاسلام مجاهرا . ولمتعبده مستردا . ولجده في النخوة لدينه مستجدا . فقد وهبت له ذنوبه . وذهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن السفر . سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد . وتواصلت منهم الامداد بالامداد . وتوالت أنجاد الانجاد . فهم على النقص يزيدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يجودون . وعن اللجاج في حوض اللجج لايعودون . وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم ديارهم . ورمتهم إلي أغراضهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمر . ويصول الكفر ويجول . ويتطاول الشرك ولكنه لايطول . فان لدين الله من خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسفر صبحه . ووفر نجحة . وبدا علاوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العوارف

الامامية . والعواطف النبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية . الى أن يفرق الجمعين . ويجمع للفريقين القمعين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر . بتجهيز الاسطول وتجزيه حياله . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لايراده وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته ، وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيهاأحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد . ما سلك نهجا الاملك . ولاطلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقيبه . مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للازواد والميرناقلة . فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق أباطيلها . وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين الكفر رجوما . واقبلت سواريها بالرواسي . مبرمة الأمراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . فصدتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكأنما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها . وناحت ظعائن الضغائن على شواني . شوانيها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها . فأول ما ظفر الاسطول المنصور . بشيني للفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم وذخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الاسطول المصري المنصور فجاءها فجاءة . وامتد اسطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءة . وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشناة فعادت مراكبهم وهي نواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . وأطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا

لاغبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن العدو معمرة . وألهبت في الماء على أهل النار كل نار النكال مسعره . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شاءت . وتبعتهم مرارا وبالغنائم فاءت.وأعشت أعين الرائين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . لشائن الدين واجيء مفاجع العدو بالهلاك مفاجيء . مفرق لمراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد لبهجة الاسلام زائن . زائر بكل أسد زائر . سائر بكل مقدام إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وأرهقت غروبها وسنمت غواربها . وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض . وأرجلها على الثبات في روابي متون سفنها روابض . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلاقوه وبالمدافعة ويجاولوه . فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

الاوجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنهم وأننت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى . وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والذخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلأ البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات . والرمي في العرادات . والحذف بالنفاطات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالمحرقات . والقاء القوارير . واذكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصلة القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات . وتطيير الناوكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقذ . والجد في الجد والجذ . وطروقهم ليلا على سبيل التلصص .

وسوقهم على وجه التصيد والتقنص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا .واجترأوا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه . ومن تعذر عليه اخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمد مديته . ويسلبه سكونه بسكينه . ويجعله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الأسر . ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراس والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقهم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار . حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار . فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امراة افرنجية مستحسنة . متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وترافدن على الارفاق والارفاد . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية(٤١) . متغنية متغنجة . متبرزة متبرجه . نارية متلهبه . متنقشة متخضبة . تائقه . فاتقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة متشهية . ملهاة متلهية . متفننة متفتيه . ناشية منتشيه . متشوقة متسوقة . مقترحة محترقة . متحببة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء . غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتثني كأنها غصـن . وتتجلى كأنهـا حصن . وتميس كانها قضيب . وتزيف وعلى لبتها صـليب . وهـي بائعة شكرها بشكرها . باغية كسرها في سـكرها . فـوصلن وقـد سبلن أنفسهن . وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسـهن . وذكرن أنهـن قصدن بخروجهن . تسبيل فروجهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان . ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفردن بمـا ضربنه من الخيم والقباب . وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخـاذ . وبحـن بـالاباحة . ورحن إلى الراحة . وأزحن علة السماحة . وذفقن سوق الفسـوق . ولفقن رتوق الفتوق . وتفجـرن بينابيع الفجـور . وتحجـرن بنزو الفحول منهن على الحجور . وعرضـن الامتـاع بـالمتاع . ودعون الوقاح إلى الوقاع . وركبـن الصـدور على الاعجـاز . وسـمحن بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقـراط . ورمن فرشهن على بسـاط النشـاط . وتهـدفن للسـهام . وتحللن الحرام . وتعرضن الطعان . وتضرعن للاخدان . ومـددن الرواق . وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتـاد . واسـتدعين النصول منهن إلى الاغمـاد . وسـوين أراضـيهن للفـراس . واستنهضن الحـراب الى التـراس . واسـتذفرن المحـاريث إلى الحرث . ومـكن المناقير مـن البحـث . وأذن للرؤوس في دخـول الدهاليز . وجرين تحـت راكبيهـن على ضرب المهـاميز . وقـربن الاشطان من الركايا . وفوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقـطعن التـكك . وطبعـن السـكك . وضـممن الاطيار في أوكار الاوراك . وجمعن قرون كباش النطـاح في الشـباك . ورفعـن الحجــر عن المصون . وترفعن عن ستر المكنون . ولففن الساق بالساق . وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجـار . وأطلعـن الاشرار على الاسرار . وطـرقن الاقـلام إلى الادوية . والسـيول إلى الاودية . والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفـان . والسـبائك إلى البواتق . والزنانير إلى المناطـق . والاحـطاب إلى التنانير . وذوي الاجـرام إلى المطـامير . والصـيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى البـطون . والاقـذاء إلى العيون . وتشـاجرن على الاشـجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قربة ما وفوقها قربه . لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمر . وطلبن بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية . وأبق من المماليك الاغبياء والمدابير الجهلاء . جماعة جذ بهم الهوى . واتبعوا من غوى . فمنهم من رضي اللذة بالذلة . ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في النقلة . فان يد من لايرتد لاتمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد . وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج . وما ازكاها عند القسوس إذ كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحر . إمرأة كبيرة القدر . وافرة الوفر . وهي في بلدها مالكة الامر . وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلمانهم واشياعهم . وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة . وهم يركبون بركباتها . ويحملون بحملاتها . ويثبون لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس . لهن دروع وقوانس . وكن في زي الرجال . ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل ارباب الحجا وهن ربات الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به سعادة . ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذي اضلهن . وعن نهج النهى ازلهن . وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أسوة . وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسوة . فما عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة استبين واشترين . وأما العجائز . فقد امتلأت بهن المراكز . وهن يشددن تارة ويرخين . ويحرضن وينخين . ويقلن ان الصليب لايرضى الا بالاباء . وانه لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن للغيرة على الملة ملن الغيرة . وللنجاة من الحيرة ناجين الحيرة . ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن . ولما ضامهن من الامر تبلهن وتبلدن

-٦٠١٩-

ذكر ماأهداه عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدة . وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة . سير من أحمال النفط الابيض مع عزة وجوده ما وجده . ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد . وذاع الاحماد . ودل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح . واستجيدت التراس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء الارواح واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتراق . وطفت وضربت منهم النحور والاعناق . وقد هدا بما أهداه النصر إلى الهدى . والردى الى العداء . وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جاد بما أجدى.واهدى ما هدى . وعاد من المكرمة بما بدا . لاأخلى الله المجاس من يد يتخذها . وأياد يسيرها وينفذها . ومحمدة يستخلصها لنفسه ويستنقذها . وحمية للدين يقم بها حماة الشرك ويقذها . ونخوة للاسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشحذها . وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحطمة . والبيض متثلمة . ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمة . وعيون النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران رامقة مارقة . وحمام الحمام في مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائقة

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضال النبال . والرماء الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقراع الذوابل . والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا وهو وإن كان غالبا لاغب . ولاصارم الا وهو في دم العدو الفائض ناضب . ولاجارح إلا وهو مجروح . ولا قارح الا وهو مقروح . ولاجامح الا وهو مصحب . ولاباشر الا وهو مقطب . فباية عدة من هذه العدد انجد . غار الحمد وأنجد . وتاسس الشكر لانعامه وتمهد . ومن العجب أن العدة تفنى ولاتفنى العداة . وتنمو على الحصاد وكأنها النبات . ويتسارع الى أمدادها الموت والهلاك ويخلفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم . والكفر إلى الردى يردهم . وكلما اخلقتهم الايام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قطب الدين ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولاينتصف فيها من الأعداء . ونحن محتاجون الى العسكر في الربيع . واستنهاض الجموع الى شمل النصر الجميع . فكتب بتاخيره . والتمهل في تسييره . فتاثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير من بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامره . والتقدم بتجهيز العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره .

- ٦٠٢١ -

وعرف مسيره قطب الدين ادام الله له مضاعفة العلاء . وأقر باذواره عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقرونه بالحسنات . ولم يقرب من عبر الفرات . اشفق عليه من التعب . ليكون عسكره مستريحا عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع أدعى . ومصلحة الاسلام في ذلك الاوان أولى أن تراعى . ولو عرف أن الركاب القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالنفوس والارواح . وتلقته القلوب بالقبول العبق بنشر الانشراح . وان اشتعل القلب بما فاته من حظ من الاستسعاد بوفوده . فقد بشر أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب الرسل الى الاقطار والامصار . للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبث . وحث الرسل وأرسل بالحث . وبعث المسرعين لاستبطاء البعث . وانهض للتبليغ كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ . وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتاب اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن عليه من دوام القتال . وطلبت منه الاعانة بالمال . واستعين واستنجد . واستلين واسترفد . وحض على حظه من انجاد الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهج السماح . وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد الجرد العتاق . وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمذان . بما دنا منه عزمه ودان . وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدي إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . أمير من خواصه هو أيلدكز أمير العلم . فضرب له من الخيم الخاصة سرادق . ووفرت في الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خانته من امرائه ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخصاصة . وأن عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوته من هذا الجانب قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكتك بقرب اربل . واراد الوصول الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستوثقين بذمتكم . وانا عنده مقيم . وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وان أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت . وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى الاعانة . واردف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسه من سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهر زور بالتوفر على خدمته . والارتياد لمصلحته واشاعة معونته . ثم ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد،كونه نسيبي . ليكون القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصلحة والمصالحة . والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ولقد كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصرة الايمان . فنقله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن ابي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الأخيار . والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الافضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها محشورة . وعلى تعذرها عليهم محسورة . وخرجت هذه السنة والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر في الاحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباهج . ووضحت للسعادة مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيج وأرخام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الأشواق الى لقاء الاعداء لواعج . وتالفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولمناجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات . وللعزمات أزمات . واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعت عجائب . وأعجبت وقائع . وأبدعت غرائب . وأغربت بدائع . واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لايقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده .

- ٦٠٢٤ -

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على مــا يظهــر العدو من الكيد . وهو لايبعد من الخيم . ولايقرب من مسائل الديم . وركب يوما في صفر على عادتــه فتصــيد . وطــاب له قــرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقــت العصر في عدد لايدخــل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فــزحفوا اليهــم . وحملوا عليهــم وطردوهم إلى خيامهم . وأخذوا عليهــم مــن خلفهــم وأمـــامهم . ومازالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضــة وركضة . ونفضة ونفضة . ومشــقة ومشــقة . ورشــقة ورشــقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وردة وردة . وضمة وضمة . ولمة ولمة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . وللفرنج في كل كرة على الرمل مصــارع . حتى فني النشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب . والفرنج لايعجزهم الا الرمــاء . ولا يهتكهم إلا الاصماء . ولايذفــرهم الا رنة الاوتــار . ولاينذرهــم الا أنة القسي بـــالدمار والبوار . فلما أنسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الدنو مــن تلك الشعاب . وحملوا حملة واحــدة ردوا بهــا اصــحابنا الى النهــر . وكادت تعبث بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صــف مــرصوص البنيان . واشرعوا الى نحـــور تلك الذئاب ثعـــالب الخرصان . واستشهد جماعة مــن الشــجعان اســتحلوا طعـــام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفــرنج قلعــوا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . اســلب لبســهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبــة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التاسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممــن استشهد . وزاد التلهــف على فــوات الفــرصة . وكيف أغفــل ذاك القنص عن تلك القنصة . فان العــدو صـــار عرضــة للصرعة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الوقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر . وهو يتطاول في كل معترك ولا يقصر . عثر به جواده . وثبت على الجرأة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل آخر سيفه ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سرا سنقر يعدو ناجيا والخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه . وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المذون من لهاتها بعد ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف ارنون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياده . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة مذاهبه . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام بما يحويه . وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صور . ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور .

ذكر حال عكا ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتنم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من مصر . فمازال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في المراكب . وقد ملأها بالذخائر والاسلحة والكمات المساعير والحماة المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مـراكبنا في موانيها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعـدد . فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم السـباحة لهـم بـالرغائب على وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحـوا . واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صـاروا يحملون نفقـات الاجناد على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتبـا وطيورا . ويعودون بكتب وطيور . ونكتب اليهم ويكتبـون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر مـن اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجا من خشب . وهرادي من قصب . ويدرجهـا على الطيران مـن البعـد . ويوردها لشبعها وريها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ماهذا الولع بما لايدفع . والوله بما لاينجـع . حتـى جـاءت نوبـة عكا فدفعت . وشفت الغلل ونقعت . واتت بـالكتب شـارحة سـارحة . ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفـاتحه . فصرنا نحبـو صـاحب الطيور بالاطراء . ونخصه بـالمدح والثناء . ونامـره بـالاستكثار . ونطلبهامنه مع الليل والنهار . حتـى قـل وجـودها عنده لكثـرة الارسال . وكنا نعرف بها جلية الاحوال . ونعلم ان الله علمـه ذلك البر . والهمه ذلك السر . فانه اطلع على مـايدفع اهـل الاسـلام . فحمى حمي هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمينة بالاسفار . قمينة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيار . جريئة على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدودة من الانخار . مودودة مع الاخيار . وحمام البلد الينا مع العوام محمـولة . وعقـود الاكياس عليهم محاولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخـطر . وفيهـم من سلم مرارا من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعوم . ولقد عطب عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما لقي رفقاؤهم لاقون

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمر السلطان عساكره بالعود فتوافت أمداد أجوادهم توافي امداد الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العدة وأحسن الاهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي ببسالته يقسر الليث القسور . وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام . الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد القمقام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء . وكثرت الجنود . وانتشرت البنود . وحلقت عقبان الالوية . وتلاحقت ذؤبان الاودية . ولمعت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البوائق . وحملت بواسق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . ونبتت شقائق العقائق . ونظرت أحداق الحدائق . ويسرت طرائق الطوارق . واعجبت أزهار الرايات وانهت غايات الغايات . ونزلت بحسن الصنيع نصوص النصول . ودارت بيد الربيع فصوص الفصول . وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . وومضت المواضي ومضت . واقتضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحلى . وغربت السمر بالكلى . واشتاقت لدات اللدان الى العناق . وتاقت شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث في المجاراة باجراء العتاق . وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب ، وحمي عزم البطل . ومحي رسم الملل . وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته . وفاز النصر بعدته . وجليت بنت الغمد في زي الهند وري الفرند . وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام نصبر ولم لانشتغل وكيف لانشتعل . وحتام القعود . ومم الركود . ولماذا الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول . في الفصل الاعدل والفضل الاكمل . وتداني العسكران . وتعالى العثيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على تربيب منازلهم طلبا طلبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة الميمونة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الافضل في اول ميمنة القلب وأخوه الملك الظافر في اول ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، منقضة كالبزاه ، منفضة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، عادية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة ، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من وقف له بالقريب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد . وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٢′) وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في بار كاه له مضروب ، وخصه بصنوف من الالطاف وضروب ، ووصل معه حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتـوقيع بعشرين الف دينار . تقتـرض على الديوان العـزيز مـن التجار ، وخمسة من الزراقين الذفاطين المتقنين صـناعة الاحـراق بالنار . فاعتد السلطان بـكل مـا أحضره . وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره . غير انه ابدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل مـا معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شـملني مـن عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بـالفرض ، ويغنيني عن الالتـزام بالقرض ، وأركب الرسول مرارا معه واراه مبارك النزال . ومعارك القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابـطال . ومـطالع اللقـاء . ومواضع الهيجاء . ومصالت الاقدام . ومنابت الاقـدام . ومـواقف الصفوف . ومصاف الوقوف . وأماكن البعوث . ومكامن اللبـوث . وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشـهد بمـا يشـاهد . ويبين له المجتهد والمجاهد . وأراه ما لم يره لياثـر أثـره . ويخبـر بجملتـه ويجمل خبره . وأقام الرسول طويلا . وأقام له السلطان من طـوله دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استاذن في العود فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفـرنج عكا بـالابراج والاعجـاز بهـــا والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا الحصار . شرعوا في عمل الابـراج الكبـار ، وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبنوها وقدموها ، ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طبـاقا . وسـمروها بـالحديد . وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثـاقا . ولبسـوها بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ . وزحفوا بهـا الى السـور وكشـفوا بـــالرمي منهـــا بعض ســـــقوف الدور . وتســـــاعدوا على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر بان التلف بها حوام . وان البلد قد أشرف . والخـطر قـد أسرف . والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخندق قـد طـم .

وأنتـم إن تـم هـذا عراكم العـار . واظلم على الدنيا والدين بليله النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشـتد وكرب وركب وكان يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحـف الى الفـرنج ليشـغلهم عن الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين مـن ربيع الاول يوم الجمعة . بـالجحافل المجتمعـة . والغمـاغم المرتفعـة . والصوارم الملتمعة . والصلادم الممتنعة . والأسنة المشرعة والاعنة المسرعة . والدوائم المنتجعة من النجيع . والبيارق المختفقة كأزهار الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي الذقـي ، وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضـايقهم السـلطان مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتـى دخل الليل . ولغبـت الخيل . فقـوى تلك الليلة اليزك . والزمهـم في الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهرا . فلما اصـبح يوم السـبت صـبحهم بـالحرب . وسبحهم على بحـر الكر والكرب . ورجـل الرجـال اليهـم .وانزل النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد النقع . واتسع خـرق الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقرض القـوم . وتفـرق الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدمـاء . أو جـريح على بقية الذمـاء . وبـات الناس في السـلاح شـاكين . وبنار المذاكي ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حاكين . ورجـع السـلطان الى خيمـة ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع في رياض الاخلاق الرياضية . وأصبح يوم الاحد راجعـا الى قتـال أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانتقال السوق الى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهـور الانضر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقـال الى المخيم لئلا يغيب حاضر . ولايصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين . ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهـم معـاشرين . فانتدب منهم الى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح . وكل محتـرق

على نار الهيجاء الهياج مقترح . وكل وقاح بالحراب وقاع . وكل صرار بارداء الكفرة نفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لفام . وكل أســــــــــــــــــــــد غدا الى

الشد له في حومة المأزق زئير وبغام . وكل متلاف الغيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجاف . واخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس . وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . واوضحوا بالنكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وان البلد ضويق . وان العدو المخذول يحيق به كيده وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله . ويكفه بنزاله عن نزاله . وجدد الكتب الى الامصار . بالاستنفار والاستنصار . فاول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظر ناضر . ورونق حاضر . وجمع كثيف . وحشد لفيف . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهيأة معجزة وهيبة للعدو مزعجة . وصولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوابل . وعتاق وصواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبائل . وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حران جريدة . وقد استأنف للجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد الى عسكره ليقدم به . ويحضر بجنده وتركمانه وعر به

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان و من كان في طباقها .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون تتابعت بظهور دلائل النصر وتناصر اسباب الظهور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشعلها متسامية . وفي الجو بشرارها مترامية . ومايدرى ماسبب هذا الحريق . وكيف تيسر هذا التوفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار . وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لانوارها في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثنائه تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبألسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار . ونسير بطاقاتها على أجنحة الاطيار والعجب ان الأبراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائية ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف اسواره وكسفه ، فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة . وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقده ، وكان سبب حريقها ان رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن السلطان في دخول عكا الجهاد ، واقام فيها باذلا للاجتهاد ، وغري بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره ؛ وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره ، وتقدير معاييره ، والناس يضحكون منه . ويغضون عنه . ويقولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وماهذا الهوس الذي وقع فيه . وهو يعد لذلك العمل الالات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل من الامتزاج الامتزاج . قوتلت بكل فن ، وابنى اليها من النفط كل قدر ودن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل نفاطة مرهقة . وبالغ في صنعته الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس . واستسلم الناس . فمضي ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء الدين قراقوش الامير وقال قد رأينا ماا عترض من التدبير . وماعرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله يأتي منها بشفاء الصدور . فاذن له على كره . وقال ماارى لاحراق هذه البروج على يده من وجه . فان الصناع قد ابلسوا والزراقين العارفين بالصناعة يئسواه فلما وجد الاذن وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبـرها ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدور نفـط لانار فيها . وهو يصـبها على اعالي البـرج ويسـقيها ، والفـرنج يعجبون من البلل ولايدرون بما وراءه من الشعل ، ثـم قـذف بقـدر ناريه ، متشبعة بكل بلية فوقعت في الطاقة الوسطى ورمـى اخـرى فوقعت في السفلى . فاشتعل البـرج مـن طـرفيه الادنى والاعلى ، وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سـبعين . فـاحترقوا اجمعين . ودخل اليه ايضا جمـاعة لاسـتنقاذ مـا فيه فـاحترقوا بدروعهم وسيوفهم . وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لاستبطاء حتوفهم . وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احـراقه التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وماكان ذلك بصنعته منه بـل لان الله وفقه . ومازالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سـوادا . واحترقت المجانيق والستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر) (البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفـار بـذلك الضرام ،وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت امالهم . وركدوا بعـد حـربهم ، وركنوا الى خـزيهم ، وضـلوا في سعيهم . وتورطوا في بغيهـم . وسقط في ايديهـم بسـقوط ايدهـم وحيق مكرهـم بهم ، وكيدوا بكيدهـم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدواالثغر ، واظهروا بظهور القدر القـدر ، وجـاؤوا الى مواضع الابراج واماكنها واسـتخرجوا الحـديد مـن مـكامنها . ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسكبت ، وكشفوا عن السـتائر التي تهتكت . فاخذوا ماوجدوا وحصلوا على مانشدوا واتـرب مـن ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخـراب . وبردت من حر تلك النار . وشفي أوامها بـذلك الاوار . والحمـد لله الذي جعل تلك النار لاوليائه بـالبرد والسـلام ابـراهيمية . وعلى اعدائه بالحر والضرام جحيمية .

- ٦٠٣٤ -

ذكر فصول انشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما اجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرفد . واعذ به حال الظما البرج مـن الورد . وذلك مـاظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاتفـاق الحسـن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو اللسن وهو ان اصـحابنا بعـكا رمـوا بقدور النفط عند العدو المدحـور . واحـرقوا جميع مـالهم مـن المنخور . واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قـربوها . ومنجنيقيات نصبوها . ولهم منذ تسـعة اشـهر يجمعـون هـذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف سـمكها وقـربوها ناكية في الثغـر المحـروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام مـن نكاياتهـا . واظلت الافـاق مـن غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربـا . فـاقدر الله على احراق ماعمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العـدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . وماافصح ألسـن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . ومابسط ايديها على من كان فيهـا مـن الرجـال للارواح ناهبة سالبة

فصل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذي ورت زناده . والنصر الذي قـرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا . وصـبروا فانتصروا . ورموا من البلد ابـراج الفـرنج المنصـوبة عليه بقـدور النفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بهـا ألسن النار المنصرمة . ودبت مـن الابـراج المقـربة الى الدبـابات المقـدمه . وعلم العـدو ان كرتـه خـاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجع السني والنور اللامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشري ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر . فطالت ألسنة النيران تدعو على اهلها بالبوار . وتبدي في تضرمها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ما اعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم:كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمى اصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وابراجه بقدور النفط من البلد فخطبت ألسنة النيران على تلك الاعواد . بل على تلك الاطواد . والحقها رداء الردى والحقتها بالوهاد . وفرشت رمادها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنيقات بصدمه المنجنيقات .ودبت النار الى الدبابات . بصدمة التأثير وحدمة التأريث.وماطول ألسن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبار . وقد ابدت الى الاسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار . وماحسنها وهي ترمي بشرر كالقصر . ويكسو سني لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر وماقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الالات عن البلد اجنحة الحصر . وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر .وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من

حوته تلك البروج . ودخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع ، وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف . كل ما وجدوه خلال رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج وثوقا بوثاقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقها . ووصلوا بها اجنحتهم . ونخروا فيها اسلحتهم فاخفقت ظنونهم، وسخنت عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفد الفرنج اموالهم في عدد اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شادخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجهم . فلما قدموها بعد لأي . واحكموا باحكامها كل تدبير ورأي . واشرفوا منها على سور البلد بأمور ذات أسواء . وجاؤوا بآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر العليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله مالم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب ، والهم اصحابنا ماداووا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . واقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في المقدور . فتسلطت النار على عمل اهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

وتحلحلت تلك الجبال وتحلل تركيبها . ولصــق بــالتراب تــرتيبها . وتنكس منها صليبها .وكانت ثلاثة ابراج شاهقة فلعبت في مــلاعبها النيران فاذا هي زاهقة .وتذقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز شياطينها برجمات شهبها عن الخــروج .وتســلط الحضــيض على يفاعها .وباد الدارعون فيها بادراعها .واضحك الله ثغر الثغر بمــا اطابه من ارج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهــج مــا اكرب قلوب المؤمنين من الوهج . وصان مهج أهــل التــوحيد بمــا أرداه لأهــل التثليث من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا من اسواره . والصــقوا منها جدرانا بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره . فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحــرق عمــل اهــل النار بناره . وكان اصحابنا عاينوا مــادهمهم وهمهــم . وخصــهم مــن الخطب وعمهم .نصبوا مجانيق بازاء الابراج . وصدعوها بها صدع الزجاج.ورموها منها بقدور النفــط فــاشتعلت رؤوســها وشــابت وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبــت . وارســل الله في تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قــد حصــت واسنمتها قد جبت .وسقط في ايديها ووجبــت جنوبهــا وكبــت على وجوهها في النار وكبت . فمــا افصــح الســنة النيران وقــد نادت بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من نقع غليلها واحبت . والحمد لله على الطافه التي ماغابت ولاغبت .

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحــوال التــي جــرت بحقهــا وحقيقتها . وحليتها وجليتها . فانه يشتمل كل فصل على تمــام مــا اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه الملك المظفر تقي الدين بتل كيسان . ولقيه بعده الملك الظافر خضر والمعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلالة . ثم تلقاه الملك الافضل ادنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلاقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك واللطف المتدارك . واعتنقا على ظهر . واتفقا على بشر ونشر . وكان الملك العادل تأخر فلحق . واظهر من ارج سجاياه ما بذشره عبق وبحبه علق . وسار مع السلطان باطلابه وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قباله العدو بصفوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرفت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وآنسه ببشر السماحة والسجاحة . ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين . وانشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . واوجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملأ تلك المروج بعساكره الملية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الأولى . بالأيد الأطول واليد الطولي . فالتقاه السلطان واخوه واولاده على قاعدة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه . لكنه لم يقصر في القاعدة عن رسمه . ونزل بخيمته في فناء السرادق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي. فكان ذلك المرج بحر امواجه الخيم والمضارب . أو سماء كواكبها ما اشرعته من صعادها الكتائب . أوغيل آساده في آجام القنا الفوارس . او غدير من السوابغ حبابه الترائك والقوانس. او سحاب بروقه الصوارم الرقاق . او وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود . وهو كوالده مسعود مودود. وفي شهامته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة . والمفاخر الاصيلة المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدائع المصنعة . وجيشه القوة ضابط . وجاشه على الحمية رابط . وبأسه ليد الايدباسط وجنانه على الكفر ساخط . وهو شاب اول ما بقل خطه . وابتهج بكماله رهطه ، وكان ابوه قد عزم على الوصول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم بانسه. ثم رأى المصلحة في الاقامة وتقديم ولد المشكور المشهور الشهامة. فانهض العسكر المجر معه ثم اتبعه بمن حشده وجمعه. فورد ورود السحاب الكنهور (٤٤) . وذور المطالع بسنى السنور (٤٥) واطلع بطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه . وحافظ من الكرامة على توفير سهمه . وانزله في سرادقه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وامر بانزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر . ولم يبق في اهل السلطان الامن اقتدى به في الاحتفال بقدوم هؤلاء .واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة في الولاء .والمسارعة الي الضيافة والاهداء .والاعانة الى المكارمة بعد الابداء .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله . ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجلس في طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حث همته العليا . وحض لحظ بينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه . وأوفى جنه . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطل بدرا . واصفر لمرتقبي صباح النصر فجرا . وجلا وجوه المؤمنين ببشاه بشرا . وملأ صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و المجد المؤثل . بجيش كالسحاب المسيل . فدوت اخلاف النصر بحقول ذلك الجحفل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل مقدام.وزأر خيس الجيش بكل ضرغام . وزأر بكل اهتمام بالمذون همام .ووصل بكل واصل لسبب النصر .قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد باليمن الوافي . والنجح الكافي . والعز الصافي . والعزم الشافي. وطلع بكل طالع بالسنى . جامع المنى . فارع بالغنى . فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا،وكان هذا اول يوم لقائه للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتودد الى الناس. والتشدد بالباس. والتواضع مع الكرم . وبذو الود مع علو الهمم .ماله مبذول .ونواله مأمول .وسيفه على الكفر مسلول .وامره بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول .وهو مرجو مخشي .وكريم منشي.ومهيب مرجو. ومحسن بسني الحمد مجلو.وكان معه خلق كثير .في سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير .وانزل بقرب اخيه مظفر الدين في الميسرة .وتمكن الرعب بما تم من الجمع في قلوب الكفرة .

- ٦٠٤١ -

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميره. والعدد الكثيرة. فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول. وتم بظهوره النصر المأمول. فركب السلطان في جحافله. وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله. واحدق به حول خنادقه. ليوسع عليه الهلاك في مضايقه. وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول. ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الوصول. فعمر الفرنج اسطولا، وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا. وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور. ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور. فجاءت مراكبنا. ونطحت مراكبهم وطحنتها. واوهت متنها وأوهنتها. واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا. وكان تقصير الرؤوساء في حفظه لأخذه سببا واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس. وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية. وكلاءة الله لنا ولأصحابنا وافية.

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني. وهناه من النجح السني. واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني. وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور. ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور. متوافرا بوفود الوفور. ودخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور. فاثر البلد بعد انفاضه. واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه. واستجد جنة وافيه. وعصمة واقيه. وذخيرة كافية. وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها. وابرزت مناكبها. وحمت بالرجال

والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها . وسحبت على شبح البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا الحلاقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظنت انها تستطيل على رواسي اساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور جواريها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب بما احاط بها من النواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر حين ذعر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها. ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم، وكانت الفرنج حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخسرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالأسد عريسه . في شوان العدو شوائن . وشلنديات لشله وفله ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة.وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر أمواجا في الأمواج . ودخلت الى الثغر افواجا بعد الأفواج . وكان العدو قد أبرز أبساطيله . وجهز أساطيله . وشب عواليه ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمي مناكب مراكبه . وجد في امهاء غروبه وتسنيم غواربه . ولما وصل الأسطول طال وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلابها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثري به الثغر بعد الانفاض، واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . ودخل اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق رياضا . والمراكب الاسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو أعراضا . وجاءت سواريها كالرواسي . وجواريها محكمة المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشد شد العراب . وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب في اعداء الله بين الأحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب . وماأحسنها وقد زفت عرائس . وجليت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الظلال . ولما شوهد الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من الاعداء بحقه . وأشرق سنا النجح في أفقه . ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى الأبطال بالأبطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال . وأحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق . وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات . وأدرك المشركين مافاتهم من الآفات .

-٦٠٤٤-

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثور . فقيل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمنعون بغربهم (٤٧) من تشريقهم . فاضطروا الى المقام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها . ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها . فترجلت منهم الوف . ورغمت أنوف ، وكان ذلك في البرد الشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فدفنوا وأحرقوا منها . وتركوها وسلوا عنها . وكان ذلك من الله لطفا . وأمست قوتهم ضعفا . وكانوا في خلق لايعد . وجمع لايحد ، فما أثر فيهم ذلك النصب . ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهم الوبال في أوجها أوجها . والافرنجية لاتنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتى بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسعود . ومسالكها دونهم غير مصدود ولامسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . ودخلوا قونية دار ملك المسعودية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على ماكان بينهما من المواثيق والايمان . وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا . واشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسير في بلده الى بلد ابن لاون . واعطاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصل الى المأمن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بمايرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواثيقه ، ووصل ليفون بن اصطفانه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . ودخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريحوا بها النفوس ، وقيل عن لكلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلاكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه :كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة .ودخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه . وايسوا من علاجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجناده . لمكان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . وراموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة . ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لاتلافي لما

فرط من تلفه وفوته. فارقهم الى بعض قــلاعه . واتصــل الضربهــم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقــول ويعــدد ويدهده ويهدد . ويري انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضــح . وان الخــطب فـظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهذكر فدخله غصبا واوسعه نهبــا . حتــى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراد.وانه اخذ من ماله ورجــاله مــا اختــار ، وتزود من عنده وامتــار ، ثــم وطــيء ارض ملك الروم وداســها . وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادهــا . واحــوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

وأخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومــن الثياب الطلس المعدنية مابلغ الالوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه . ومعروفي كبــرائه . وأخــذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعــدية . مــن مــراكبه سحبا . وأنه لما عبر وفرغ من الخــروج . تلقــاه بــالخيل والدواب والأبقار والأغنام تــركمان الأوج . ثــم وقــع بين التــركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قــطب الدين ولد قليج ارســلان . والتقــى الأقــران بالاقران . وهزمه ملك الالمان . ولما أشرف على قــونية خــرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعــت حيث ضــم على الروع روعهــا . وأنه هجــم على قــونية عنوة . ونال منهــا حظوة . وأقام خمسة أيام حتى اســتقرت بينه وبين قليج ارســلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة ، وأخذ منه رهــائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتــابه الى ابــن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الأنهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشــكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربــه وانقضى . وخلفــه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء ابيه . فلما عرف موته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفجف . من كل سرحان أهرت وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد الحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب . ولزموا المصاب. وداوموا الاكتئاب ، وهم صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتاعت الانجاد والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويثلم ثغور الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على رأي الثبات . وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين بهرا مشاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المسالك . ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القسور . ثم اليار وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الأفضل وقد عرض له ألم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد الم به سقم . ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت الغله . وخلت الاماكن وتمكنت الخله . ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة . ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ النوب في اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض اكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه . مستعقبا لألطاف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم فيهم الموت والوبا . وكثر عن نبواتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلهما الى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الأرمن واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت في خيلهم ، فاذن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتياث جوهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم في ثلاث نوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم . ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك . بعد ان ضاق به وبجمعه اليها المسلك . وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة فاخلاها له . ونقل اليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله الى انطاكية قلت جموعه وجنوده . وبليت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج رجالها عليهم على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين ، وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاؤوا اليها سحرا بأحمالهم واموالهم السنية . فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قـاطفه . فخـرج اليهـا وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلى عنها اصحابها لما عرفـوا الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من مال القـوم . ثـم انكر حتـى لا يطـالب بشيء منه . وغفلت الايام عنه . وذكر الامير علم الدين سـليمان بـن جندر في كتـابه . انه انهض جماعة من اصـحاب أمـراء حلب واصـحابه . ليقتفـوا آثارهـم . ويكشـفوا اخبـارهـم فـوقعوا على خلق عظيم منهـم فخالطوهـم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضـاض البـزاة على الحجل . وزأروا فيهـم زئير الأسـد في النقـاد . وزاروهـم بالأجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثـلاثة واربعـه . وتـركوهم متمـزقة متمـزعه . وعادوا بـالأسارى الى حلب وبـاعوهـم في الأسواق . وامتـلأت بـالاسلاب منهـم والاعلاق . فـطابت قلوب الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم اهل القرى . والتقطوهـم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهـم الابـرنس الى انطـاكية . واراح مـن الامهـا الالمانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صـبا اذا اخـذوا صـوبا . وهلك بـانطاكية الكند الكبير مقـدم العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابـرنس بتلك الأموال المجتمعه . والذخائر المودعه . حتى قيل انه انما رغب في الوصـول الى بلده . ليحصـل على سـبده ولبـده . فأخلى له قلعته . لينقل اليها خـزانته . ففعـل ومـارجع اليهـا . واحتوت يد الابرنس عليهـا . ثـم سـاروا على طـريق الساحل . بـالفارس والراجـل ، وخـرجت عليهـم خيل جبلة واللاذقية . وسـقتهم كؤوس المنية ، والقتهـم على البـوس والبليه . فأغذوا في السير حتى وصـلوا الى طـرابلس وقـد نقص نصفهم . وتم بعواصف البـلاء نسـفهم . وبلغ امـدهـم وانتهـى مددهـم . وجبن الملك عن المسير على الطـريق . لما لقيت جمـوعه في طرقاتها من التفـريق . فركب البحر في عدد يسـير لا يزيد على الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفـرنج على عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعـد قليل . ولم يحـظ

بدقع غليل ، وسألم بذكر حالاته في مواضعها . وذكر مصارف جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمة الغماء . والذكبة النكباء . والشدة الدهماء والليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشودها . وقواصها وكنودها . واحزاب الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبنودها . وصل جارا على السماء نيول قتامه . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره . سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره . وانه في عصائب صلبان في عصيبتها متصلبه . واتباع شياطين لارضائها متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبة . وانه في مئين من الآلاف الآلاف المذون . واقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون . وقدا وقدوا للشر شرارا . وأضرموا للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهم على قمامتهم دائمة . وقيامتهم قائمة . والموت يدعوهم الى المقبرة التي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمناياهم التي يدعونها . وكان خبر وصوله متداولا على السنة الاراجيف . وتشيعه اعداء الله من قبل للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبر صحيح . ويقين نبأ بأمر صريح . حتى اذا صح الخبر . سار العسكر ، ثم انقطعت الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان وايار . وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان واولاده ورسلهم متواصلة بما ينبيء عن التعاضد . ويبني امر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد ، وهم بانهاء ما يصح عندهم واعدون . ويزعمون انهم في رد الواردين وردائهم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا:انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخلوا لهم الطريق ووادعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في آمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجىء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه، واقدرنا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولايدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالماني المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلا وجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله في النجح بموعود توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اولياءه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام . وليثب وثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتخاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية النفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرقة الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد آن للاسلام ان يسلم . وللايمان ان يعدم . وللتثليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللكفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبده . والبر أتي آتيه من كل بلد الكفر بسبده ولبده . ووصل الالماني المخذول بعدده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشر قد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وفد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبنود منشورة . وخيول مجفجفه . وسيول مجحفه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مفترون بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستندون في طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه الغمة . وكشف هذه الملمة حتى تخلف اماني الالماني . وتبطش ايمان الايماني . وتخذل انصار النصراني . وتجني وتبر رؤوس الجذوي والبيزاني . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين المهتدون في نهج الرشادالمتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض . لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولابد من لقائه قبل تلافق الجمعين ، واراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثأر الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نقعه . ومافض الفضاء ختام قتامه . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالماني مخفف بالمامه . والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه . واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلية

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملأ احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشـام . فنحـن ننتهـز الفرصة . ونحرز الحصة . ونهتبل الفـره . ونهجـم عليهـم هـذه الكره . ونذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القـادم . ونمت بعز العزائم وذفل حدودهم بحدود الصوارم . فخـرجوا ظهـر يوم الاربعاء العشرين مـن جمـادى الاخـرة . في حشر يذكر بحشر الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجـام لنا متوافية باسادهم . وامتـدوا الى الخيم العـادلية ، واشـتدوا بمـا استصحبوه من البلية . في كل ذئب امعـط . وسـيد قـد تـورط . وسرحان سرح . وافعوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجـم ، وجحيمـي أقدم وما احجم ، وسعيري ناري اسـتعار خـدمة النار . وسـقري قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبـوار . واسـبتاري راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء . وسرجندي كرار . وفريري غير فرار . وفـارس يفـرس الرجـال . وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشى يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقـع اذا غوى في الوغى ماترك ولاابقى . ودخلوا الخيم العـادلية وتجـاوزوها . وقـد كانت اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العـادل بـطلبه . وعن يمينه ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري . وجماعة مـن المعـروفين بـالشهامة . والموصوفين بالصرامة . ولبث الملك العادل لبث المخـادع المخـاتل . حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشـار . وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبـر شمس الدين مودود . وهو في كل وقعـة يحضرهـا جـاد مجـدود . فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر قبل ان تتصل به العسـاكر . فـكسر الفـرنج كسرة فـرشهم على الارض وذكرت الواقعة العارضة بـوقوعهم في النار يوم العـرض . وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفـت اخ الى اخ . وركبت العـــادلية اكتـــافهم . وفلوا فيهـــم اســـيافهم . وعقروهم وعرقوهم وبجـوهم وبعجـوهم . وحـكموا في الرقـاب الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعنقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

التوت من لحوم الليوث . وبثوا بعوث المنية في تلك البعـوث . حتـى رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم . وارعد وابرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل . ووصلت بهم الى النجاح منى المناصل . فلم تترك اللهاذم لها ذماء . وغادرها شـلها بالعراء اشلاء . ورأيناها كانها اعجاز نخـل خـاوية . ومـا احسن اجسام اهل الهاوية وهي هاوية . فكم جثـة بـلا رأس . وبنية بـلا اساس . ونحر قد نحر . ودم قد انهر . ويد قد بتت . وكبد قد فتت . وعذق قد قطع . وانف قد جدع وودج وجد مفريا . وظهـر قـد ظهـر مبريا وحلقوم قد حلق . وغلصوم قد فرق . وداوي قد دوي . وبالدم روي . وصليبي كسر صلبه . وقلب على صدره قلبه . وحربي أتـاه الحرب . وغرب في ذبع عينه الذبع والغرب . وكان السلطان قـد ركب وخشي أن جانب الميمنة نكب . وسير جمـاعة مـن كمـاة المماليك والامراء على مقدمته . وانتظر الميسرة لتنهض في خـدمته . فـوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزية . وفـاز مـن الفـزوة بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابـن صـاحب الموصـل في اثناء المعركة . فعرف بركة سرعة تلك الحركة . لانه اخذ حظا وافرا ولقي من النصرة وجها سافرا . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجـال الميسرة احد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد . ووصـل السـلطان وشاهد من مساءه الفرنج ماسره. وعرف لطف الله وبـره ونصره . وعاين هنالك مصارع الاعداء . ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين في مـــــــــدى فـــــــــــرسخ

على الارض . وهم في تسعة صفوف مـن تـلال الرمـل الى البحـر بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل . وشاع القتل من الافرنج في كل قبيل . ولما وصل السلطان رأى عمـاد الدين وابـن زين الدين وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهـم . والهجـوم عليهـم . فانهم ندموا على ترك الاسراع . فراموا اتباعهم ليأخـذوا بنصـيب الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهـم . وشـكر عزمهـم وقصدهـم . وأشفق من مضرة تشوب . ومعرة تذوب . فـان الدائرة كانت على العدو . وقد فاز بالنصر الحلو . والصفو المرجـو .وكانت

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبه . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ماهناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ما سلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقئت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونفكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولاانتظر . ولاترقبني ان احضر . ولاامهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا باذوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع . ولاتم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها . ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد . وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون مااكتبه . ولاترغبون فيما ارتبه واهذبه . فقال كانك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدى الى طرقاتها . فقلت مافات فات . وهيهات هيهات . واخرجت له مابقي من بشارات البلاد التي أنشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جداها بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المنابر . وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر . وبهرت بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مباهجها مناهج الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وما اسحها نصره . ومابينها محجه . وما اثبتها حجه . ومافرجها مسرة . ومااسرها فرجه . وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفارقة عدة كثيرة من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقاطرين . وانتشروا متغاورين . واغاروا الواء اللاواء ناشرين . ووصلوا في الميمنة الى الخيم العادلية فاخليت حتى دخلوها . وتفرقوا فيها بجموعهم وتخللوها فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعراء . فوضى بالفضاء . فما بكت عليهم الارض ولا السماء . ورويت السيوف من دمائهم . قبل ان تشبع الوحوش من اشلائهم . وظهرت لنا نعمة الله في بلائهم وحبي الاسلام بهلاكهم . وضمتهم اشراك الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثر من عشرة الاف قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظاهر . ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرهم . لكنا فرغنا من شغلهم واخلينا بالنا بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم . وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجو من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خطبهم الخطير . وان ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هذه الوقعة بهم حقق عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . واشتغلوا باستباحة احوالها المصونة . فاطلقنا عليهم الاعنة . وشرعنا الى نحورهم الاسنة . وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على الارض . وابدينا باردائهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكأنهم جاؤوا على موعد مهلك . وارويننا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا اشلاءهم قرى الوحوش لاالضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من المخوف . وادرك الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم . وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم من حواليهم . ورضتهم بالدبابيس واللتوت . وتركتهم صرعي بتلك المروت . وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء . واكتسى عري العراء بتلك الاشلاء . وافضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعت ثعالب الرماح من كلاء كلاهم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتن جيوفهم ريح النصر . وحنت من سماجة مرآهم وجوه الدهر . والآن ألان الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبت نكباء نكبتهم . ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها الزواخر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفه صدتهم عن الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بواتر البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على اولهم وآخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الوقعة • وثم الناهضين الينا الرجعه • رأيت احد مماليكي ونصله قد خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسألته كم قتل • والى اين وصل فقال:اما انا فما أبقيت . وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم نجعة . وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة • وحكي من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر فجثا الصرعه • فعثر به راكب برذون • بغير رفيق ولاعون • فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده . فنزل بجده مستنا في جدده . وقتل ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي . وحل من وسطه ثمانين دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا.وامتلأت الأيدي بالأسلاب والاكساب . وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب . وبيعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك النقص .

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجح كل مرام . وبخبر بان عسكرا مجرا من الكفار خرج للغارة على الاطراف والاقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع الذور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . النظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهي قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، وذفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخلف ، حتى وصل في البحر .كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالاموال . وحلى منهم بعد عطلها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان نبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمدهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تتميمه . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكرنا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشرة . وشاع هـذا الخبـر على السـنة الجـوا سيس والمستأمنين . فـاحضر السـلطان أمراءه وخـواصه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقـدمة مـن الصـواب . ويفتحـه في المصالح الراجحة من الابواب . فاشاروا بايساع الحلقة . وادارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتـى يؤنس الى الخروج لحربه . فـوافقهم السـلطان على هـذا الرأي وحسـن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . واشتغل بالتدبير في الفوز بـالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحـوالي سـفوحها . واحتـوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتـب اليزك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالنوبة في يومين . وضويق باهل الصـدق منهـم اهـل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليزك اوقات نوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فـالكتب متـرددة اليهـا ومنهـا السباح . والحمام اليهـا ومنهـا تحمـل البـطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخـرج ، واليهـا وعنهـا تعـوج وتعرج . واخبـار ملك الالمان متـواصله . بـأن انصـاره له خاذلة . وانه ضعف ووهى . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعـوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المسـير . واعتـاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبـل ان يصل الى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالادفاق في رجال الاستجناد والاستنجاد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصـحابنا يأسرونهـم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمـع قـطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسـلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مسـتمر على المودة راغب في المحبـة . ويعتذر عن عبور الالماني . وانه قد فجع في طـريقه بـالاماني . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقه . مـا أضعفه وأوهـاه . وألهبه وألهاه . وانه لايصـل الى بـلادكم فينتفـع بنفسه أو ينفـع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجـع . ويمـت بمـابه كاده . وانه بلغ في اذاه اجتهـاده . ويطلب رسـولا . يدرك بـه مـن

السلطان سولا. فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة انفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكنود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجيق . من الرمي غير مفيق . رجومه الشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين . وميادين ثعابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صقعهم صقعها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل ذلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياع . وخرجوا بالفارس والراجل . وأموا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها . خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فاحترق جميعها . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعروفين فيهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالأموال . ولم يعرفوا بالحال . فأخرجوه اليهم قتيلا . فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه نوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخمدوا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس . وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم . والستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تثلم .

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فأبت بالحالة الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم بانكاء مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار . وانفق على أحدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت . وأن الأفكار باستدعائها عنيت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالغلات . فرأى ان ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعل له اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في كل مابه عز الدين السآمة . ويعطي ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها . وتولاها بخلاق سمح . وملأها بأربعمائة غرارة قمح . ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام . وهذه بطسة من الفرنج مأخونة . وهي بساحل بيروت منبونة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البغية منها وتكتيمها . وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومائت بالشحوم واللحوم . وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا ان تشتبه ببطس العدو في البحر . وأن لاينكشف للفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا . وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم . وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . والقوم

لجهلهم لايشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث . وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حاذوا بها عكا صوبوها نحوها والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها . وقد عقت رفقتها . وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزأ البلد بها شهرا . ووجد منها لكل كسر جبرا . يالها من لطيفة قضينا منها الأرب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملأوها بالغلات واصناف الأقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها عند موافقة الريح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنتة بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لايبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت . ولاشك ان كتاب اجلنا الى هذا الأمد موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . والمت القلوب وألمت الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولايخيب من رجاه . ولايضيع من استرعاه،فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة ثلث بطس كأنهن الاعلام واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواريها الحسان وخفت رواسي سواريها الثقال . وذكرت بقوله تعالى:(وهي تجري بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والريح تطردها طرد النعام . والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم اضل من الانعام . فما

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشـوانيها . واحـاطت بهـا تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهـي تشـق عليهـا وتشـقها . وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منهـا البـر الإيمـان الأيمـان . وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبـالها الرعان.وعبـرت والكفـر خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثـر . ووصـلت الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها غمة الثغر . ودفع ماألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التى أدركت الأرمـاق . وأدرت الأرزاق . وتـلافت الأرواح مـن التلف . وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان لايبقى لنا شيء نفقاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فـواته . فبينا نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هـذا الهـم متذكرون . اذ ظهـرت العيون بالقرة . والقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنهـا جبال باقبالها تروع ونسور اجنحتها القلوع . وشـعر الفـرنج بهـا فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقـاربها وقـربت مـن البطس شوانيها . وقويت في البطش أمانيها.وحمى مافيها من فيهـا من الرجال . وهي تجري بهم في مـوج كالجبـال . وكأن جـواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثـوب بتلك الأعلام المنشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصـدقات الى ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شـانيء . وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كاليء . وجازت والكفر خزيان ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصـولها أوان انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغـلاتها . وأزوادهـا . وعصمت أرماقها . ونسمت امراقها . وقسمت ارزاقها . واشـبعت

جوعها . وشـبعت صـدوعها،وأنالت آرابهـا . وأزالت اجـدابها . وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق . وسكنت بعد القلق .
وعاد اليها بعد الفسـق اسـفار الفلق . والحمـد لله المغني بعـد الاعدام . المدني السني بعد الاظلام . المذفى باوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والنفقات الى عكا ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار ضـمينا . يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معـه الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتـورته اسـباب المتـالف والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بمـا في طـريقه من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الفـا دينار ومعـه مـن نفقات الاجناد ودائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمع له خبر . ولم يظهر له اثر . فظنت بـه الظنون . ومـاتيقنت المنون . وكانت له لا شك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهـي مجملة محتمله . فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . واذهـب حـق اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب مـن حـاله الناس . فلم يذهب بذهابه الذهب الذي صـحبه . وطهـره الله مـن الرجس وعنه اذهب .

ذكر وصـول ولد ملك الالمان الذي قـام مقـام ابيه الى الفرنج بعكا

ذكرنا حديث الالماني وملم حادثه ، ومـااداه اليه مـن دواعي كفـره وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خـامس عشـري

رجب .ولقـــي في طـــريقه على اللاذقية الشـــجى والشـــجن والشجب .واذن ضعف خيلهم .بضعف ويلهم .ووجدت لهـم مـابين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت.وعلى اعواد عظـامها سواد الغرابيب خـــطبت .وقـــد اســـتقبله المركيس .وقصـــده التأنيس .وان يهديه بضـــلاله الى الطـــريق التــــي تــــؤمن طوارقها .ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقها .فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان .ووصل خبـر وصـولهم في سادسه الى السلطان .وحزرهم من شـاهدهم في الطـريق بخمسـة عشر الفا .وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفـا .ثـم انتقـل في البحر .الى عكا في موضع الحصر .ووصل اخر النهار سادس شـهر رمضان .بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان .فلم يبق له وقع .ولم يحصل لخرق القوم به رقع .واقام بين جنودهم .كأحـد كنودهم .وقال الفرنج: ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا .فانه لو اقام في موضعه .وامدنا بفيضه من منبعه .لهيبـت عظمتـه .وعظمـت هيبته .وارعب روعه وراع رعبه ورجـي منا وخشي مـن المسـلمين قربه .وقد قطع بنا منذ وصل .وحص لنا جناح نجاح حصل .ووصل في البحر وحـــده .ولم يســـتصحب جنده .ثـــم وصـــل اليه الاصحاب .وتقطعت بهـم الاسـباب .ثـم رام ان يظهـــر لمجيئه وقعا .ويبدي له دفعا .ويثير لدفع غلة ثاره نقعا .فقـال:الام القعـود عن القوم .ومابقي الا النهوض اليهم مـن اليوم .ولا بـد مـن ضرب المصاف معهم .واني على الخروج اليهـم لادفعهـم .فقـالوا له انت ماارثت وهج قتالهم .ولا اثـــرت نهـــج نصـــالهم .ولا حــــربت بحربهم .ولا كربت بكربهم .ولو حزبت بحزبهم .لاصـحب جمـاحك لجماح صحبهم .فأبى ونبا .وشب الشبا .فلما عرفـوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سـهله . قـالوا له:نبتـدىء بـالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجـل كرجل الدبى . وخيل اغصت الوهـاد والربـا . ومـرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشـعلوا الخـرصان في ليل النقـع عوض السرج . وقربوا مـن تـل العياضـية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها الحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلمـا

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الجدور . وا وردت ظماء الظبى منهم ماء التامور . وانبعث بالنبع من عيونهم العيون . وا ستخرجت بالضرب من اعناقهم الديون . وطيرت بإطارة السهام الى الاحداق بهم الاحداق . وخاطت الاماق وماالخطأت الارماق . وصار كل سهم شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان . فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتر . ونيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفره . فاعرضت بالوجوه المتنكرة . وابنا بالانوار المسفره . ومر الالماني متألما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكلوم قلبه متكلما . وقد عاين ماعاناه من العناء . وشق عليه ما شق مرائره من الشقاء . وبلي مما بلي به من البلاء . وعلم ماجهله . وا ستصعب ماا ستهله . وذاق ماضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتلى رصعه لو تم صرعه . لكنه تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه .وتاب وماثاب .وابى الرجوع الى اللقاء لما آب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره . واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة الميناء عظيم الشان . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام والات ابرزوها . ومكر مكروه ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته وريب رأي رفعوا راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارهفوا غراره . وعنان عناد اطلقوه ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها وعقله معالقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على .رأس

صاريه . لايطاوله طود ولايباريه . وقد حشي حشاه بالنفط والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته .أعدى اليه بآفاته . ورميت فيه النار فاحترق . واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولي النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب يسري فيها النفط ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن التي لنا بالمينا و ردوها . فتعدي عدوانها . وتنير وتسدي فيها نيرانها وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللشر مستمدون .حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس ماقدروه واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا . فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج الصاري وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعادت على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشبع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قداح الرأي في مكر مكرهم . وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . منفرد عن البلد في وسط البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلطنا على مراكبهم التي في المينا . واذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيرا فلأي سبب جينا . ومن حديث هذا البرح انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقـد رفعناه واعليناه . وبـالعدد والرجـال قـويناه . وبـالجرخية والرمـاة والزراقين والمنجنيقية مـلأناه وبـكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولاحولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوهـا بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السـلم شراريفـه . وصـعد الرجال اليه في تجاويفه . وتعبـوا في ذلك أيامـا وشبعوا أتـوثيقا واحكاما . وهو بمـرأى مـن الاصـحاب ينظـرونه ويبصرونه . ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بتلك البطسة زاحفين . وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط . وتوالت امـطار البـلايا مـن الجـروخ والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول النزال . والحمد لله الذي ايات ظهـور دينه متناصرة . ودلائل نصر اوليائه متظاهره . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبـان وسـلطوا على جـوانبه جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق سـتائر البـرج المنصـور . ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحـذار الفـرار وكانت الستائر تشتعل والخـواطر تشـتغل . والحـال تضـطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب من مهـب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحـروس . واكبـت الفـرنج على الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم.

- ٦٠٧١ -

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا ورغموا . واخلف ماعزموا وزعموا واشتغلوا بملء بطس لهم شحوما واحطابا وادهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهبوها . وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها .واندوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق. فانزل الله الفرج وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتده . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة العادة خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بطس اولئك الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطردة الانابيب مستهلة الشآبيب

ذكر الكبش وحريقه
بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للغوائل غائلة . في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظلين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فكم سور اذا نطحته طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهذه الدبابة في هياة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها باعمدة الحديد . وكملوا لها اسباب الاحكام الشديد . ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم يبق للنار اليها سبيل . ولاللعطب عليها دليل . وشحنوها بكماة المصاع . وحماة القراع . ورماة الحدق وكساة الحلق . وعفاة الحتف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من كل سرحان لاينظر الا من جلد أرقم . وكل شيطان لايقتحم من الحرب الا جهنم . وكل شجاع لايعتقل الا شجاعا . ولايرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولاانتجاعا . فلما استدفت لهم هذه الدبابه وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطافت بذلك الكبش تلك التيوس النبابه . وامذوا عليها الحريق وامروا بها الطريق . سووا بين يديها الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها وقربوا بها اعينا بل انفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعج مرآها . وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هيأتها . وعدة تروع هيبتها . وبلي البلد من ندوها بالبلاء الداني . وتغاشت وتعاشت دونها نفس الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هذه مافي دفع خطرها حيلة . ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيم الامل . ومن للكبش العظيم وقطع رأسه. ومن لبناء الحديد ونقض أساسه . فإن كانت هذه الدبابة دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من حواليها . وطردت المطرفين بين يديها . ثم رموها للحزم بحزم الحطب حتى طموا مابين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فترنم في أثنائها عجاج اللهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نار ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبينات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فاطفأوا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن . ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمدوا الجمر . احمدوا الامر . ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها . حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق . فانهد ذلك النيق . وصوح ذلك الروض الانيق . ووهن ذلك التركيب الوثيق . ونفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبابة . وخرج من بالثغر المحروس. باشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب اثلج صدره وبرد يقينه حره واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقل في الة لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد أصحابنا على عدوهم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم يذشد وهو يذشيء ويذشد جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن الشقاء ادركهم.والشقاق أهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وان ترتيبهم مدمر . وأن آلاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) (الصافات : ١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه الاجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر . وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك . وقد استصحب غلمانه الاكاديش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم رونق . وصفاء لم يشبه رنق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى إقدام المتهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا . واضطرموا واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام . ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروخ . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم المجانيق بالاحجار . وآذنت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بحد الاقدام . وافضى الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ القت الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب.وفيها امراة محتشمة . غنية محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه المرجو .وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل الذفع وعم .وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج .هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضح الحق وتحقق. فاحضر السلطان الامراء الاكارم. ورجال الحقائق الضراغم . الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه .وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفائن ضمائرهم .واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم احداق العساكر وانما لايقدرون على القصد دفعة واحدة . الا اذا كانت أيديهم . متساعدة وآراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم واسرناهم . وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم .وأجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه . فخيمنا هناك على أحسن تعبيه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و حللنا التلاع والآكام . وركزنا بتلك الأعلام اعلام . ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين . ولأسباب التوقي من الامطار مستجدين.

وأضحينا على تلك الاطواد موطنين . وعند تلك الاوتاد موتدين . وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة ، وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . واحبت الرجال التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق . وأنارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لمراعفها . وذوب اليزك بحالها تدور وتروده وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب . والزحف يتعاقب ، والاقران تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون . والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم . والرقاق بصليلها لشوق الجماجم تجمجم . والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل . ولاكارم الا للكلام . ولا سلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرح وألجم . وتقدم وأقدم . وأصم وصمم . واضر وأضرم . ولاتله حتى تلهب . ولاتعج حتى تعجب . واقطع وصل . واكتل بصاع المصاع وكل . ولاتقلق والق وقلقل ، ولكل داع إجابة . ولكل ساع اصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل شهم في المرام سوق . ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماء قدعه ، ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل عضب عض ، ولكل ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصب في التشجيع ، ومن له جراءة الهيجاء هاج الى الصريخ بالجد السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح في دياجير القتام متبلجة ، ولله نعمة في كل بلية ، وسر في كل قضية .

-٦٠٧٦-

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وماجرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف ينالتكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ماطلب غاية في الكرم الا ادرك ، وماكان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته للسرور ، فلقد كان جارا للكتائب ، بارا بالأباعد و الاقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قارا على قلق النوائب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طرير الشبا ، وحبه لعقد السويد معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على مايحبه ، وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ماأزهى ازهاره ، وماأنضر نضارة ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاتراب الى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وآذن الزمان بعد الأجداء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وماظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه معزين على ظن أنه جالس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع مايحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصوا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها و سميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الاسباب والامور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الاحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجـزيرة معـز الدين سنجر شاه وذهـب مغـاضبا ، وكان السـلطان له في الانفصـال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له ماستحسنه في تـرك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سـنجر شـاه دخـل يوم العيد بكرة الهناء ، فاستأذنه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه اصحابه . ولج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمـع بـه تقـي الدين رده ، وبذل في صيانه منزلته عند السلطان جهده ، وطـال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سـؤاله فـكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ماا ستفادا .

فلما قرأ هذا البيت مارا وح في الخطاب ولاغادى ، وغلت الاسعار عند الفرنج واسـتعرت الغلل ، وأعلهـم مـاعراهم وعرتهـم العلل ، وباؤوا بـالوباء ، وبلوا مـن البـلاء ، وغلوا مـن الغلاء ، وتضوروا مـن الضراء ، وشـق مـرائرهم اسـتمرار الشقاء ، وعمت المجـاعة الجمـاعة ، وعدمـوا الطـاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجـوعهم وقصرت عن القـرار بوعهم ، وامحلت ربـوعهم ، واسـتحال رتـوعهم ، وبعثهـم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم اقـاموا على الموت ، واستناموا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهـرب الينا منهم عصبة بعد عصبة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهـم الضر العـادي ، فمـن سـألناه عن مقتضى فـراره ، ومقضى قراره ، يخبر انه طواه، الطوى ، فنواه النوى حين التـوى ، مـن حذر التوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السـلامة الولد والاهل ، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم في اسـتعار ، فمـا جـاء الا كل ضـعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسـكة لاعتـلاق رمقـه مـن الاعتلال ، فقبلناهـم وانفقنا فيهـم وألفناهـم بمـا يكف ضررهـم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ماا قووا ، فمنهم من أسـلم

وخدم ، ومنهم من ند وتندم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، واشرقهم جرعهم ، وعرقهم قرعهم ، واخلفهم خلف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ، ونلي ونقلق .ونفل ونفلق .ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز.ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق.ونخرج ونحرج.ونلج ونلجج ونضري ونضرب.ونفلي ونفلب ، ونجن ونجني ، ونتيف وذفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونتصدى ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر .فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد ، وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال ، وأخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها ، وكان اليزك في تل العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ماتركت الاتراك ، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الأمن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحى

تلبيه ، وقد امتــزجت زجـــرات الجـــاووش ، بنعـــرات الجيوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهــر بقــرب البحر وصفوفها مشتدة مســتدة ، والســلطان في القلب كالقمــر في الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند الخروبة ، على المهاب الحـالية والحـالة المحبــوبة ، ومقــدموا ميمنته ، عظماء دولتــه ، صــاحب دمشـــق ولده المبجـــل ، الملك الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصــاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي حسام الدين بن لاجين : قـايماز النجمـي صـارم الدين ، والأمير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لايرجو منازلته الا من فيه بــان الباس ، ثم بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طــالما بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرهـــا ، وعظمـــاء الميسرة ومقــدموها ، وأمـــراؤها ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معــز الدين ســنجر شــاه صـــاحب الجـــزيرة ، والملك المظفـــر تقــي الدين ذو الســـطوة المبيدة المبيرة ، وســـيف الدين علي المشـــطوب ، الذي نشـــب بناره الحـــروب ، ونصـــب على العدا منه الكروب ، والهـــكارية والمهــرانية ، والحميدية والزرزارية ، وأمــراء القبــائل مـــن الأكراد ، أقتال القتال وأجادل الجلاد ، ورجال الحلقــة المنصــورة واقفون في القلب ، لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب ، من كل فارس فراس ، وهــرماس رمــاس ، وضــيغم ضــاغم ، وضرغام غارم ، وليث فضفاض ، ملوث بفضفاض ، وقسور قاسر ، وهزبر زابر زائر ، واسد في غاب الاســل ، وقـــارع في القـــراع بـــاب الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الاقران ، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارىء (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وامــوالهم) (التـــوبة ١١١) ثقـــة بـــوعد القرآن ، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر الجنان ، وســابق الى حلبـــة الشـــهادة ، وســـامق على ذروة السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العـــدا

عن الهدى بعاسل ، وسار الفرنج شرقي النهر لنا مواجهين ، وللكريهة غير كارهين ، حتى وصلوا الى رأس النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فانقلبوا الى غربية ونزلوا على التل بينه وبين البحر ، والجاليشية الرماة منا حولهم جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سائلة ، وجرح في ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث، ومانبا عن كثير منهم ناب النائب الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل مطيف محدق بهم كالاسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا أن يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون ، ساكنون ساكتون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ، ويغضبون فيحملون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم . وتفريج الغمة بنزع جمتهم . واحس العدو بالضعف . وانه متورط في الحتف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض . ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقن ان صح منه الثبات بانكساره . وعسكرنا يصافحهم بالصفاح . ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام . ويلهبهم بحدمات الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب . ويخيض في دأماء الدماء منهم سوابح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم ماء الفرند . ويغيظ بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند . وادبروا مولين . وارخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهم ويقلعهم . وهم مجتمعون في مسيرهم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون في سكون . ويتظاهرون في كمون . ويتطلعون في غروب . ويتقالون بغروب . ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمود . وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم . ولا

يصح للينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وابلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما هماما . واسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروع اذا ابدى له ناجذيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا . وبنار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصفين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما راموه بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوج أبلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم. فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره . وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكند هرى ، وأقام ملك الالمان على عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادي عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد . وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم . والأسد سائرة بالأسل في عرينهم . والحمية مشتعلة في عيونهم وعرانينهم .ونزلوا رأس العين . وتطرق بها اليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين .ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيران النصال والمناصل لهم محرقه . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف . والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المذون من الأهداف . وما دارت بهم الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصوب وتطيل وتطول . وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما ابصر الفرنج ما حل بهم من العذاب . عدوا الغنيمة في الاياب. وشرعوا في طريق الذهاب . فعادوا من غربي النهر راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهم خلق،وسرى في حجب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين . ورحلوا سحرا خاسئين خائبين . وخيولهم الناجية مجرحه . وقلوبهم الراجفة مقرحه . واشلاؤهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه . وعرفوا ان حركتهم للهلكه .وان هلكتهم في الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل . وهم يدعون بالثبور والويل . ومع كثرتهم قلوا عناءا . وضلوا رجاءا وذلوا بلاءا . واعتلوا جدبا وغلاءا . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين من مراميهم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصحابنا وراءهم يطلبون اردائهم . متعطشين الى دمائهم . يرمون ارواءهم ، وثبوا على جيادهم ، وثاروا لمراد مرادهم ، ولاقوا اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبعهم ، فاندفع الاصحاب حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحذوا واجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيره متسعير . وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال،ولولا ما ذفق من التياث مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حزب الشيطان! ولله في كل قضية سر . وفي كل ليلة بر .

-٦٠٨٣-

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بـلألاء آلائه . ومـن آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجره الرابحة . انه رأى أن يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمـع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شـوال منتخبـي رجـاله . ومنتجبـي ابطاله وخواص أتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلاد جلادته . وفي اقاء العدا عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بـأن يكمنوا على سـاحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضـوا وكمنوا ليلة السـبت متنبهي الهمة . متيقظي العزيمة .وخرجت منهـم عدة يسـيرة بعـد الصباح . منادية بحي على الفلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما . واسرعوهم ضراما . فـطمع الفرنج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها . وبتت علائقهـا . وحثـت سـوابقها . واخاضت بحر الحرب سوابحها . وقد افاضت سـوابغها وشـامت صفائحها . وتجردت عن رجـالتها . وتفـردت بضـلالتها . وحملت بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطارد اصحابنا امـامها . وانهزموا قدامها . حتى وقفـوها على الكمين . واوقعـوها في الهلك المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها فرار . ولم يطـق مـن غرتـه ان يمضي غرارا . وكانت في مـائتي قنطاري ، من كل مقدم بـاروني وبـطل داوى واسـبتاري . فقتـل معظمهم . ووقـع في الأسر خـازن الملك وعدة مـن الافـرنسيسية ومقدمهم ، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقـطع بهـم سـببهم . وماوصلهم اربهم . وجاء الخبر الينا . فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هنالك الاحسـان . وجـاءه مماليكه يقـودون اولئك الاعزة بخـزائم الذل . ويجـودون بمـا استخلصوه من ذلك القل ، ويقدمون المقدمين من سراة الاسـاري . وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى ومـا هـم بسـكارى)

(الحج ٢) فقد رضتهم اللتوت وقضقضتهم الليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدهون . وسيوف ذكور تتولد منها المنون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفدينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحبير الحبور لابسا . وقد جمع اولئك الأسراء . وما اسعد الله إلا في تلك الساعة اولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما آنسوا فاكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت نوبة اليزك لأخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فانفذنا اليه من مماليكينا سرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الأنفس بصنعها وقرت . ولما اصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين والمنايا الى ناديهم منادين.فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم. وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقومون فيهم رجاءهم . حتى ابعدوهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد . وفلقوا البيض بالبيض . وفلدوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء . وعروهم بالعراء ولتوهم بالتوت . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة من مقدميهم . ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله ذوبة بغير ذبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعة اننت بل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمد لله الذي تزكو انعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في الذوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم . لكنا ماقدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر مايكون من العسكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصة الصحة . ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمد لله على المهلة في السنتين . فأقمنا مع السقام ، وسقمنا في المقام ، وصبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومامنا الا من التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الالثاث . والحمد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق . بشمول الشتاء العنيف . وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المصيف . واشتعلت

رؤوس الجبال شيبا الثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج . والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل النيل وجرى . وطمر المطر هوادي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط للجهاد . وجمد الخمر . وخمد الجمر . وارتعدت الفرائص . وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء يعدو ويعدي . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا . وا شتغل الملوك بملازمة المشاتي . ومنادمة المواتي . ومناقلة المناقل . ومعالقة العقائل . ومعاقرة العقار . ومسامرة السمار ، ومداناة الدنان . واجتناء الجنان . ومناغاة الغواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف . وملامسة الطائف واللطاف . فلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي . وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكترث بكارثه . ولم يحدث امرا لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره . وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما طهر بدم انجاس اعدائه ارضه . وا ستمر على بذل جهده في الجهاد . ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد . وقال انما أربأ بهذا الأرب . وأري راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله عنف الثلج . وما يبرد قلبي مع تقلب الحر والبرد الا برد النصر والفلح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها . والفرنج قد امنت غائلتها . وتكفى في مداومة قتالها في نوبها مقاتلتها . فاذن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في الربيع . والرجوع الى مراد الروع المريع . وليأخذوا اسباب الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال المحققين في نصرة الحق للرجاء من اهل الغنى والغناء والمضارب والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد.وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه ووروده . ولقد تمت بأيامن ايامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات . ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أردنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكنا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الأصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاءه . وسر بفضائله اولياءه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والنفوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلامة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس بعودته متسهنة . والألسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه االزاهرة متفوهه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهة ولا شك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربيحه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجحه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوف نصيب . فقد أمسى مقتل الكفر بكل سهم مصيب . وهو لستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب . وان الله له يسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . واظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخلوا ساحل عكا من ارعابها وارهابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البدل الى البلد . من الثابتين في الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى البلد من البدل . فان المقيمين في عكا شكوا امراضا معترضه . واعراضا ممرضه ،وكثرة السواد مع قلة النفقة والزاد . وكان في البلد زهاء عشرين الف رجل من امير ومقدم وجندي . واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال . وغلمان وذواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على الموضع .موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ورأفة.وما افكر أن في ذلك مخافة وافة،فقد كان فيه امراء امروا الامر والفوا الصبر ومانعوا الحصر . واجترأوا وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكامن المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم ويذفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين ابي الهيجاء السمين . فانه انفق ما ادخره من الالوف والمئين ، مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق وهناك ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

يذفق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام . وتبدد بتبدد نظمهم النظام . والزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول . فخدموا على ان يعفيهم بالبذول . فلم يقبل منهم بذلا . والزم بذقل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا الا بعدلأي . وقد بلغوا في غي الرأى الى اقصى غاي . واكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين . واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين . واذهبوا الأيام بالمدافعه . وابطأوا عن فرض المسارعه . والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم . ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل عشرين اميرا مقدمهم الأحمد . سيف الدين المشطوب علي بن احمد . وامر السلطان بالمناداة في الابطال البطالين . ليحضروا لقبض الذفقات وكان يحضر الجاووش في كل يوم مئين . ويصبح ذواب الديوان في امرهم مرتبين . لحرصهم على توفير الدرهم . وبخلهم بالذفقة ويعدونها من المغرم . ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو في نصرة النصارى . وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لايجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم القبط قطب . وفي الخبط خطب . وللشر شرك . وفي الحسن حسك . وللمشرك مشارك . وللدين تارك فارك . ولهم اخلاق اخلاق . وطباع بالطبع اغلاق . تأوي للبخل والتبجيل الى التأويل . وتقلي لتكثير السوء في الخير سوى التقليل . وهم جالبون للغي . طالبون للبغي . كاسبون للذم . مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولي الخزانة . يرى الشح بما يجود به السلطان من الأمانة . واصنعهم في الكفاية عندهم امنعهم للاطلاق واعذقهم بالحذق أقذعهم ، وأعقدهم للحق أقدعهم . واجودهم أرداهم ، وأضلهم آهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على الخيانة . مختلفون في الظاهر لابداء الصيانة . وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم . ويوحشونهم بخطابهم ويذفرون بكلامهم . ويقابلونهم بالجبه.ويعاملونهم بالنجه ، ويواجهونهم بالسوء ويسؤونهم في الوجه . ويشتطون في طلب الضمان . ويشترطون مااليس في

الامكان . ويطـردونهم بقبيح الزجـرة . ويكسرونهـم في صـحيح الأجرة . والسلطان يجود جـود السـحاب . ويأمـر بـالعطاء الحساب . وبجد حث الذواب . ويجد في بعث الأصـحاب . ويقـول انفقوا ولا تخشوا اقـلالا . وانهضـوا الرجـال خفـافا وثقـالا . ولاتـؤخروا شـغل اليوم الى غد. امهـالا او اهمالا . ولاتقدموا على هذا الفرض فرضا ولانفلا . ولاتعتقدوا ان لنا أهم من هذا الشغل شغلا . وذواب الديوان على عادة جهالتهم . وعادية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . ومادخل الثغر الا قليل من كثير . وماصح من البـدل الا بعضـه . ومـا قضى حـق الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقـوى اسـباب الضـعف . وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سـنة سـبع . فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لاينفع . وأقام الملك العـادل على البحر لازاحة علل الداخلين . واراحة قلوب الواصـلين . حتـى عاد الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جـانبهم . واقتنع البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصـلت مـن مصر بـالغلة بطس سبع . وكان لها الحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جمـاعتها ومساعدتها . ونقل مافيها من بضائع وحـوائج . وسـلع وروائج . ومأكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهـدهـم . وانتهى الى الغاية جهدهم . فلما تسامعوا بـالبطس تشـارعوا الى الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب اهـل الثغـر . الى جـانب البحـر . فزحفوا زحفا شـديدا وحملوا جندلا وحـديدا . وأتـوا بسـلالم لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهـم حـولها كالمعصـم في السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضـيق متصـادمين . فاندق بهم السلم المنصوب . وسطا بعصابهم المعصوب بها لنصـب سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا كؤوس المنايا وتسـاقوا . ورأوا غمـرات الموت فـزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه . وألفوا الأجل كامنا فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع . واطالوا بشبا العوالي للعوافي باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على اعقابهم ناكصين . ومن حسابهم ناقصين . ولاشتغال الناس بكشف ماعرا من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهائهم بثقل الغلة . عن نقل الغلة . وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضرب بها الحشف . وأذهب بكسرها كل مافيها وأتلف . وغرق من كان فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر منتبه . وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته . وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدروهم وصدوا عنها بنحورهم . وبذوها بأبدانهم الى أن بذوا ذلك البدن . وعمروا ماخرب وقووا ماوهن . وقتلوا وجرحوا من العدو خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب عن طريح صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطليح للعقير قريع . وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد بهلاكه ألم الألمانية . وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر الى سقر . كند كبير يقال له كندتيباط دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس . ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا . وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم الجلائل . من كل آنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصوغة نضارية . وآلة فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح . وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب .ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب . واظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون . وليمين الايمان مصافحون . فلما اكرموا بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمة ، وأسلم منهم شطرهم . وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهدية مائدة فضية عظيمة وعليها مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا . فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتهم بها اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ماأظن في الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه . وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر حباله ومعهم ملوطة . مكللة باللؤلؤ منوطة . وبأزرار الجوهر مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الألمان . واسر فيه رجل كبير قيل انه ابن اخته وهو كبير الشان . وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مكارمه المكاره . ونزع بلبسة إفضاله لباس الخمول ذوو الفضل النابه . وا عاد روح السلطان باعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه . وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العلاقة . وروى رأيه بري رأيه . وتلاقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثاري بمقدمه . وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا أملي . وقوي عملي ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبه قدري وذوه بذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي .وسن غربي واسنى غاربي . واقرني وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان إستكتبني فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويت به لأقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولاتوليت . فانا شاكر نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سبع . ومافي لقائه للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومن ذوي الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مساورا . ولكل هول مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فاذا هو الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الأكراد . كانوا من الآساد . ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية المعجبة المحسنة . ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط . واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا عوانيها بعوانيهم . وظفرت اساطيلنا وطالت . ووصلت اليها وصالت . ونالت من الظفر مانالت . وأحرقت الكفر شواني برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه آمير مبارز كالاسد الخادر لايصحر الا الفريسة ولايبرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن اركز ، فشين الشيني وشأنه . وما أعانته أعوانه . وامتلات بالاعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

آركانه . واضطرمت باهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده يجالد . ويجد ويجاهد . وقد اثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به العزم الشديد السديد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد . والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولاا ستطاع الانقياد بالطوع . ولامكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشانيء بشنآنه . ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولاتعسر وبسر . فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك أن لم تعطنااليد وثبت على هذه القدم . فقال ماأضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير . ولايخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كندا أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاه . فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه . وقوي عليه ومافارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر . وسعداء المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضي بن قريش الكاتب . وكان صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم . مهيبا يخشى مرهوبا لايغشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع . ولرأيه ري وريا . وتدبيره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية بينا ودنيا . ولم يكن له في الكفاية كفء . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفء . وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى ديناره فانفصلا على التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

المشتري ووثب وثوب المجتري وطعنه بمديته . وهو آمن من في خيمته . وفتك به فتك العين ابي لؤلؤة بالفاروق . وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله . ومضى بسالك سبله . فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لولم يعاجلوه . ففجع المنصب بمصابه وناب عنه اخوه مع ذوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ولزور الربيع ريث . وللسحب سح . وللضح شح . ولعين الشمس غض . ولوجه الغيم ومض ولأيدي العارض بسط وقبض . ولنواظر البرق تنبه وغمض . ولنواجذ البرد كشر وعض . ولفص الفصل ختم وفض . وكل صاد في بحر كانون كنون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأوحال أحوال . وللأهواء أهوال . وللشمال شمول . وما للقبول قبول . وللجذوب نذوب . وللدبور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا صبابات وصبابات . وللندى الندي جنايات وسرايات . وللجو الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي الرباب عمائم . وللذكباء نكبات . ولشبا شباط شبات . وللرواعد رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفة وعتو . وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رزايا أذايا . وخبايا المروج الثابته في زوايا الثلوج النازلة خفايا . وللعواصف القواصف عواص غير قواص . والعارض عارض للحب في العراص عراص . والقوارس قوارص . والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه . والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم . والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا . ولتجهيز البدل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد . وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض الذواب في ذلك وإليهم يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . ويدفق فيهم الأموال . والأمر مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

سنية . ولوافح عزماتهم ذاكية ونوافح مكرماتهم ذكية . والمماليك الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يغادرون به ولايبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضالة ضلاله ناشد . ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة في المشقة التي تعدها الاشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة صدقوها . أولقوا غمه كشفوها ، او صرفوا أوجههم الى نائبة صرفوها .

ذكر ماتجدد من الحوادث وتكرر العزائم من البواعث

في يوم الاربعاء تاسع المحرم ، سار الملك الظاهر لقصد بلد صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي من اصحاب الأطراف السفر . فان السلطان رخص لهم في ذلك . فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . وأقام السلطان في اصحابه . وخواصه وملازمي بابه . وملابسي جنابه . ورجال رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك المظفر تقي الدين ليتسلم مافي شرقي الفرات . من البلاد التي كانت مع مظفر الدين . مضافة الى ميافارقين . فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر وميافارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد وماردين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء منها الطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من يشترط الفسحة له في استضافة ديار بكر الى بلاده . ويقال له لاسبيل الى قصد أحد ولاانتزاع بلد ولاازالة يد . فان أرباب البلاد اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاقد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متباعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا في قمعه متحقق . فلا نؤثر علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهي . وبلغت المنتهى . وأنا ادخل على الشرط وعنه لاأخرج وأجمع العساكر والى نصركم مورد في الروع ومصدر ، ومازال يستسعف السلطان عمه . ويسترهف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى اخذ دستوره . واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع ايابه ،ويحكم في العود اسبابه . وانما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لاتدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار واله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون . غير ماكان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم ايضا ابقارا وأب قارا . وسار بالغنيمة سارا . وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . ففرق في بحر الأسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا . وماهديتا بل اهديتا . وشاهدت الأسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على الذين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا مـن البلد على
العدو بالنائب الاعضـل والناب الاعصـل . وكبسـوه في مخيمـه .
وخيموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتـى اسروا مـن الفـرنج
وقتلوا جمعا . وأوسعوهم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا سـالمين
غانمين . كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السـبي .
وعرف الله لهم حق ذلك السعي.وفي الأحد ثالث هذا الشـهر . شـهر
سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت النوبة للحلقـة
المنصورة خواص السلطان مساعير المعتـرك . وعظمـت الوقعـه .
وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارهـا
الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معـروف كبير .
ولم يفقد منا الا خادم رومي صـغير عثـر بـه في الحملة فـرسه فلم
ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله
ولم يعش . وهذا الخصي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفـر
للاسلام بحمل الذحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج .
ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهـم ولا
علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشـوا عليهـا التلف . فـأمر
السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد السـاحل . ويكمـن
بعسكره وراء التـل الذي كانت فيه قـديما منزلتـه . وهناك نصرت
وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده .
وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصـبة المنصـورة
الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شـهر ربيع الاول . مسـتظهرا
بصحبة ولده الملك الافضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليسـتأنسوا
بالحرب ويدمنوا على مبـاشرة الطعـن والضرب . فعـرف العـدو
الخبر . فما اقدم على الخروج ولاجسر . فضربت للسلطان على التل
خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصـل اليه مـن
بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر
من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في
السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحنية . ومـا أمـن مـن المنية .
وتحاماه الحمام . وعامـت في بحـر لياليه وايامـه الأعوام . وهـو
ممسوخ الحليه . ممسوح اللحية . قد بلى مما بلي . وقلي من طـول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لداتـه ولذاتـه ومـا عدم . وكم جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتـى لم يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا ذهابه . فتعجب السلطان مـن مجيئه من البـلاد الشـاسعه . واختياره الضـيق على الارجـاء الواسعة . فسـأله كم بينه وبين وطنه . ولأي سـبب حـركته مـن سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانمـا خـرجت بقصـد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بـالاطلاق . واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفـرنج راكبـا على فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله خدام اولاده الصغار . ان يأذن لهـم في تجـريب سـيوفهم بجـرح الاسارى الكفار . فلم يأذن لهم في ذلك وابـاه . فـأرضى كل منهـم بامتثال الأمر الذي أباه . فقيل له:لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم . فقال:لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فـانظر مـا تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر . وكان بحلب المقدم المؤمر . وهـو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقربه ومجـاورته الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضـه واسمره وبيضـه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقـدم في ذلك التـاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهـرام شـاه صـاحب بعلبك وقـد استصحب معه مماليكه التـرك . وقـد نوى بـالمشركين الفتـك . واستزهـم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقـواطعه وقـواضبه . وصدوا فنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه واظمأ جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فمـن

ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الربـا عليه جيوبها وغطته من العجاج بـالرداء . وجـرى ذلك الوادي مـع الأجناد والامراء بسيل خيلترددأماء (٤٩) الدمـاء . وخـرق ذلك الخرق أرعن في حافاته الخرق . ومن عاداته بعداته الحـرق ، ومـن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسـواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضـمخ بالنجيع . ومن ديمته وبل الذبل مـن الاحـداق والنواظـر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسـماع أنين المنية لخصـمه . وجلونا في ذلك اليوم فـوارس لاعرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعـد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قـوله . وانه اذا جـاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم بـه مـن المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظـر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صـولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب . ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . وافلت من يده وطار . وحشا حشاه الباز الذي نار النار . ووقع على سور عكا . وحزن الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى وما آب . وثبت وما ثاب . فبصربه اصحابنا فأخذوه . والى السلطان انفذوه . فأبدى السرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده الظفر والمنحة فألا . وبذل فيه الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها . ويجرون بجواريها . وينهضون بسواريها ورواسيها . وينهشون بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم . واسروهم باسرهم وسبوهم . وبغتوهم من البلاء بما اتوهم به وبلوهم . وكنسوا كل ما كان في الكنيسة . من الاعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم . ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا . واقتسموها خرصا . وزادوا بمانالوه حرصا . واستغنوا مما استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل النبل ديمه ، وركبوا باسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل أرهف حد عزمه . وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق . واعتناق الغلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شده . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقرير . وحمل له هدايا . وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . ومابطشت يد عادمة الا يد كيد الكيد . واستولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امواله الغزيرة . وسيأتي ذكر وروده ، وماتم به لاحزاب الشيطان وجنوده

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة . وبالنجح متجددة . وهو ان اصحابنا اخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مراكب الانكتير خمسة وطرادة . ولم تكن لولا اباء رجالها الضيم معتاده . وبحزام القهر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخاير من عدة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطرادة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فاما السبايا فقد اخرجن على البيع بالذقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بالجد والجلد . والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضب . والسمر السلب . والجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج . والقصد بالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والاوباش والاوشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضباع . والضواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والحمر والسود . ودبوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبوا . وغبوا وعبوا وجابوا وجبوا . وزحموا ورجموا . واقدموا وتقدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كانها تلاع . وهي في الجو مترامية . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاض الجدار . منفضة اسوارها لانفضاض الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قائمة قاعدة . بارقة راعدة . صادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال آجنتها . وحنايا الحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجــار . ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق . صوائل بالفلق على الخلق . مـطايا للمنايا . روايا لخبـاياها البـلايا . في كفاتها افاتها . وفي حــركاتها ادراكاتهــا . وللتعــنيب عذبــاتها . وللترهيب جــذباتها . ومــا اعظم جنايات جنادلهــا . واظلم غوايات غوائلها . وهي الروائم الروامي . والحوائم الحــوامي . والهــوادم بالهوادي . والصــوادم الصــوادي . ودواعي العــوادي . وذواعي الذوادي . والذواعب بالذوى . والجــوائب بــالجوى . والصــوائب بالمصائب . والذوائب بالشوائب . اذا جــذبت جــذت . واذا قــذفت اقذت . واذا طوحت طــرحت . واذا حلقــت حلقــت . واذا اطــارت ابارت . واذا القت القمت . فشق على اصحابنا بــالبلد شــقاقها . وكادت تفتح اليه الطــريق طــوارقها وطــرا قها . فــاستصرخوا بنا وانهضوا . وحضوا على حظنا وحظهم وحــرضوا . واســتنفروا . واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبــا في العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وســير مــن كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العســاكر عنه ومــر الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب . ونكايتهــا في الضر والضرب . وعرف امــاكن القتــال . ومــــكامن الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظــل . ذل جمعهــم وكل . وترك الزحف واذفل . واذا عادوا وعدوا . واناروا في الحــرب واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه . وفطموه رضيعا له ثلاثة اشهر في غير أوان فطمه . واســتحلوا بحــكم الجهــاد في جنح الظلام ظلمه . وفجعــوها بــواحدها وســاعدها . وكدروا صـــفو

مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدها . وحرموه در لبنها فدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . والخد خادشه . والوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد شدهت ودهشت . وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها . مذ سلب طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين ترجيعها . وتردد القلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها . وهي نائحة في كل ناحية نادبة في كل ناد . نائية لكل فؤاد . عانية في كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب هاتفه . والدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد رضيعها . معولة على الطفل معولة على الطف . متذكرة من الذكر متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . ونار اكتئابها ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها . تبكي ببكائها . وتشكي من دائها . وتنشد ضالتها . وتطلب مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها . فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينه . متجننة متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها . ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه الطفل الرقيق . وسلك بفضله طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقيل له انه بيع واضيع . فان آخذيه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه . ويلوم باذله كيف لم يصنه . حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها . وأسا ماساء الاسى من جروحها وقروحها . ورروحها بروحها . وفرع دوحها . واغناها بغنائها الشكر عن نوحها . وظهر سر سرورها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ماا شتراه من مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياديه .

-٦١٠٦-

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متــاعبهم في ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم . وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب الذوم بكل حد مــرهوب وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دائية . انتقل الســلطان الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بــالكلية . بــالعزائم والصرائم الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحــدة . بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمــادى الاولى بلغــه ان القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فــامر الجــاووش حتــى نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بــالفارس والراجــل الى الخروبة وقوى اليزك . والزم المقدمين والامراء بحفــظ ذوبهــم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعــل العــدو اذا عاين قلتهــا خــرج بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بهــا بــالا ولم يلفــت اليهــا جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وتــرك العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العــدو الى مجثمــه . والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة . ونزل في خيمة لطيفة لاجله مضروبة . وصل من اليزك من اخبــره ان العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ماكان فيه وزحف . وانه قد ارعب وارعف . وأرهق وأرهــف . والهــى والهــف . وأرهــب وأرهج . وأعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وأنار . فبعث السلطان هذا الخبــر على ان بعــث الى العســاكر بــالمخيم فأعادها . واستنهض الى الفــريسة آســادها . واجــرى في حلبــة الحمية جيادها . ودعاها الى طعن يبــرح بــالذوابل . وضرب يرنح اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها مــن مــري اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظاهر العلو . والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهم ويغاديهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا . وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية . ورمي كما حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمه . وللرمي مديمه . وبالاحجار متقاطره . وعلى الاقطار حاجزة . وللجلاميد قارعه . وللصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق . فدنوا منه دنو المحذق . وشرعوا في هجمه . واسرعوا الى طمه . وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم . واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلهم قد اقتسموا فريقين . وافترقوا قسمين ففريق يلقي من الخندق ماألقي فيه . وفريق يقارع العدو ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير . واظهروا انه في الجمع الكثير والجم الغفير . وكانت معه من الشواني خمس وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضاهي تلعة وتوازي قلعه . وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفوس لوعة . ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفاس للشرارة متصاعدة . وألسنة للشعل نضناضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصول اولئك الشرار شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كانوا من أهل النار

ببرهانهم . وأتتهم باتيانهم . وأضافتهم في مكانهم . وملك الملك بامره أمرهم . وأراهم أن بيده دفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين . وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد آبارا . وأثر في المكر آثارا . وأرث للشر نارا . وأنار لنصرة النصرانية ثارا . وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به من تأثيره وتاريثه(٥٩) . وارتابوا وارتاعوا . والتاحوا والتاعوا . وغدت الألسنة ترجف والقلوب تجف . وكاد الباسل يجبن . والباطل يخشن . والحق يلين . والدين يدين والسلطان قوي الجنان . روي الايمان . صاف يقينه . واف دينه . شاف نصحه . كاف نجحه . مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معاشه . متأن في تفكره ، متأت في تدبره . متوكل على ربه في نصرة دينه . متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتروعه المخافات ولاتخيفه الرائعات . ولاتزعزع الخطوب طود وقاره . ولاتفض النوائب خيم ذماره . ولايلين للشدائد . ولايستكين للروائع الرواعد . وكم سكن الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببركاته ونام الأنام ليقظانه ، وآمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمه لما درى . ولارد وجهه عما قصد . ولاصدف رأيه عما عليه اعتمد . بل ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة . وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكتير ان جمع كفره للتبتير . وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة من نحور أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبا في كتائبها . لتحتبي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها . بخيل تأبى الضيم مثل إبائه . وفخر مثار النقع يذوب عن لوائه . ووجه كلامع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام السلطان على هذه الحالة . ساميا في مطالع الجلالة . لم ينض سلاحه . ولم يخفض جناحه . ولم يركز رماحه . ولم يردع للروع مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بـطسه . وزادهـا مـن العـدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلأها غلة وذخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا . من كل مـن طهـر وتـزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكي . فلما توسطت ثبـج اللجـة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكتير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوانية . وقاتلتها نصـف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فاكبت من العدو مراكب . وجبت لهـا غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خلق عليها . وما امتدت يد عدوانهـم اليهـا . فلمـا يئست مـن سـلامتها . وزلت عن اسـتقامتها . وجـالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بـالعز خير لنا مـن الحياة بالذل . والشح بـالدين أحـب الينا مـن البـذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها . وأفتـرقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الأولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . ومـا يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الوقعة أول حـادثة للوهـن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الأسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد أظهرت لها في الشر غائله . ولها أربع طباق . شدها على الارتبـاط بـاق . ولهـا مـن الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصـاص وحـديد ونحـاس . وقربوها الى أن بقيت بينهـا وبين البلد أذرع خمس . وفي طبـاقها سباع ضوار وذئاب طلس . وبلي البلد منها بـكل بلية . ورزي بـكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقربوا بتقـريبها أسـباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصـحابنا يطلبـون الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشـد قـراع . وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قـوارير النفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد . وتنبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق .حتى بدرت قارورة انقضـت على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسـومهم في الالتهاب . فعونناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صـاحبكم وما غوى) فجاء من انقلاب القـارورة قـرار القلوب . ومـن حـر انفاسها بـرد النفـوس . وكشـف شـعاعها ظلم الكروب . ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بـكل نور . ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضـلاع الدبـابة وجنوبهـا . فاحرقها الله احراق أهلها بذنوبها . وكما أضاءت الافاق بنيرانها . اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سـواد الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد . فجلا حريق هذه الدبابة صـدأ قلوبنا المغتمـة بـالبطسة الغـريقة . وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احتـرقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتا لتلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصـحابنا في عكا عند زحـف العـدو دق الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العـدو بـالنفائس والنفوس . ولما اصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جـانب العـدو مثـار غبـراته . فعلمنا بزحفه . وعملنا في حتفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم لامن حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبـرد . مضـمر للجرد . فضفاض السرد . قضقاض كالاسـد الورد . مشـتاق الى الطرد . ملتاح من مـاء الوريد الى الورد . مـن التـرك والأكاديش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب . ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب . وكل ثمل كأنه نزيف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره . وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم السوابح السوابق في بحور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق الشاكي . وكل مصمم مصمم درعه غير محقبه . وسهامه غير مجعبه . وسيوفه غير مقروبه . وقبابه لمداومة اجراء فيه غير مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله . وأبيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله . وأشتبهت في الذقع الوان خيله . وامتدت الى قرار الالقاء أعناق سيله . فكانما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب . وعد الذقع في وبل الذبل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم . وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى وصلوا الى القدور على اثافيها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون . ويعلون من دمائهم وينهلون . ودخل الظهر وحمي الحر . فافترق الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت من أشدها واجدها كريهة . غير انه في هذه الذوبة عرضت نبوة . وكادت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبي سوابقهم . فانتشب الحرب . واستجر الطعن والضرب . وكثرت الجراحات . وكرثت الاجتراحات . واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل من المشركين جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الوقعة . أن رجلا من مازندران من اهل الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأذن وقت السلام على السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد . فالقي الله بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا من جانب البحر أطلابا . وتحزبوا في ذلك الفضاء أحزابا . وركب السلطان من مجالس عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبارة العدو وإبادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت . وجحمت نار اقدامها وما احجمت . ومازالت نجوم النصول تنقض . وختوم النحور تنفض . وعيون العيون ترفض . وديون النحول وحقوق الحقود تقتضي وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغائب ، وذكباء لها من الذوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السوابح . وشرب بكاس المنية منها المهج غوابق صوابح . وغبراء اساود نبالها تتواثب عن عقارب القسي . وثعالب لهاذم صعادها تتلاعب في أراقم السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبان راياتها تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب . وغران سوابقها تغيض في غطامط الغياهب . وارواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضارية على

الردى جريه . حتى دخل على ليل الذقع الليل . وجرى من ديمة الدم السيل . والتفت لما التفت بالخيل الخيل . وأفرج المازق عن قتلى جرى عليها من السوافي الذيل . واستشهد من المسلمين بدوي وكردي . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي . وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولامته وقونسه(٥٢) . وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى . وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد أخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواضب يفرين . وطوالع غروب في الطلى يغربن وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء . ويروا فقه القضاء في المضاء.وكل معتقل الرديني اخف الى الوغى من سنانه . وكل مشتمل المشرفي خضيب الغرار ريانه . وكل ملتم بعثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة . وامتد راجلنا أمامهم . واثبتوا اقدامهم . وطال القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣) وأعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب نوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان . والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا انهما لاخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك . صادفت في الاجتياز بها أخاها هذا الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدراما النجاة من تلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فـاكرم السـلطان وفـادتهما . وأجـزل بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس أنه هرب الى صـور . وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقـوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبا قبوله . وانقـطع وصـوله . وكان سبب نفاره . وموجب استشعاره . ان هنفـري كانت زوجتـه ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده . وسـواء في هـذا الميراث . بين الذكور والاناث . فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا الكبرى . فاذا توفيت عن غير عقب كان الصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجتـه الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة. وبقيت هذه زوجـة هنفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهـل الملك لتكون الملكة لك زوجة . ولا بد لي من تقويم هذا الامر حتى لاأبقي فيه عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخـذها له عروسـا . وأحضر لنكاحها قسوسا . وقيل انهـا كانت حبلى ولم تخـرج مـن حبـالة الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحـم المشـتغل . وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلمـا جـاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفري والملك العتيق فـانفتح بـذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قـر. وأخـذ معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سـنجار . وقـد سد بسواد عديده النهار . وأفاض ببياض حديده الانوار . ومقـدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السديد . والالمعي اللوذعي . والكميش الكمي . والنقاب النقي . والعف التقي . وهو ذو همة في الغزو عالية . وعزمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية . وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر ممايلي النيب . وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان مكرما الى جنبه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني جمادى الاخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري ذي الزند الوري والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير الاسدية . أسد العرين . الشم العرانين . الغر الميامين . وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبها . فركب السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بآساده في عريسه . مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل والجياد مراقبها . وخيل كانها الظلماء والترائك كواكبها . ونقع كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه . وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه . ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء . وساق على تعبيته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

واحضر له اسباب تكرمته . وآنسة بانبساطه . ونظمه مع اصـــحابه في سمط سماطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حبـــاحبه . وخصـــه بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايليق به مـــن كل بـــاب . وانصرف عنه ونزل علي ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بباسها جـــانية . وقـــد علمـــت الوقائع انها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فمـــا نزلت حتى عرضت على العـــدو مقـــانبها . وابـــرزت لعينه قناهـــــا وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قســـيها . ثـــم جـــاءت والقيت بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة أيســـت منه . واســـلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليهـــا بآفـــاته . واعادت جـــــــــــــــــــــوانبه مهـــــــــــــــــــــــــــــدومة .
وذواجزه مهدومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد مـــن عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخـــلا بـــالهم عليه الخلد ، وقـــد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بهـــا فيالقهـــم . ونحـــن لا نألوا في الجهاد جهدا ولانترك جدا . ولا نجد من مضايقهم بـــكل ذوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق رأســـه وحلق لحيتـــه . واســـتلقى لانتـــــظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وســـكنوا وســـكتوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب فيثبوا ، وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمـــق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمره ، وانســـداد ثغره .

-٦١١٧-

فصل من كتاب الى صاحب الموصل

في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائما في المقام الكريم . وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح . وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح . وشارك في الجهاد وشد الازر . وسدد الأمر وآزر وعضد . وظاهر واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم . واستضرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمرهم . واخذوا فيه نقوبا . وحكموا في الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد اشرف . والعدو بخندقه محتجز . والفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن جثوم الموت عليه في مجثمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر بلطفه . ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه . والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج . ووضح لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين الثلم . ويجلون عنهم بما يشبون من نيران الظبا الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الاصحاب الى الأصحاب . ويكفي هذه النوبة الصعبة فهو كافي النوب الصعاب .

-٦١١٨-

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفت بعدتها المناجده . ووافت بعدتها المنى جده . واقبلت اقيال الأساد في عرين الوشيج . وماجت موج البحار في غدير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . وألمت بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده . واستظهر الاسلام بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختام قتامها . وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه . وابعث امداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكه وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في حصر الثغر ونصب آلاته . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب من الضرب . واخذ منه مواضع في الذقب . وقد اشفى على خطر عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التواني . ونهوض المسلمين من الأقاصي والأداني . والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فللاعذار اوقات ، ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات . وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذ ايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع الملكان العادل والافضل . وقالا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عنيه يعرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكتير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا حرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خاليين من مقتضيات المرج . وكلاكما عن عسكره منفرد . ولحديثه في الخلوة مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لايفهم بلساني وانا لا افهم بلسانه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجمانه . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعله يرد بسول ويصدر رسولا . فلما لح في الطلب . وألح في الأرب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . ودخل وقد أخذ أمانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا ان ملوكهم منعوه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكتير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاع من تأمر للفرنج عليه واحكام . وقال الأمور مفوضة الي . وأنا أحكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفاتني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه . وإن دامت بينهم الحرب والمعاداه . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حمله وقبوله . وأخذه من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاة . واستدامة المكافأة للموازاه . فقال عندنا بزاة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعفت فهي طلائح روازح ، ونريد طيرا ودجاجا (٥٤)تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها الهدية على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة . واسلك غير

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هـل لكم حديث . فقلنا انتم طلبتونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حـديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سـادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعـه اسـير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واوصـل الى السـلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسـالتهم تسـفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثه . وهؤلاء طلبوا للملك فـاكهة وثلجـا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سـألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسـالات تفتير العـزمات وهـم مشتغلون بموالاة الرمي بالمنجنيقات وتسـوية المنصـوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السـور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعضعت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقـوى . كي يثـوى . واهـل المدينة قد كثر تعبهم لكثـرة النوب ولقلة العـدد والحجـر هـاتك . والسـهر ناهـك . والعمـل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقـه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشـاق متعبـه . والاحـوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنيقـات تنصـب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصـب . فلمـا اشـتد الزحـف . وزاد الضعف . احتـاجوا الى رجـال المنجنيق المقـاتلة . والتناوب على المنازله . وهناك ظهر ان العدد لايقـي ولايفـي . وان القليل لايكف ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجـل دخـول البـدل لم يكن صوابا . وان تقصير النواب ابتـداء في الاعطـاء جلب في الانتهـاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الاخرة يوم الثلاثاء . بمـا عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهـم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب مـن خيامهـم مـاتطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهـار ليلا وبـالبيض الليل نهـارا . وامسى السـلطان تلك الليلة سـاهدا لم يذق طعـاما . ولم يسـتطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل مـن يلقـي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصـدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخـاوف . وكل مـن الضرب في جبينه شامة . والطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :

في غداة صباحها في حداد
نسجتها ايدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتـال أشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهـايته . ولم يبـق الا تسـليم البلد إن لم تعملوا شيئا.ولم تنجدوا في الذب عنه سعيا . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولاقـوة الا بـالله لانملك لانفسـنا ضرا ولانفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهـو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغـرة من تلك الثغر افرنجي . كأنه جني مستشيط نجـي . وهـو يدافـع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقته لجسـمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه النشاب

القذفذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصماءها وتدمي . فلم تزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرج . وقلة البدل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امنه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ماعاملنا كم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم مماليكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، واغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه)(التوبه ١٢٣). وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالفرض المطلوب . قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الأمير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل باله . فساءه ماباله . وعمروا بركوسا . ورأوا في هربهم رأيا منكوسا وربحا في دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم الأمر الشاسع . وجاؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فنمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعة . وانهم خرجوا اله وله عن الطاعه . وانهم جبنوا عن بذل الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاءة بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الامراء المعروفين . وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرتاش بن جاولي . وهو شاب أول ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر . ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل . المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل فلم تعد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم . وعاديا ممقوتين . وبحدود ألسن الذ م منحوتين . وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته . ووقع بعد ذلك في الأسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم الســور في مــواضع الذقــب . وعظـــم الخطب . وا شتدت الحرب وا شفى البلد وا شرف . وا شتفى العدو بما فيه وا سرف . ولما لج العدو في الزحف . وا ستسهل في التــطرف الى البلد طــريق الحتــف . ركبنا في عســكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم . والى مطمحه البعيد مــن أمــره مــرتم . ولما عاين اصحابنا بالبلد ماعليه من الخــطر . وانهــم قــد ا شــفوا على الغرر . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثــوقه . وأعمــى قلبــه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثغــرهم . وبــاءوا بــوبال غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هــربهم . ومــاأرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام . قــد استحلوا مر الحمام . وأجمعوا أنهم لايســلمون حتــى يقتلوا مــن الأعداء اضعاف أعدادهم . وأنهــم يبــذلون في صــون ثغــرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مــع الفــرنج في التســليم فــا شتطوا وا شترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومــدوا ايديهــم في القــوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من البا شورة وتارة من الذقــوب ، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب . ونحــن وان كنا للقــوم مضايقين وبهم محـــدقين وعلى جمـــوعهم مـــن الجـــوانب متفرقين ، فانهم يقاتلوننا مــن وراء جــدار ، ويعلمــون انهــم ان خرجوا الينا في تبـــار ، والهجـــوم على جمعهـــم مســـتصعب ممتنع ، والعسكر على مــركزهم متـــألف مجتمـــع ، ولله قدر لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايغــالب في حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطــاقة في دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه تــوكلنا وهــو نعــم الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحــف الخميس . وحمــي الوطيس وتحرك بالضراغم الجيش وا سود الجو . وانسد الضو ، وانقضــت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نعيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمعه ، ولرحى الحرب الزبون جعجعة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجيات راعدة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . وذشاوى الدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان . وصفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في آجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى احجامها . ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاده . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من الذورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن انفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز انوفهم ، ولوصح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، واصبح يوم العسكر الجمعة العاشر، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه اسنته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولأذى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الافرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد انس الفرنج به لتردده في الرسالات نحوهم في سالف الأزمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من بعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك مالايدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط . فانفذ السلطان الملكين العادل والافضل . ليفصلا المجمل . ويجملا اذا حزا (٥٥)المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدومه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم . وباشروا الأسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا. حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

-٦١٢٧-

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشـتطروا اعادة جميع البلد . واطـلاق اسـاراهم مـن الأقياد . فبذل لهم تسليم عكا بمـا فيهـا دون مـن فيهـا فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسـير . فلم يقبلوا وسـمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة وسـالت الى ثغـر البلد سـيل الآتـي الى القرار . وطلعـت في السـور المهـدوم . طلوع الأوعال في فـرج الأوعار . وانحدر عليهـم اصـحابنا انحـدار الصـخور المدهدهة ، وفرسوهم فرس الأساد المحرجة المكرهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صـد ، ومـازالت الكرات تتناوب والحمـلات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخـرج سـيف الدين علي بـن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسـليم البلد ومـائتي الف دينار وألف دينار للمركيس وأربعة الاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفـرنجية على عكا مـركوزه ، وأعطـاف أعلامهـم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وماأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضـاء وعز العـزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء ، ونسب السـلطان ذلك بعـد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثـار في ديار بـكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتـج تـأخر نصف العساكر فـوات الغـرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصونه ، وماكان يضبطه السلطان الى هـذه الغـاية او لم يكن الله في عونه ، ونقـل الثقـل تلك الليلة الى منزله الأول بشـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة مثلهفا على ماتم ، ثم انتقـل سـحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صـابرا على حـكم القضـاء المبرم ، وحضرنا عنده وهـو مغتـم ، وبـالتدبير للمسـتقبل مهتم ، فعزيناه وسليناه ، وقلنا هـذه بلدة ممـا فتحـه الله وقـد استعادها عداه ، وقلت له ان ذهبـت مـدينة فمـا ذهـب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشتها بعد الحـادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعـة مـن بقـاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسـولا ندبـه بهاء الدين قراقوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة الفظيعة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسـارى وصـليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وان تـأخر شيء مـن ذلك بقينا تحـت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الاكابر وفاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسـلمون ، فتقبـل السـلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفـرنج على عكا هـذه الرسـالة وسيرت بها كتبا

قد عرف أمر عكا وأن العـدو قصـدها ورصـدها ونزلهـا ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليهـا بـكلكلة . وحفـل عندهـا بجحفلة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحـر نحـوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهـت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمـدادها بحـارا . وبـرد الماء

بأهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارا . وتصل مراكبهم كأنها الأعلام السود . والامواج ناشرة بيض اعلامها، مالئة جبالها بأكامها . مازجة اصباحها باظلامها .
وتتنافس ملوكهم البـاغية . وطـواغيتهم الطاغية . في الورود بذفوسها ونفائسها . والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها . مستخرجة ضمائر خزائنها . مستفرغة نخائر مكامنها . موضعة ظعائن ضغائنها . مستبضعة متاع متاعها . مسرعة الى معاطن معاطيها . وترد بقناطير أموالها، وجماهير رجالها . ومساعير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقاتلون أبراجها بالابراج . ويسومون جدتها بالانهاج . ويرومون علاج كرامها بمراماة الاعلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افواه خنادقها أحجارا . ويناجونها بألذسة المجانيق الطوال . ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا، ويدبون اليها المضايقة خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق . كانه حامل على الطلق . لاتلد إلا أمات الدواهي . ولاتدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهي .
ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفا . حتى يعود نافرهم للمنون ألوفا . وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه المدة . سوى من هلك بالضائقة والشدة . خمسين ألفا قولا لايتسمح فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هذه السنة .
والحالة في تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث . وتحدثوا في الحادث . وثاروا للثأر . وزاروا بالزار . وانبرى ملكا افرنسيس وانكتير . وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاؤوا في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحر منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها النيول . وحملوا فيها الخيالة والخيول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطسة كانها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجوم

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر من البر والبحر . واحاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسوار بالأسوار . والظلماء بالادوار . ومنعت الداخل والخارج . وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح . الدوالج والمناهج . وزاحفوه بكل منجيق كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم عندها القيامة . وكل سلم لاترجي معه العلامة . وكل آلة آلت إن الفتح منها بالحتف . وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوي الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق . وسور وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه . وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولايدخل إليه لضيق مسالكه . وهو متحر متحرس . متستر متترس . عاص على الهجم . عاس على العجم . لايقتحم سده . ولايذثلم حده . ولم تزل الحالة تتمادى والواقعة وليدها لاينادى . والمدى يتطاول . والمدد يتواصل . والقضية تترامى . والرمية تتقاضى . ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون(٥٦) . فمن مستشهد عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القرح . ومن دام بالجرح رام عنه . ومن نازع في القوس نازع منه ، ومن متعرض للموت خوف عار عارض . ومن ناه عن السلم آمر بالحرب ناهض . ومن ندب فيه ندوب . ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب . حتى ضج الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظل المصابرة يقلص . والعدم يتمكن من الوجود . والقيام للاثخان في زي القعود . وكاد البقاء يودع الباقين . والمذون تلاقي الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تاخر وتستر . واستشعر الذعر فتعذر وتحذر . واستبدل الجبن من الشجاعة . واستملى العجز من الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظن إنه لانجاح له في العزيمة . ولا نجاة له إلا في الهزيمة . وجنب أمثاله من الجبناء . وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فأضعف قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم . ومابرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة وملافحة . ومواقعة وموافقة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على الخنادق التي طمت . ورمي في خروقها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلامة إلى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالذقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت مرابيه . وكثرت ندوب نقوبة . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو بالسوء الى السور . وطرق الظلمةالى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالذقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبه . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو في الذقب فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقي الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل النقابون يوسعون ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعاذقت الاسياف فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان وأصحابنا لايهولهم الهائل ولايميلهم ألى الحذار الجدار المائل . ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو نثروه . واذا نهضوا له اقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدروه . واذا بادر اليهم بدروه وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا . ومازالوا يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع . ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بألسنة المناصل .

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفاح . ويتماشون بمراح الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن الستائر الى الستور . ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح . ومن المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائح . ورزايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي القاسية . ورشفتهم الظبا الظامية . ولاينهض قويهم من الكلول ولايفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت من اسوارها . وأزدحم العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي الواغل . أن القوم مستقلون وللموت مستقبلون . وأنه لاطاقة له بمقاومتهم . ولا قوام له بطاقتهم . وأنهم لايسلمون وهم يسلمون ولايبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا . وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولامرد لما فيه الله من المراد . ولامدفع لحكمه في البلاد والعباد . وأن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما غاب المعين . وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الديجور فلابد أن يسفر عن الصبح الدجى . ولايشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم السرى .

فصل من كتاب
الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه . وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه . فالاسلام ينشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد الرد عنها مكايد العداة في نحرها . قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مغصوبة بعد ان كانت عارية من الكفر مردودة . واذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهماله . وأخينة إغفاله . وحاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا . ومابقي للفرنج مع استيلائها على الموضع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل دينه بالنصر . والمردي بمكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هو زمان استنجاح المنى . فان العدو الخادر قد آن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من إربل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العدو الكافر . والطاغية الحاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من الكفر في البلاد والجزائر . وماقصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنج ممن بعكا ومنا بين الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخرناه وعطلناه . وكلما ركبوا برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه . وكلما اوقدوا نارا الحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولاكيدهم مجال ، ولم يتسق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين الف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهم بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم في نهج القتال سالكون ، وهم حطب نار الحرب ، وطعم الطعن والضرب ، وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة ، وحصلوا تحت العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدرة ، ولما دخلت هذه السنة اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد ، وقلنا هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ماكان في وسعهم من الاجتهاد ، ورأينا أن نجدد للبلد البدل ، وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه أكثر من عشرة الاف رجل ، ومن كل نمر مشيح وكمي بطل ، فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بذلك الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبه ، وحمى جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع لهام ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام . وباس واقدام . وناس واقوام . وحشد ملأت به سفنها، وأخلت منه مدتها . ووصل ملكا افرنسيس وانكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما ورجلهما . واناخا بكلاكل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما وجهلهما . ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد . واهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والثلم . وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان نقابي الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبون كابتون ، قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام . وتلفعوا من وقع بيضها بحمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم ، وهم يواقعون ويواقدون . ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . وودع الجنة في لقاء أهل النار أهله ، فخانهم بعض الأمراء الجبناء . وأخذ الحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى البلاء . وحسب النجاة في النجاء ، وهرب في بركوس قد اعده لذلك اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم ، واستصحب أمثاله . واستتبع وابعد في فراره وأبدع ، وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأمطى أفاعي الكفر في نهش الراقين . على أن الأصحاب ما أنذوا بالأصحاب ، ولم يقابلوا الضراب بالاضراب . ومازالوا يواصلون بالقواطع ، ولايرتاعون للروائع ، ولايريمون مقام المقامع . ويطالبون من الأرواح بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعة فظيعة . كل منة لها غير مستطيعة . ولولا مااتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم تكن عكا بالممكنة للعدو ولاالمذعنة . وأن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب . وان ملكت واحتلت فما اختل الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السلك ، وانما نبه الله بها العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات الناعسة . وحرك النخوات المتناقسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . ونوسعهم الردى في مضايقهم ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . ونكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما بـرز الا مـن واراه من بطون الخوامع رمسـه ، فهـم مقيمـون لايريمـون مخيمهم . ولايرومون ان يهجروا مجثمهم ، ومـاأنسوا بمـرابض المضارب . الا لذفرتهم من مضـارب القـواضب ، وهـم مـع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصـاف ، وآونة بـالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعتـرضهم اين واجهـوا ونواجهـم أين اعتـرضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهـم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعـوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمذون له بـارزة . والعـزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهـر الكفـر يرتمـي وينتمي . ويصل بجمعه اللهام الملتهم . وبجمـره المحتـد المحتدم . وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السـابك في نار الوغى سـبائك الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شـك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعـود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخـرج حـكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ماصرف الله قلمـي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وتـرحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمي وكلمي . وعرف شـيم مخـايل الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمـري .

وماجراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه . وماضيع احسانه . وهو للفقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا . وماعرف الا بعرف . فما صرف الا عن صرف . وما سفارته الا في نجح . وما سفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة وامينها . ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد امدادها . وبسداده الثغور سدادها . ودواته دواء المعضلات . وبعقده حل المشكلات . وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطة قط هوادي القطوب . وببريه برء الامراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي الامجاد للانجاد ، وبحركته سكون الدهماء . وببركته ركون الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من لايعينه . فخفت على عكا من وقوف قلمي عنها . وكان قد الهمني الله فانه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة . والعارفة الطريفه .

ذكر ماجرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها العسكر . فضرب الكوس السلطاني . فثار المعشر وقام المحشر وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتعير الشمس من نسج حافرها نقابها . في غلب كالقواضب .يروون القواصب . وطوالع من الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حماة الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق وانهزم الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعللا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا وثم وثبوا . واسعروا نار الحديد والهبوا . ونظموهم بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت سيوفهم بالاعناق والطلى . وحلت من حياة العدا الحبا . ودخل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثيرهم وآثار عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة المستأسرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صار الى صوره ورتب الدوك نائبه وولاه الأمور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه ورضي بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراءه رسولا بتحف تليق به . يستخرج ضمائره فيما هو من اربه . ونقل خيمته يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التل الذي كان عليه نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلى الذي اخلاه عاطلا . ومازالت الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى احضر مائة الف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلبوت . ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجل المضروب والوقت الموقوت . ووقع الخلاف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان اسلمه اليكم على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل الرهن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع . والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم . فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا خلاص أصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في الحال ، بصليب الصلبوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهي الترم الاول . وجاء الرسل وابصروا الأسارى حضورا . والمال موزونا موفورا . وظنوا ان صليب الصلبوت قد ارسل الى دار الخلافة فليس له وجود . فسألوا احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقروا به شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخلاص اسارانا مرهون . وظهرت علامات مكرهم . ولاحت امارات غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخرج الفرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكتير الى خيمته . ومعه خلق من خيالته ورجالته .

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخوذين بعكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجب ركبت الفرنجية بأسرها وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجحفلها وحفلها . وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية وتل كيسان . ونفذ اليزك وأخبر السلطان . وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة . وشامت صوارم صادفة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا اسارى المسلمين . وفي الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلوهم بأجمعهم . والقوهم على مصرعهم . فحمل عليهم العسكر وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسع فيهم خرقا واستشهد منا كردي حميدي وبدوي . وكلاهما من الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلما انصرف العدو الى خيامه ، وركد الروع بخار قتامه . شوهد المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسوا من حلل الجنان التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم . ووصفوا في سبيل الله مواقفهم . وما اكرمهم رجالا . واحسنهم في الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر الوفاء . تصرف السلطان في ذلك المال . وبسط فيه يد النوال . واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربابها . وترجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد للحاجة اليهم . فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصابوت الى الخزانة . لا للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا الصليب شديد . والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا ولاصادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل للسلطان . ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبابه . واجتمع بنانيه لاجالة قداح الرأي أصحابه . وسح سحابه وصح حسابه . وحكم فأحكم . ويري فايرم . واستشار وأشار . واستثار وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كمونه. وغرته عكا فطمع في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته باديه . وثوراته عاديه . ونكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه . واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى مواجهته . واغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته . والان الان الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى السعه . وابرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب . فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتئيا . ويقصد الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق اما اجام وغياض غلقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكثبه . وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . وموا قعته

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر . وامير من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها من المخارج والمدالج . وكشف المواضع التي يلقى فيها العدو . ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا ينقضان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . ونتخذها لمبار المرام مبارك . ولمدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على اماكن ومكامن . ومواطىء ومواطن . ووقع الاجماع على الاجماع على اللقاء والقراع . في مذاهب تعينت . ومسارب تبينت . وسهول عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفرنج اذا ساروا سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجد في اعترائهم واعتراضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا القاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران . واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطة بالصهيل . والارض مضطربه والسماء محتجبه . والقباب تقوض . والعياب تنفض . والجعاب تنثل . والهضاب تنتقل والذئاب تعسل . والزغف تفاض ،(٥٨) والحتف يخاض . والخيل تسرح . والسيل يمرج . وذوائب الذوابل تنتشر . وانبات الذوائب تكشر . ولواء اللاواء يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخفق . والبوارق تأتلق . والدو دو . والجو جو . والحديد تبوج والعديد تموج . وقد ثارت الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجت الضوضاء . وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السلطان تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فرعدت كوساته . وغردت بوقاته . وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت ذيوله . واصطحبت خيوله . وبرقت لوامعه . واشرفت طوالعه . ومضت عزائمه . ومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مطار مطارده . وتألقت الخرصان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردالضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوابح يموج على شكائمها اللعاب . وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب . مشتعل القواضب . وقب معقودة السبائب . مقودة الجنائب . معصوبة الهوادي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب ملوثة البرود بالقضب . وترك كالاقمار في هالات التروك . ومماليك في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق قد خلقوا للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العراب . هضاب على هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقباب اليلب مستعصمين . في مسرودة الحلق . مسدودة الحدق . تقهقر عنها اللهاذم . وتقهقه اذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو ولايصاب . ويعيب الاقران ولايعاب . من كل ناصر للحق على ضامر للسبق . خارق للنقع راقع للخرق . فاتق راتق للفتق . معنق الى الضرب ضارب للعنق . وفيلق همه فلق الهام . وجحفل ملتهم للجحفل اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رحب الباع . خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواخر. فزرأت القساور. وأزهرت الزواهر. وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير . وأشبه سهك الماذي بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم المحفل ٠ فوقف لهم وقفا أثرهم وألهبهم بنيران النصال . وأسعرهم . وقطع طريقهم ٠ وقصد تفريقهم ٠ وسطا على أوساطهم ، ونادى بايراء زناد إيراطهم فانقطعت أواخرهم عن أوائلهم وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الاجل ٠ وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل ، وأوقد نارا على اهلها مشعلة . وترك تلك الوقعة المجاهدين الحاضرين مشغله . ونفذ الى والده يستنجده . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا. ومتى تتفق مثل هذه الفرصة او ارى لي

مساعدا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل السلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبطأوا عن الاصراخ . فآذن روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عاديا بحماته . فحمى بمدده امداده .

والملك الافضل قد بذل وسعه . واوضح في الجد بشرعه . وقتل من وصـــــــــــــــلت اليه يده ولقد كان يضعف عدد الاعداء او تضاعف عدده . وبقي يتلهف على ما فاته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقد انهاض بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح في النصر . ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خواص الامراء والمماليك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك . واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم مدد . لم يبق من الأعداء أحد.ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخاف فيها من العدو الغاره . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره . ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان المشورة بحضور أوليائه وأمرائه . الأماجد الأجاود . والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم . ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى الملاحة وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالحوم . وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل يابالية

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بارض الا احيا ماحلا . ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاستراحة . وأقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف القاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحة رممهم . واخبره بعض الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهلكت بين عكا وحيفا اربعمائة فرس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو انكم كبستم كسبتم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن حتفه بظلافه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم الى البوار . ووافد اهل النار الى النار . ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا في عراضهم لاعتراضهم . وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم قطعوا ساقه العدو عن اللحاق بمقدمته • وفلوا عن الحدة في الحركة حد عزمته • وقتلوا خيلا وخيالة • وفوارس ورجاله • وقدروا وتمكنوا • وجرحوا فاثخنوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا قطعوها • ووقذوا نفوسا قلعوها . وغنموا أقمشة وأسلحة •

وحصدوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهـر حيفـا وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في فلهم السيف . فـأقاموا إلى هـذه الغاية لمداواة جريحهم ومـواراة طـريحهم • وإراحـة طليحهـم • وإثارة ماركد من ريحهم • وقـد رحلنا وسـبقناهم الى طـريقهم • عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم • فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهـم ، والله يجمـع شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة • ولأعدائنا مـن عبـطة • الا ونبـادر ببشراه الى المجلس لتقـوى في نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في موا قفنا شـيمته وتـروض مواحل الامال مع اوان الديمة الربيعية ديمته ، ويغلو في سوق رواجه من الدين ماظن أنه رخصت قيمتـه.وكيف لايأخـذ ذلك الكريم بثـار الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، واذا تـأمل عرف أن الخـطب عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعـد المقيم وسيقتضي دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء مـن اخبـر بـرحيل الفـرنج السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحـة الجـرد طـائرون وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهـم في جمع لهام . وقـد انقســموا ثلاثة أقسام كل قسـم راجله بخيله محفـوظ . وبـأعين القسـمين الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقـدم مـن الليل بركوب الخيل . فركب في كل خواض للغمرات . فياض بـالعزمات ، رواض الجامحات نهاض بالجانحات ملتثم مع اللثم بالنقع والدجى ، ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم بجمرة الظبـا ، على نزائع يذقلن الردى على صـهواتها وصـواهل يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظـلام بجهـاتها . وبـارين الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلائها ، وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المذون على سابق ، وكل تـائق

إلى المازق مازق ° وكل طائر في الغبار على سابح ° وكل غابق بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطيه إلى الرقاب ، وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه ، ونجتري عليه ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي ° وتصمم وتصمي ، وطيور السهام تقصد من الاحداق اوكارها ° والأوتار تنشد بالارنان اوتارها ° وهم في لباس حديد سد على السهام المنافذ ° واشتك الذشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهها غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحدودها . فحلأناهم عنها . وأبعدناهم منها . وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى الفضاء . فيدخلوا من تمكننا منهم تحت القضاء . لكنهم ارتابوا وارتاعوا . وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فانحرفوا الى الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سارين . وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزهم ونهزمهم ونحفزهم ونحزهم . حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتثلمت الصفاح . وتحطمت الرماح . واجرت الأنهار الجراح . وجرى بالأرواح السماح . وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا يرجون . وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم في مسيرهم الذوازل نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطاعن الضارب . الباسل السالب . الغضنفر الهرماس . الفارس الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدم اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسمع متنصت . ولعطاس الذقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلفت . ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لايروعة الروع اذا حفزته عزمته . ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابـدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصـفين على صافنه . ويرحـل على مـطايا الحنايا مـن بنات كنائنه الى مقـاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه . فما برز اليه الا مـن بـرزت اليه منونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف الكفر كفها . وبكر العنصر زفها . واذف الشرك جدعه . وذي انف الفتك صرعه . ولبه الغضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلية المتقشمر طنت فيها انيه صـفاحه . واجفان للاقران نبتت فيهـا أهداب سـهامه ، ووجـوه الشـجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل مـا أجـل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه خانه٠وما صانه٠فعثـر بـه في حـالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لذقل الحـديد القيام

وطعن وضرب وأتاه مـن الكوثـر سـلسبيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سـبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شـديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصـب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في اسفله ، وتقاربت مـابيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما اصـبح السـلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتـظر مـايكون مـن خبـر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحاتهم ، وكذلك ماملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقـدم في سـاقة اليزك ، مسـتيقظا الحفـظ والدرك ، فبصر بجمـاعة مـن الفـرنج مقبلين ، كبـوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقـائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شـدة ، واسر ثـلاثة ، قبـل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاحداق به من أمامه وورائه وأقام يوم الأربعاء في ذاك المنزل ، والعدو في منزله الأول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان في اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتموهم واصطلحتم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : مالذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسالك الأسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكالمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هنفري بن هنفري ، فلما سمع ملك الانكتير ماراعه ، مااستطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ماجرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الاصحاب ، واستحضر من أسد غابة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيل الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما اسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معتقل افعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على أدهم ، فأحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت بذور ضوامرها الأرض الى السماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . الترك على الاكاديش ، وأحدقت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت بيضها لمعانقة الاعناق ، ولمع شرار النصال في دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج ، فان الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعاذقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الاسباب ، وقربوا من ارسوف ، وقد لاقــوا منا الحتــوف والخســوف ، وضــاق خناقهم ، وحاق بهم ارهــاقهم ، ونشــبت الجــاليشية فيهــم بالنشاب ، وشبت نيران المرهفة في أولئك الأوشاب ، فـاحتملوا في جلودهـم الجرح ، ومن اجلادهـم الطـرح ، ووجـدوا الموت الغـالي مسترخصا ، وايقنوا بـالدمار ولم يجـدوا مخلصـا ، وعرفـوا ان البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهـم لما فوق ما لقوه مـن النكاية غير محتملة ، فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحـدة زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلئها شـوارع القنطـاريات عن مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت مـن وجـوه النصر بالصفور ، واسـتشهد في تلك الفـورة الثـائرة ، والثـورة الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرمـاح اشرعوا ، ثم كرت عليهـــم نخـــب الرجـــال كرة اردتهـــم وردتهـــم ، وصـــدفتهم عن الاســـتنان في جـــدد تلك الحملة وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معـاطس ، وفـرشت بالعراء لهم أشلاء ، واتخذوهم طعانا ورمـاءا . فنزلوا في ارســوف وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبـت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اســد العرين وسدد الى نحورهـم الشـوارع وقلع منهـم قـلائع . وثبـت عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمـي في مـوضعه الأول ، وكانت العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشـبة ، فلما رأى العـدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبـر ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السـلطان تلك الليلة على نهـر العوجاء ، واقام العدو يوم الأحـد في مـوضعه ، منكوبـا بتعـــب تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بهـا ورطـه ويتلاف ، ونازلتهم العساكر بالنوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا.

- ٦١٥١ -

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكا

وسلكوا في مواضع ماليزك عليهم فيها سبيل. ولا لقداح القراع في مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومن المورد الى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة مابين المنهلين ، واذا لزوا لم يبعدوا بين المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه ، وفي كل مرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازله ، وأوردناهم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم الحمام في كل سبيل ، وسار صباحهم منا في كل مغدي ومقيل ، وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال ، وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وارهقناهم ،وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور . ودائرة السوء على اهله بنا تدير ، وماء اهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخر موعده في نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم ، فمنها يوم رحيلهم عن عكا ارهقتهم اليزكية الزكيه ، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنيه ، وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك .فتولى اسعار لهب المعترك .ووقف لهم في المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن اولهم. وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك ، وفتك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعور عن السهول . ولم يبق اليهم

نهج للوصول ، وأقام الفرنج في تلك المنزلة اياما ، وقد نالت معاطسهم ارغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، وأحكموا التدبير ، واستأذنوا المسير ، ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولن تزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل راكبها الا وهو من ذوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فاذا لزوا بالمنازلة ، ارتزوا الى المنزلة ، ولاذوا وهم اهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعاديهم شاكين في منهتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم النشاب واعجزهم وازعجهم وأحرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم ، كابروا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الأطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعدوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طلبه ، وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية ، والأنف والأبية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في الذوبة من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمه من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلفه وتلافى ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى بساسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها ورابطهم بالأسود في عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرمله ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحله ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امر ان الخيام به تبنى ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الأمر .

-٦١٥٤-

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلدين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل ذخائره ، من كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنبا متجبنا. وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فندخلها اتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذ يوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خلل ، ولا الى يدها شلل ، ولا الى حدها فلل ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفتها واستحسنتها واستلطفتها ، ورأيت سورها قبل فصم سواره . ونورها قبل نيول نواره ، فما رايت احسن منها ولااحصن . ولااحكم من مكانها ولاامكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاوطار والاوطان . وساءت اسواؤها . ونأت اذواؤها . واناخت لاواؤها . وباخت اضواؤها . وسمع غناء المعاول في مغانيها المعوله . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة . وناحت تلك النواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف . واخافتها المخاوف . وذكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف . ونعتها الذواعب . ونابتها النوائب . ونزلتها النوازال . وغالتها الغوائل . وسفتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوه . وصوحت مجاني مبانيها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها . وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طلولها واستوقفت . وأسيت عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت . ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع . وأهديت لسقياها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من سكانها . وتخاف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله . وتفضيل جميله باد على التفصيل والجمله . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد . وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم الخميس . واعاد اليه رسم التأنيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبة . وقد نال بما رتبه من مصالح القدس المثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئا من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقاه الملك العادل . وجاءت منه الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جدة . وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضافرة . فانه تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خيالته متنكرا . ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقذ . والطعن في لبته ينفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به واسره . وافلت اللعين واخفى أثره . وقتل واسر من خيالته جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون . وهي قلعة منيعة معجبة الظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وفل غربها وثلمها . واشاع بها الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . واذفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع . ولا شتا ولا صاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف . وتحلحلت به الصفوف . وتمخضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . وامل النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدها الجهاد . وانضاها الطراد . وفرى جلودها الجلاد . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنفر مـن رنة الحنيه . وأنة المبـرية . كأن عندهـا للاوتـار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاريها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من النفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفـار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد اسـتشهدت . واما النشاب فانه قد فني . بعد ان اتخذ من اخشابه جميع مـاوجد واقتني . وقد عدمت اشجاره في منابتهـا . واعوزت اخشـابه مـن مناحتها .ونفضـت الكنائن . وانفضـت منه ومـن كل مـايذخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومـايجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشـون . وينصـلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السـنين التـي اسـتمر فيهـا القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعهـا العمـال . وحسبها ان نصولها اعدمت مـن حـديدها المعـادن . وخلت مـن نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هـذا الفـرض وحـده . مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . ومااستمر على مساعدته . وموازرته ومعاقدته . الا صـاحب الموصـل وسـنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد مـاجار . فهـو يحضر تـاره بنفسه وآونة بولده . ويستمر من جـد الموازرة على جدده . ويواظب بعدده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد لملك الانكتير مـن المراسـلة والرغبـة في المواصله

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصـافاه . والمواتاة في الموافاه . ومـوالاة الاسـتمرار على الموالاة . والاخـذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظـاهره . بـالمصاهره . وتـرددت

الرسل اياما . وقصد التئاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير . وان يعول عليها من الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري فيها الامر على السداد . وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها، وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولايمكنهم من الحصون التي في الذرا . ولايقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد . وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب. وما اخر الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الغرض وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل امر الوصلة . واراحة الجملة، وازاحة العلة . واعتقدنا ان هذا امر قد تم . وذشر انضم . وصلاح عم وصلح أذم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع يذقضي بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغذم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع النشر . وذاع السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجبهوها بالعذل والذع . ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئننا بافجع ملم مؤلم . وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما تعسر . وان ابى ابيناه . وان اتى اتيناه . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ماطابت . وسلت بعد ماسألت . ونزت بعد مانزلت . وكرهت وكانت شرهت . وكانت اكتحلت فودت انها مرهت ، فأرسلت الى الرسول واقبلت عليه القبول . ثم تصلبت في القسم بالصليب . انها مجيبة الى التقرير والتقريب . وانها مسارعة الى التكمين . لكن بشرط الموافقة في الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتظام العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير . وصغير بصغير . وبشر اولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير . وعطل التقدير . وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى سارت اليهم بكره . واحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بساط نشاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه بتقريبه وتمكينه . ويليه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصل . ولسمو منزلته دنو المنزل . وعلاء الدين ابن اتابك الموصل عن يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره . ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلته منافس . ثم تفرق الناس بانس جامع . وعرف شائع . وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرمله ليقرب من العدو ومواقعته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقد اركب العسكر

القتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حـالي الجملة . خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خـرج العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهـم . وتـكاثروا عليهم . وقربوا من خيامهم . وأخذوا عليهم من ورائهم وامـامهم . وناشبوهم بالنشاب . وكاثروهم بـالأوباش والأوشـاب . فـركب الفرنج اليهـم ركبـة . أوجبـت رهبـة . وحملوا على الناس حملة واحدة . وحلت عجاجة عليهـم عاقـدة . فـاندفعوا بين ايديهـم . فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بـالشهادة . وكانت مسـعاتهم الى السـعادة . وكذلك في كل يوم ركب السـلطان مايخلو من وقعه . ولابد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امـر السـلطان رجـال الحلقـة المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وامدوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا عثار انحصارهم في الاصـحار بـالانتعاش . ولقيتهـم اعراب على عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحاب . فركبت اليها من الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصـدور الحمـام ، فـاندفعت العرب امامها . وحققـت انهـزامها . ومـاقدرت على قصـدموضع الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشـم العـرانين دون العـرين . فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفـاتهم الطلب . وحضروا باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخـرجوا على ظـن انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشـبوا بـردهم عن وردهـم . وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه مـن احضـار وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم اياز المهراني. وجاولي الغيدي، وصارو . وسروا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسبان معروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخيل تقاد اليه . والأسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس . وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقه اظهراها ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف بالصنيعة ليتفقد الأساري الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلاف . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المركيس . وانه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى المركيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكلما ابرم عهدا نقضه ونكثه . وكلما قوم امرا عكسه وعاثه . وكلما قال قولا رجع عنه . وكلما استودع سرا لم يصنه . وكلما قلنا يفي خان ، واذا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحد سابع عشر عاد السلطان الى المخيم بالنطرون . وأقام على الثبات والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

ارسلان صـــاحب ملطيه مـــودعا وركب الســـلطان وســـارمعه مشيعا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصـداق مـائة الف دينار . ومضى وقد حصل على نخائر من استبشار وافتخـار . واسـتبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثـالث ذي القعـدة وتقـدموا الى الرملة ونزلوا بها .وخيموا في اقطارها وسهوبها .ولم نشـك في انهـم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام الســلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منهـا زوايا ، ولنا في كل يوم وقعـة شـديدة وفتـكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالت الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحلت الأوعار . فعـزم على الرحيل ، وامر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القـدس يوم الجمعـة الثـــالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهـاد الى بـركة القدس صائرون . والقاضي بهـاء الدين بن شـداد يسـايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبـل العصر . وقـد نشر السـلطان لواء النصر . ونزل بـدار الاقســاء المجاورة لكنيسة قمامه . وذوى بهـا الاقـامة . وشرع في تحصـين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجةفي قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العســاكر المصرية . ووصـل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وأذن ذلك بتزاحم الافكار وتـراجم

الظنون وتزايل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة . تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصبحوا الا حصنهم المجذوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها . واسروها وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعمى كريمه . وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة . وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنة على الحسنة غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص . وصلى الناس في القبة العيد حواليها العراص ، ثم انصرف السلطان وقد بر عمله . ودر امله ، ووفر اجره . واسفر فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم واموالا . وساقا خيلا وبغالا . وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين . وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم الحروب . وزادت الكروب وضاقت عليهم الارض . واستولى على

عقود عزائمهم النقض ، ورأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا . ورحلوا الى الرملة عائدين . وبالسهول من الحزون عائذين ، فان الثلوج دامت على اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضح في النصر من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في الصخر . وقد سفرهم بنفقة . وجعلهم من الاحسان على ثقة . واصحبهم بعض حجابه . ونداهم بندى سحابة . وسير مع المندوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهدهم في كل يوم بتفقد بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سور وثيق وأحضر من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب . بناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبه القدس المعمور . كان آمنا من قصد العدو المحذور . وفي عصمة الله من المخوف المحذور.وقسم بناء السور في مواضعة على اولاده واخيه الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه . ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

بنفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلماني واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستنجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات الجهاد . والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيوش المترادفة المترافدة . والجنود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهاطلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الأرواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستوحشا من ابطائه . متعطشا الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضى الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماردين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوذ على جميع مابها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في ديار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدأ به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر .
وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبته ، وهبت روعته . ودبت
الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره .
وارتجت تلك الآجام من زأره . وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد
ببلائه . وهابت الأعداء هيبة اعدائه . وزلت الأقدام
لاقدامه ، وانخفضت الاعلام لاعلاء اعلامه . ففي عدله من جبل جور
جبلة الجور ، وانهب بنهابه اليها فوران
الفتنة على الفور ، ودخل قلب قلب ، وحكم في عداتها الغلب
القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان
وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق
باذن الشنف شنفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته
غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته
عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمته أمته ، ومماأرجأ له نجح رجائه
رجاله ، ومماأبطأ له عن اعانته أبطاله ، واجناه ثمر الطاعة
أجناده ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجاده ، وجر عسكرا
مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب
بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بترا ، وصواهل
ضمرا ، وانهض كمته وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته
وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، ونسوره وبغاثه ، وسمانه
وغثاثه ، ومتانه ورثاثه ، وشباعه وغراثه ، وجاء في سواد اسود
منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل
العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر
وتصعد ، وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الأعلام
بالأعلام ، وأذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديها قد
ملأت الوهاد ، وأدنى الى الآساد الآساد ، وأغرى بالجلاد
الأجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع
المراح رماحه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران
دروعه ، وهاجت غران جموعه ، ومالت المران ، وجالت
الأقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعرت
السهول ، وانقض القضاء، وانفض الفضاء، واشتكت الأرض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها الى السماء نقعا ، وحثت في وجه الفلك ترابا ، وحثت الأتراب الأتراب طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خادره ، وانتشار بوادره • وانتهاض قوادمه ، وارتكاض صلادمه ، وانقضاض شهب قواضبه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب ، وفض على الفضاء سحاب الصحاب ، وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعلوه على العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل لحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الأقران القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون ، وكل شجاع اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع، وكل طائر بأجنحه السوابق ، زائر بأسلحه البوائق ، محلق بخوافي الخوانق ، مطرق لطواريء الطوارق ، وكل ذمر مشيح بالذمار شحيح ، وكل قاس قوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف، وكل صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق ، وأيد رجاء الرجال بأياديه ، وقوى عزائم أوليائه لأضعاف أعاديه ، ورغب بالرغائب واملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشتمل ابيض يكشف ظلم الحروب ، وكل من يخال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ،وكل من ينال اعتزاز الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصل بها اذا فارقت اغمادها المرافق ، وكل من عنانه في يمين الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل من ذبال سمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب ، ووجوه صوارمه تبكي وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتدمي ، وكل اشعث الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيظمي • أباء حمي • مجرب محرب • مقرب على مقرب • مظهر على

مطهم ٠ جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حليم تحمد في الوغى جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صـهلاته ، وكل بحر مستلئم بغدير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لابس حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط وتلوا استدرك الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى هزيما ، ولوى هشيما ، وأغنم العسكر التقوي سلاحه وخيله ، وجر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر بالملك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا، واصحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح مقفلها.وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها الأمداد ، واروى فيها من عزائمه الزناد ، وجاءته عساكر أرزن الروم منجدة من جده ، موجدة لما لها من موجدة ، تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق ، وكأنها في الأهبة والأبهة من ملوك سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجذود، ووافقته السعود ، وخافته في غاباتها الأسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت ، واستدنته الممالك القاصية ، وأطاعته المقاصد العاصية ، وتشنفت له مسامع الأقطار بافراط السمع والطاعة ، وعم الأمحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله مجاعة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلأت الطرق بالوفود والجذود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينا هو في غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني وزيادة الأمل ، عن زيارة الأجل ونزل المنى عن نوازل المنون ، وسكن الاتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقرض

عهده وانقضى ، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده بإظهار شعاره قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جدده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مامنه فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الأمر على أيثاره. وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فيالله من حسام أغمد ، وهمام ألحد ، وركن وهن.وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصبح كسف.وبدر خسف.لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل امه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ماشرعه ، وقد سبق في الكرماء ماذكره ، وذكر في المكارم سيفه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لحني النصر مشهورة ، فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وفله ، ومازال في غزواته مثيرا التراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

الثرى بحق خلقه معــه فــا سترهنه، وغارت عليه الأرض بــانطلاق سموه ، الى السماء فــا عتقلته ، ووجــدته في اوج الفلك في النيرات فذقلته ، ومــاكان اذكاه واذكاه ، واصــحه واصــحاه ، وابهجــه وابهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شفيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصيب بعد ماأصاب.وجواد بلا حســاب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والســلطان الى الأنس به مستنيما ، فعرض له مرض اســتأذن لأجله في العــود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ماطلب ، وتــوجه مــن القدس سادس عشر ذي الحجة ، وا ســتقام على المحجــة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قــرية غبــاغب ، وســتر التـــراب منه المناقب ، ووصــل الخبــر بــوفاته الينا يوم الخميس ثــامن عشري الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابــن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعــروف ببهلوان في ســنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصــلحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغــرل بــن ارســـلان تحـــت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنه ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأنف السلطان من كونه تحت حجــره ، وبحــكم نهيه وأمره ، فــانه لم يكن له صــاحب ولاغلام الا مــن عنده ، ولم يذفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه مــن الخيل ، ودام غائبــا في نواحــي دامغـــان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل بــه عدة مــن ممــاليك

بهلوان الخواص ، وسلكوا معه نهج الاخـلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في سـلكه ، وقـويت يده . وتـأيدت قـوته . واجتمعت كلمته . وتكلمت في الامر والنهي جماعته . ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء ومماليك بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام مـن مـكرهم بنقض . وقـالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهـم قبـل أن يبـطشوا . وعثرهـم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهـم بحضرته وهم غارون . وسـاءهـم بـاغتيالهم وهـم بـالمغالاة فيه سارون . فنفر منهم كل آنس . وحفظ نفسه مـن كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل أرسلان فأزعجه . وأخرجه مـن دار ملكه وأحرجه . وأجلس سـلطانا آخـر مـوضعه . وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه . وخطب لمعز الدين سنجر بن سـليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضـاه بـالاسم . وأجـراه على الرسـم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همـذان مـن قـزل ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قـربه بعـد . واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشتد في النهب لشدة النـهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبـث العـدوان . وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لامر توهمه . ولخاطر لم يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصـول إلى الامير حسـن بـن قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وآزره وضافره . وظاهره بعد أن صـاهـره . وزوج أختـه منه . وحمـى جانبه وذب عنه . وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتـى يصـالحه . ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا . واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان . وعادت الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همـذان . فمضى وراءه قزل ارسلان . فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبسه في بعض القلاع • وأبعد عينه وأثره عن الابصار والأسماع • فاتسقت له المملكة • واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخربت • وقتل في ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف وزحوف . وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية • وقووا أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمام قوته والامكان • فلما اعتقل طغرل • واستمر أمر قزل • مضى إلى أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في المحال • وأجرى عليهم القتل والاغتيال • ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي . ونال ما هوي . ونشر من أمره ما كان طوي . وجلس على سرير الملك وضرب الذوب الخمس . ووجد بعدم من يوحشه الانس . ولها ولعب . وشرب وطرب . وغفل عن القضاء المشتبه . ونام عن القدر المنتبه . واغتر بالعيش الرفه . وحلم عن الخطب السفه . وبات في قصره . وقد غاب في سكره . وهو بين خدمه . وحشمه . وعسسه ، وحرسه . وعتقائه وأرقائه ، ومستخصية ، ومستخلصية ، فوجد على فراشه وهو قتيل ، ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل ، فنسب قتله إلى الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى ، والله أعلم بما به حكمه أجرى ، ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون أربابه ، وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه ، وجمع له ملكه ومتعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر إلى اذربيجان وأرانيه سائقا إليها واستولى عليها . وأما السلطان فانه أيس منه . وسلا من كان يواليه عنه . فتعصبت له امراة متولي القلعة ودبرت في خلاصه . وهونت على زوجها أمر استصعابه واعتياصه . واستعانت بمن أعانها . وأعلت بإعلاء شأنه شانها . ولما برز نخل مدينة تبريز . وكانما الكير أخرج الابريز • ثم جمع ومضى على سمت همذان • فلقي قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان • فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوف في هذه السنة بدمشق من المعروفين مـن أصـحاب السـلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا • وفي حلبة المكارم جريا • ومن الخيانة في ولايته بريا • ومن العار عريا • ولم يزل زند مضائه وريا • وكانت له سـياسة ورياسـه • ونفس ونفـاسه • ورأي وفراسه • وفطنة وكياسه . ومروة وفتـوة . وثبـات جنان وقـوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلمـا ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمـالها حتـى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الان مـا باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعـاش غنيا . ومات جشريا . وورث السـلطان بعض مـاله .وذلك مـا فضـل عن افضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفـاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفـا ، وفقـه الله في بـدايته لهـداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشان ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طبه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صـحيح الحجـة بـوضوح المحجـة ، ولم يزل له عند السـلطان وذوي الجـاه جاه ، ولجده انتباه ، ولمداواته بـالشفاء شـفاه ، حتـى حـان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكرها واشكرها . وعارفة اعرفهـا ولا أنكرهـا . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صـحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهري العرض ، وانتهى اليه بـدمشق مـا الم بي من الألم ، فتقسم فكره من خبر السـقم ، وركب ووصـل في يومه حتى ادركني ، ومـرضني ومـا تـركني وداواني حتـى

ابلت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه واحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا واعطاه في بنائها الوفاء.فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ الشيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق دخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء.وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من أحسن المدن واحصنها واحكمها واوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الأجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

والمؤمنين المعنين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلاكله . وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمه ، مقام الأنبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين . وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الأشراق الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الأوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والأداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الأمر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح،فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده ، وهذه لا شك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدات ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العدات ، والعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب . وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لاتفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

- ٦١٧٦ -

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مذ يسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع الليل النصر صبحه ، الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه . وصعاب اعماله وشعاب احواله بنصرة آرائه ونصرة آلائه مروضه ، وقد استناب فيه اخاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا الى ان استشهد في شعبان سنة خمس وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان الأمير سياروخ بالقدس مقيما . والنظر في مصالحه مستديما . ويضم من امره مايراه منشورا ، وكتبت له في التاريخ المذكور باستقلاله منشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى من داناه من الكفر ودنسه ، ونزه البيت المقدس من رجس اعدائه المشركين بأيدي اوليائه الموحدين وطهره وقدسه ، وانطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه،ومهد الشرع واسسه .وبطل الكفر وعطله . وارغم الشرك واتعسه ، وعلى آله واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصفى مورده ، وازكى مغرسه ، وبعد فانا مذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامن ايامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الأفضل الأكرم الأنفس ، مانزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايثاره حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي ما انخفض من منار الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيي به من رسوم الايمان

ونجدد من معالمه ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد اختبرنا الأمير حسام الدين فألفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه باعباء الأمانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا ماحضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس واعمالها ، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من ادناس ادنى الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم . وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل ما يحله ويعقده . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجناده ، فشرعوا في انشاء سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصبح ، مشمس مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره . لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما تغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمر احسانة واحسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم الشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فض جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلداً لايتأتى قطعة . ولايتهيأ بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلمود ، وصدفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرح جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثنى ، وكلسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاقا يعقد ، ورواقا يمهد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تقعر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج

تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل مافي الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأذفه من عمله . ويحلي بالافضل مايبدو له من عطله ، وكان ذلك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال يذفقه نخر باق . وانه إن فاق كريم فبإذفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله وا ستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لمسلم فزع . ولا فيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيره . وقهقر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي اقدر السلطان على ماعجز عنه الملوك وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض اعمالها ، مجدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند ابليس ، فشاهد دخانا على البعد ، وماعرف ماعنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكبسة وقد بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثر الفرنج عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ، والفرنج تباريهم ، وساقوا اثقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على الاقدام اقدامهم . ومافقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه . واستوى في نهجه . والناس يذقلون معه على خيولهم .

في قفافهم ونبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه من الامراء . فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك البساط . وكنت قد مضيت فردني . وبتقريبه امدني . فلما فرغ وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صلى هناك الظهر وركب عائدا الى داره . آيبا بايثاره وحسن آثاره . فائزا بسرور اسراره. وخير اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجرد في سرية سرية . بارية رقاب ذوي الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم على يبنى .وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثنى عشر اسيرا . وخيلا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جرديك . وعسكر القدس وجماعة من المماليك . على ظاهر عسقلان . واوفدت بتناصرها على الكفر الخذلان . وغنمت ثلاثين اسيرا قيدت في الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت على يبنى وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطريق وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت . فكبست وكسبت . وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمالها واثقالها . ثم اغارت على يافا فقتلت وفتكت . وسفكت دماء وهتكت ، وعادت بالغنيمة والسبايا ، واستغنت بذقودها عن

النسايا . وعجز جماعة من الاسارى عن المشي فضربت اعناقهم ، واوجب ذلك للباقين في المسير اعناقهم ، وعادت سالمة ساليه ، غانمة غاليه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين . واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى باياالته لها احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثلث نابلس واعمالها لمصالح البيت المقدس . وتشييد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على ولده . وتركه في تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي الُاسرى قوي الازر . فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ، وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوف رزقه لموافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان . بل ذئبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما ودخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه الحين . وزاده جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرفيقين ، فالفوهما من الفدائية الاسماعيلية مرتدين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكتير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، ودخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا اقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهما اسباب التأنيس ، ثم علقا بركابه ، وفتكا به ، فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فيالله من كافرين سفكا دم كافر . وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم مذكبا منكسا . تحكم ملك الانكيتر في صور . وولاها الكندهري وعذق به الامور . ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى أنه احق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها. وذلك افظع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من ينسب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه.ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه ، وننزع ماخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلاله باسفار الصبح ، فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه ، وذهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشرى شره ، وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق . فاظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عاديته . ولايأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جذونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها لملتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقي في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وابقيت . وبالميره والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسلمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها . وداروا حولها واشرفوا عليها . وأنفذ السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . دقضهم وقضيضهم . وسمرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم وذابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرقوه . وحشوه واحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعـرقبها . والى النخـائر فـاضرمها والهبهـا .
وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، وا سروا منهم عدة
يسيرة . وكانت هذه النوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم
يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على مـاء
يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغـي . وذلك في يوم الخميس
رابع عشر الشهر . وقد انسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر .
ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحبـاب .
فخرجت عليهم اسد اليزكية المكمنة مـن الغـاب . فقـاتلتهم قتـالا
شديدا . وتركتهم بحد الحديد بديدا . وغادرت حبل قصدهم الجـديد
جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهـم عن جهتهم ترديدا ، وقتل منهم
في جملة من قتل كند كبير . واتاهـم من مبـاريها لهـم مبير . وعادوا
مفلولين مثلومين . مخذولين مهزومين . مثلولين مهضـومين . ثـم
رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين.
وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبـرين . فتقـدم
السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهـم مبـارين . وفي يوم
السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصـافية ، بجمـوعهم الوا فـرة
الوا فية . ونزلوا يوم الثـلاثاء السـادس والعشرين بـــالنطرون .
فأرجفت الالسنة بانهم على قصـد القـدس على حسـب تـــراجم
الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهـم البـلايا . واظهـر
السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ،
وفرق الابـراج والابـدان على الامـراء والاجناد . وذوي القـــوة
والاستعداد . وامرهـم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب .
وخـــرج الناس الى خيامهـــم يتخـــــطفونهم . ويعســـــفونهم
ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعـة ، وكبسـناهـم دفعـة بعـــد
دفعـة ، ومـن ذلك ان بـدر الدين دلدرم كان في اليزك ليلة الجمعـة
التاسع والعشرين. فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا
من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفـرنج مسـتقيمون على
النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم
السبت نزل الناس اليهـم وقـاتلوهم في خيامهـــم ، وألهبــوهـم
بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبت اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحز اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله ، فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار ، وللعدو اقدومهم الانتظار ، وعنده بجوا سيسه الأخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكتير ركب في سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل ، ولايدري اي جانب قصد ، ولأي نائب رصد ، وجرد السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرو من الفرق والفرق ، وترك الأحمال على برك اخرى سائرة ، ورأى الأمنة ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة ، والأماني تغره بالمواعيد المخلفة ، ونادى تلك الليلة انا جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى الصباح ، فاغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح

بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقة ، وعاق ابن ذكاء باذكاء بنت الداهية العاقة ، فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بأمنه سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على وجهه . وربما كر بكرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانه ، وانهزموا نحو الأثقال ، فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية وعاد معظمها الى الديار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظنت الظنون وارجفت المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر مايحملهم وينهضهم ، ومن المال مايبطرهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند مسلوبين ، ومنكوبين منهوبين ، فسلاهم السلطان عن أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الأخذ بثارهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملأ العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والقتال ، وحلا لهم ماحاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وماجرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضيء قد سفر ، وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالسير والسرى اسرار ذوي الأسرة ، بادية على صفحات صفاحه نضرة النصرة ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افاويق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدومه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب الترحيب به صدره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته ماثلا ، وهز عطف الابتهاح اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل مافي يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولانوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي ينشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماأرهجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لفضله ، ولائذا بجنابه ، عائذا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مروضا ماحل باذواء الائه ، فاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذرة ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واستقر ان ينزل عن اقطاعاته بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه ، فأبدى على الرضا بذلك وجه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمادى الأولى . وكتب السلطان بعود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرنقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة ما منه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، من يجد في تملكه الامكان ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من

القصد ، ودبروه من الكيد ، امر الملك الافضل بمباراة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ، وذكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهز السلطان فرصة الغيبة ، وأوقد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لانتظار العساكر ، ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق أحجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ مابها وكسح ، ووجدت الاحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل مذفعة ، وامتلأ البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حماتها الأمان ليكونوا لها مسلمين,وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا، فظن ان الغنيمة تصدفوا، فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الاكابر ، على

أن يدخلوا تحت حكم الاسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويفدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احادا وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ماعينوه من الاقتراح . ومازال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكتير في البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولاندفع بعد فوات الفرصة الندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على توهيمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونفضت رقعة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحا عظيما ، وفضلا من الله عميما . فقد امتلأت الايدي بغنائم تلك المدينة . ووهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنيه . وقتل من اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من مقدمي القلعةنيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المحمود . وانما وقع التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت بعد الاكثاب . وافلتت وقد وقعت في الحبالة . واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة . واذن نشاطهم بالفترة ومالنتعشوا ولاانجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالمسار الوجوه . وكان ولده الملك الظاهر ايضا قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح يئس ان يؤسى . وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه . وفازت قداحه وحاز السني قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت اوائلها الاواخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متأخر في المخيم . بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من اهله بجمع الشمل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجترأ . والقدر قد اسعد والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو واذهب الكدر . وتلك البرية قد حوت البريه . وجمعت العسكرية والكمت الجارية والكماة الجرية . والاعراب والعراب . والمحارب والحراب . والاجاود والجياد . والاساود والاساد . والبياض والسواد . والعدد والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ماانهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة . وافاويق النصر على حفولها تارة وبكئها اخرى مستدره . والحرب سجال . وللاسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتداء . والحادثة متصله والواقعة مستقبله . والنعمة من الله في اجراء اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عداته في قمع عداته مؤمله . وما ينقضي يوم الا عن نصرة تتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع العدو يتبدد . وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخد السيف من حده بدم الشرك يتورد . وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه الايام . من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . وذوبة مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقدس . ولم يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهم . وعادوا خائبين . ونكصوا هائبين . واستأنفوا مكيدة اخرى .

وشرعوا في شر خلاف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتملي بنات الخلل الأسد والعرين .(فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين)[الصافات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول .جاءهم الغوث في البحر. وظهرت منهم امارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المذشية من كاس نجيعها الطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصابهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم ماصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعه . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بذشر نجاحها وبسر مافي اقتراحها سافرة.

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لاقبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل . فاظهر انه إن لم يهادن اقام وا ستقبل . وللشر استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى مراده . والبحر قد آن أن يمنع راكبه ، ويسئم بالامواج غواربه ، فان هادنتم وطاوعتم تبعت هواي ، وان حاربتم وعصيتم القيت مهنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ، وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولاتغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحن اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا رغبتي . واصيبوا محبتي ، وادعوني العهد ودعوني .ووادعوني وو دعوني ، فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم في الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ماعندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادىء الى الغاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في قوه ، وفي ترقب نصرة مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين وكرم ومروه ، وقد الفنا الجهاد . والفينا به المراد ، والفطام عن المألوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ، واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل ففيم الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الأجل ، ومن الف الحلية كيف يألفه العطل . ورأيي ان اخالف رأي الهدنة ورائي ، واقدم بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي • ومالنا بطالب البطالة • فارغب عن استحالة هذه الحالة • وقد رزقت من هذا الشيء فأنا الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولايستمر الاماتمره من الامر • ولايستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حــق نفســك مــن عادة السعادة ٠ وارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحــة ٠ والاعتناء بالوسيلة الناجحة والانف من العطله ٠ والعــزوف العــزله ٠ وانك تجد من نفسك القــوة والاســتمساك . ويقينك يعــرفك بـــالاماني الادراك ٠ فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت ٠ والرعايا فانها تعكست وتعاثت . والاجناد فانها نصبت ووصــبت ٠ والجياد فانها عطلت وعطبت ٠ وقد اعوزت العلوفــات ٠ وعزت الاقــوات . وبعــدت عنا العمــارات ٠ وغلت الغــلات ٠ ولاجلب الا مــن الديار المصرية ٠ مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية ٠ وهــذا الاجتمــاع مظنة التفريق ٠ ولايدوم هذا الاتساع مع هــذا الضــيق فــان المواد منقطعة ٠ والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطــب ٠ والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي الســعر ٠ وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاد المنه ٠ وصبروا على المنية في طــريق الامنيه ٠ وابــوا في الاقبال على دينهم قبول الدنيه ٠ والصواب ان نقبــل مــن الله الاية التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للسلم فــاجنح لهــا) (الانفال ٦١) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها ٠ وتــكثر في مــدة الهدنة غلاتها واثمارها ٠ وتستجد الاجناد عدتهــاوتستريح زمــان السلم ومدتها ٠ فاذا عادت أيام الحــرب عدنا ٠ وقــد اســتظهرنا وزدنا ٠ ووجدنا القوت والعلف ٠ وعدمنا المشــاق والكلف ٠ ففــي ايام السلم نستعد للحــرب ٠ ونســتجد ادوات الطعــن والضرب ٠ وليس ذلك تركا للعبادة ٠ وانمــا هــو للاســتجداء والاســـتجداد والاستجاده ٠ على ان الفرنج لايفون ٠ وعلى عهــدهم لايقفــون ٠ فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا ٠ وقد شقوا بمــا لقــوا ٠ ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويســتقل بــالملازمة . وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي ٠ واجــاب الى مــااقتضي . وكانت قد بقيت بين العســكرين منزلة واحــدة ٠ والعجــاجات على الطلائع متعاقدة ٠ فلو رحلنا رحلناهــم ٠ وعلى الهلك احلناهــم ٠ لكن مراد الله غلب ٠ واجيب ملك الانكتير من الصلح الى مــاطلب ٠ فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نســختها ، وعينت مــدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح نوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وماهو لايزال مستمرا عليه من جهاد العدو وقتاله . وماكان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من الذفائس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . وبذوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لايستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فنكصوا على اعقابهم . ونكسوا ماضربوه من ارائهم وارابهم . وعلموا عقبى ماجهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ماوصلوه . ونكثوا من عقد القصد ماابرموه . وشرعوا في أمر آخر توهموه • ومضوا واستأذفوا الاستعداد . واستنهضوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحاميه . ورجال الصبر على النار الحامية • ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري شآبيب الانابيب . مستذفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجراه . الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نمى خبرهم . وطار شررهم . وخيف ضررهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه . ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بفزوته اليها عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا . وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر النخر . وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لايمكنون من الدخول اليهم من جاءهم النجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم . وكندوهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم العجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافلة حافلة . وتواردت في الاسراع إلى الصريخ ظلمانا جافلة . فاجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر . واتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر . وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هز له الاسلام

عطف الاغتباط . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لايجابون إلا بالاباء . ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها . وأولياء الطاعة وألباؤها . واشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة الممكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا: عسقلان. وغزة. والداروم. ويبني. ولد. وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا: بيافا. وعكا. وصور. . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى القرار . وأمورهم الى القرار . وخلوا ديارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها. وأخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وابرام معاقد المعاقل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولايرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الاراء على ان المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خاسرة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمنا تاما . وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما . فهي سلم أذكى من الحرب فيهم . وانها تقصيهم من هذه الديار بل تذفيهم . والى متى تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفق هذه الامداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من ألوفه سوى مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وانفقوه . وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد آن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم ذاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوته . واستكثر من نجدته ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة الاشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمره . وأمن ذكره ومكره . وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضح بسنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته . واشتغل باتمام السور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنج كافة في زيارة قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق . وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح.ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح . وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سوله . فقيل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثاره . ومن زار برد قلبه . وتنفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه الديار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصـلون إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود . ولاذبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكتير مرضا ألهاه عما اشتهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر وأقلع . وعجل في مفارقته وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهـو الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الاخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه مـن الازواد والنفقـات . والثياب والكسوات . فقيل له لو كتبـت إلى أمير المؤمنين وأعلمتـه بحجك وعرفته بنهجك . حتى لايظن بك أمر انت منه بريء ويعلم أن قصدك في المضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافـاق . ثـم هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مـرر حبلهـا المنتكث . وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهـم الامـور . ولايغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهـم . ومليء البغي إهابهم . فمازال الجماعة بالسلطان حتـى حلوا مـن العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ماأوقده . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهـنيب عمله ومعـاملته . وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهـو تـركي يقتـدى بـه في زهادته وحسـن سـيرته الشـيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا مـن الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصـدره . وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جرديك . وقال تهديك في الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتمـاع خـلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتـول آخـذا بـالحزم في تثبتـك

وتأنيك . وتـرويك وتـأتيك . وولى علم الدين قيصر اعمـال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج اليها وتولاها . وأمـر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقـطعين ، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وأذن سؤاله عنها بـاجابة سؤلهم وسولهم . فانه كان وقف دار البطرك مجـاورة قمـامة لهـم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحـكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعـل كنيسـة صـندحنا عند بـاب الاسباط للفقهاء الشـافعية مـدرسة . وردهـا بنية على التقـوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمـامة بيمـارسـتانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامـراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القـاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السـلطان على عزم دمشـق مـن القـدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبـر الاحوال . وأقام بعدله الاعتـدال . وأفـاض الفضـل والافضـال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركه للداوية . بـالهمة الروية والعـزمة القـوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصـالحها المتـوزعة . وكثـرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق الرنق الى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مـظالمها . واضـحك بـالعدل والاحسـان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمـات سـننها الضـائرة .

وأصفى بهـا شرعة الشريعـة . واضـفى ظـلال الرعاية الرعية في مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بـالفريديسة . ورتعنا في مـروجها الانيسـة . واصـبحنا راجلين . ونزلنا ضـحوة على جيثين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد . فانه انتقـل بعـد ايام الى رحمـة الواحـد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال . ورحلنا يوم الاثنين وجـئنا ضـحوة الى بيسـان . وازال حلول السلطان عنها البؤس واشـاع الاحسـان . وصـعد إلى قلعتهـا المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت في حضانة الحصانة . وكان جبلهـا لوثـوقه مسـتودع الامـانة . والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب . ولم يزل حتـى بين كيفية بنائها ورتب . وووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهـر ظهـرا وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيهـا وصـوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خـرج مـن الاسر . وتلقيناه بـالبشر والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتـوافر الانداء . وتـواتر الانواء . ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصـعد السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحبش . وهـي عامرة محتوية على سكانها . كأنهـا العش ، وسرنا منهـا وخيمنا على مرج تبنين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . واصـبح السـلطان حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتطيا قـلة قلعتها ولاسـباب اختلالها مميطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصـالحها بـكفايته منوطة . وسدادها بسداده منوطا . ثم رحلنا بكرة السـبت وجـزنا على قلعة هـونين . ونزلنا مـن الجبـل . وبتنا على عين الذهـب واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الاحد وخيمنا بمـرج عيون . وجلس السلطان على عادتـه معنا في تـدبير الممـالك تلك الليلة وسـهرت العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى . وقطعنا في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مـرج تلفياثـا

مقابل مرج القنعبة . ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة . ثم اصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الاربعاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد اصحرنا الى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعماء . ولما جن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الانوار . وسرت اسماعنا منه اسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الاسعار ، ودخل السلطان يوم الخميس الى بيروت ، وانجز بالوصول اليها وعدة الموقوت ، ونزلت الاثقال على مرح قلميطية بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والايداع .

ذكر وصول السلطان الى بيروت ودخول بيمند الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر سامة

ولما وصل السلطان الى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب وظل خصيب ، وسماحة اريب وسجاحة لبيب ، وفتحت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسبلها وما قيد اطلاقها وقرى واضاف ، وادنى القطاف ، واصفى العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألطاف ، وفرق على الصغير والكبير التحف ، واحضر للسلطان ولكل من معه الطرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود وافنى ، واعطى الخيل والمماليك والجواري والملابس ، وبذل النفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابكار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جريا

على كرم الشـــيمه ، ومـــن الجـــوخ الافـــرنجية والثياب البندقية ، والهنايات الفضـــــية والأكواب اللجينية ، والسروج واللجـــم ، والأكســـية والحـــزم ، والمهـــاميز والملاليط والغفافير ، والعروض والدراهـــم والدنانير ، ففـرق مـن ذلك مـا جمعه • ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفعه . وما انفصـل عنه الاكل مواصل بشكره ، مسـاجل امثـاله بـذكره ، مضـوع كل ناد الكرام بنشره ، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصـال ، وذلك في يوم الســبت الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابـرنس الأنطـاكي قـد وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمـل العصـمه . داخـلا حـكم الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام ومـا ارتحـل ، واذن للابـرنس في الدخول ، وشرفه في حضرته بـالمثول ، وقـربه وآنسـه ، ورفـع مجلسه ، وأظهر له البشاشة والهشاشة ، وسـكن مـن روع روعه الحشاشة ، وكان معه مـن مقـدمي فـرسانه اربعـة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهـم تشريفـا سريا ، وأجـزل له ولهـم العطاء ، وابدى بهم الاعتناء.وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصـحابه بمبـار ، واعجبـه استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فـلا جـرم تلقـاه بـكل احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافـق مـراد السـلطان انه بمراده وافقـه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرتـه مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله للمؤانسة والامتاع ٠ وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهززنا منه اعطاف الآلاء ، واستدنينا قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهل والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس ،،وقد شرح الله الصدر واطاب النفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشق من سبق التلقي والاستقبال ، واظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين الينا مسالكها ومذاهبها ، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجرى المتلقون في التحفي بالتحف على العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشق وقد اخرجت اثقالها ، وابرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخرج كل من بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الأعين ، واقرت بفواضله الألسن ، وذاعت اسرار السرور ، ورقت حبرات الحبور ، وطابت الأنفس ، وغابت الأبؤس ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم ، وافترت المباسم وهنيت بموسمه المواسم ، وتهوديت التهاني ، وهديت الأماني ، وغنت المغاني ولذت المجاني ، وسفرت المجالي ، وظفرت المعالي ، وتحلت الأحوال ، وتملت الآمال ، وراج الرجاء ، وارجت الأرجاء ، وفاض الجود ٠ واستفاضت السعود ٠ وعم العدل ٠ وتم الفضل ٠ واشرقت الافاق ٠ وآفاق الاشراق ، وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في

موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيها ، واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف العافي ، وتمت على السن الانام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستدعي ، وأجاب واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الاسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى طبرية ، ولقي من السلطان الالطاف الخفية ، ووصل معه الى دمشق واقام الى ان خلص اصحابه من الاسر ، وتوجه الى مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وافتراره ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاب سرح سلاح اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وائتلاق انواء انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق اشجاره ، وانفتاق كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه . وانتظام منثوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف اعشابه ، واستماع حفيف اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شمائله ، واقتبال قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صبابه ، وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتنسم ضمير ضميراته ، وتصور خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتفوف حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا طاب النسيم ونسم الطيب ، ودعا البلبل ولبى العندليب ، وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني الجيني . وحلى النضير النضاري ، وبقل العذار البنفسجي . واشتعل الخد الجلناري الناري ، ونجم في الروض النجم السمائي المائي ، وابتسم الثغر الاقاحي ، وتنسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري الشجري ، وتأرج النشر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتشى النشأ الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشعاب ، وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت، الصبا في محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الأصحاب الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الأيمان كل مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض اهل الجد وجد النهوض ، وفاضت المنابع ونبعت الفيوض ، وضرب السرادق السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل ، والجد يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي.والوني يعزل ، ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرت على اعناق اطوادها جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب ناكت ، والهتوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن حزين ، وللسماء سماط ، وللنشاص نشاط ، وللسحاب حساب ، وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، وللبرد من ثلجه برد . وللمطر في نهجه طرد ، وللغيث عيث ، وللوحل ريث ، وكانون قد اكن الربا • وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة مشبوبه ، وحدود الذكب مذروبه ، وخدود الترب مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتهز في العمر للفرص ، مبتز بالبزاة والصقور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطـائر طـارح ، يدني اجـل الحجـل وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهـي الغـرام ، وكل شـهم ينقض انقضاض السهم ، ويبط بـطن البـط بـالحزم ، وأكثـر الجلوس بـدمشق في دار العـدل ، واغزر لمنتجعيه در الفصل . وحـكم وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقـف وامضى ، ومـا منع بـل اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووا وفد وافاد ، واحسـن وزاد ، واغنى واقني واجـدى واسـدى ، وأولى وولى ، وأجار واجاز ، وحـاز وفـاز ، وقـرب العلمـاء ، وأكرم الفضلاء ، وفضـل الكرمـاء ، وتـكلموا عنده في المسـائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وماكان احسن الى الحق اصغاءه ، وأسرع الباطل إلقاءه • ولكل ذي فضل منه حظ • ولكل ذي حفظ منه حفظ • ولكل محـروم منه رزق ، ولكل مـرزوق الى حمده سـبق ، ولكل فهـم عنده سـوق ، ولكل سـهم عنده فـوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتـب عدم مـن جـوده أعتاب ، ولكل مـكرمة عنده بـاب ، ولكل دعوة عاف مـن اسـعافه جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهـداء ، ولكل سـائل نائل ، ولكل مـاحل وابـل ، ولكل ظـام ري ، ولكل حـائم ورد هني ، فما أسح مزنه ، وماأصح وزنه ، وماأسمح يده ، وماأوضح جدده ، وماأعلى جده، ومـاأجد علاه ، ومـاأجدى كفـه ومـاأكفى جداه ، وماأكثر حياءه وأغزر حياه ، وأرج ربـاه،وأبلج محياه .

وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بـن مسعود بن قليج ارسـلان ، وكانت وفـاته يوم الخميس منتصـف شعبان .

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما ، وقصـد بـه لمناد امر ذلك الجانب تقويما ، فقـوي كل منهـم في ثغـره ، واسـتقل بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاسـتبداد ، ومـد عينه الى مافي يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قـد استحكمت قواه . واسـتطال هـواه ، وهـو حينئذ متـولي سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسـعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفـراس ، وصـور له انه يريد ان يستولي على الملك ، وينفرد بـانتهاج المسـلك وانتـظام السلك ، وساعده صاحب ارزنكان وأمـن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان ان يقصد ديارہ ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فـاستصحبه صاحب ارزنكان ، وأوقع عليه في الطـريق التـركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلمـا عرف ملكشـاه أن وجـه والده خلا ، وأنه عن حسن بـن غفـراس سـلا ، سـاق اليه ، وأخنى عليه ، ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحـوز حـوزته ، وقـوي بعـزته ، وعز بقـوته ، وقـال لوالده انا بين يديك ، واشـفق عليك ، وأنفذ أوامرك ، وأوفـر مآثـرك ، وقتـل أمـراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لايشتهيه ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بـالسلطنة معـه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفرى ، وقـرع وقرا ، وقـطع وبـرى ، وقـد مضى حـديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهـم في وهـن الاسلام ، واسـتصحب معـه والده الى قيسـارية ولقسر اخيه نور الدين سـلطانشاه وحصره ، واظهـر انه بـأمر والده وأنه شـاد ظهره . وخرج عسـكر البلد وصـف ، ووقـف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصـل ملكشـاه الى قـونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بـالسلطنة ، وبقـي قليج ارسـلان يتـردد في بلاده ، وفي ضيافه أولاده ، وينتقل مـن بلد الى بلد ، ومـن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صـاحب بـرغلو فقـواه وأزره وضـافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله.وجـاء بـه الى قـونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجـاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه مـن المرض الثقيل في خفة ، حتـى دخـل المدينة وقلعتهـا ، واجتـازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلفهم ، واستمالهم وتألفهم ، ثم اظهر لهم وفاة ابيه وأنه وارث ملكه ومتوليه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه اخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام ، ويؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها اليه ، وعول فيها عليه ، ومابرح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد امرهم الى سداده ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل الى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل الى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمنائح ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشييد الدعائم وتقرير العظائم ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجح الأنام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضــلاء ، ومــوالاة الأولياء ، ومصــافاة الأصـــفياء ، واعداء الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخــرج عن حــكم الجلد ، وبرز الى الصيد شرقــي دمشـــق بـــزاد خمســـة عشر يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معــه أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ووافــق مــراده القنص ، ثــم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافــق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقــي ، وســعاداته في التــرقي ، ولما لقــي الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ماتمناه ، وســألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصــلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجــاورين والفقــراء ورواتبهــا وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقاه بــالاكرام وأنزله في كنف الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صــفر في مجلس عادتــه ، ومجلى سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحــدثه ، ثـــم صـــلى بـــه وبنا إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا باحسانه مغتبــطين ، وبــامتنانه مرتبطين ، وأصــبحنا يوم الســبت وجلســنا في الايوان ، ننتــظر خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضــل ان يجلس موضعه على الطعــام ، فجــاء وتصـــدر وتـــربع في دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من تلك الحال وتفالنا بحد ذلك الفـــال ، ودخلنا اليه ليلة الأحـــد للعياده ، ومـــــرضه في الزيادة ، وتوفي بــكرة الأربعــاء الســابع والعشرين ، ونقله الله في دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجــال ، وأظلم بغروب شمسه فضــاء الأفضــال ، وغاضــت الأيادي ،وفــاضت

الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الآمن وخاب الآمل ، وقنط السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، وذكر المعروف ودفن بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى ، ولا أجد قلبي من سقم الهم وسكره صح ولا صحا ، وحالت حالي وزال ادلالي ، وبطل حقي واتسع خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهرة ، والعيون شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسه ، والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف منهجا ، وظن الغنى عني ، واختلف في ضن الاحلاف بي ظني ، حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام ابيه ، وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري ، والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلي دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة • وأغزرت البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة ، وأبقى له مآثر أثيرة ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في خزانته سوى دينارا واحدا وستة وثلاثين درهما ، فانه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما ، وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول ، فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولاجبه أحد بالرد اذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطي وأن كان يبطي . وإنه يصيبه بالذوال ولايخطي ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وادناء الأولياء ، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ، وذهبوا وما آبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والباس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وابرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتائب . وفرض المواهب . واجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأدنى وابعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

فقصل ووصل . وأحســن وعدل .وقضى وحــكم . وامضى وأحــكم .
وأحضر نواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحــل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقى إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمــر بتخليده .
وأجد جدي بتجديده . فجــاءني كتــابه الكريم بــكل كرم مــكتوب .
ومحبوبه من الرفد محبوب . ورعى في عهد الوالد . واضاف الطارف
عندي من العــرف الى التــالد . هــذا وأنا غائب . وبــرائي رائب .
واسواء كاتب ونائب . ومااحوجني في النوال الى السؤال . وأغناني
عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلي الى تســيير القصــائد
والرسائل . وما اغرب بدار فواضله حاول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومــن بــايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حانثين . ولعقد ايمــانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب .
وجهز جيشا جائشا . وبعثــا لعثــار الدولة ناعشــا . في كل مقــدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى
دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمــد أعود والعــود أحمــد .
وسيأتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومــارفع الله مــن
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابــو الحســن علي ولد الســلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفدت في الرجال نخائره . ورتب الامــور اجمــل تــرتيب . وهــذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجــلا السرير الســلطاني بنوره . واســفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهــدأ ومــلا بــالبشر المتبلج

والذشر المتأرج الملأ . وهذب واذهب . ورغب وارهب . ورتب وربت واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بحميته سر حمايته واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر . وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس . واشاع البر واعاش . واشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض . وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط . وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير اللاحظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ . وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . وامهى الرواعف . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السلك . وجلس في دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا . واستفاض بطهارة السجايا . وآوي اليه اخوته . وضم جماعته . وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا . واصحبه عسكرا مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل . وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع . وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخلة . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة . وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . ولسر صدقه ونشر صداقته منيعا مشيعا . فأحلى له الملك الافضل جنى شهياءواحله جنابا وسيعا .

وعقد له حبا الحب ، وحياه بكل ما سفر عن سفور مودة القلب . ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الأفضلي تابعا . فأدناه واجناه . واحبه وحباه . وأسناه وأسماه . وآواه وآساه . فتأكدت بينهم القرابة المتشجه . وتشبكت اللحمة المنتسجه . وتمهدت الآصرة الممتزجة . وتفتحت أبواب الالفة المرتجه . وتوافوا على التوافق . وتصادقوا على التصادق . وتعاضدوا على الأخذ بالتساعد . وتعاقدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب واعمالها وحصونها ومعاقلها . وكرائم البلاد وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين ابو الفتح غازي . وهو برجاحته وسماحته الطود والجود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقطارها واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحماها . وبماء العدل رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهز اعطاف العطاء . ورحب اوراده . ورواده رحابه . وسحب بحيا الاحياء سحابه . وابرت مبراته . واثرت مأثراته . وسح وصح غيثه وغياثه . ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغراثه . وزخرت امواجه . وزهرت بثواقب المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صبا صباحه . وعزت بسيرته كتب التواريخ . وعزى قلمه وسبقه الى عطارد والمريخ . وسعدت وفوده . ووفدت سعوده . وآثر من امره النفاذ . وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة الخواص . وتمهد لسلطانه الأساس . واطرد لاحسانه القياس . ووجد من عثر من ايديه الانتعاش . وعشا الى جدواه المجتدي وعاش . وفرض الفرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصالح

فارطها . وملك خلق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع . وخرق ورقع . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والنفاق ودمغ . وشفى واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن اللهو. وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكايد وأوهى . ووف للوفي . وصفا الصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . ودخل في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه . وهمت همته بالزيادة وسمت اسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى الى حصنه بالكرك للاستراحه، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية المتاحة . فنابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب . فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى الفرات . وجد مما خافه دلائل الفترات . فأقام بقلعة جعبر . ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووصى برعاياه الرعاه .

واستناب في: ميافارقين.وحاني.وسميساط.وحران.والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه . جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخفوا وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ماهم فيه فهموا وماكفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهلكتهم . واذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمات وماقدر الله لجمعهم من الشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في الذوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنفار . وضم اليه من ماردين ، ماردين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش . فبينا هو في اتم غرور . وانم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . واذهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدر انه داخل الى مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكأن ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادىء بالخروج متولى ماردين فانه مرد . وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال مادرين . حين كان اهله عليه ماردين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه . وأضافه الى نائبه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجحفل الحفل . واضافه اخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستدفرهم . ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد . فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب . ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتنم واهتم . وجمع عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك . واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل لقدومه منتظر . واما المواصلة فانهم ماسرعوا بل ابطأوا ، وماصابوا بل أخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية متوافيه . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجذبوا وتجبذوا وكانوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبنوده . ومساعديه وسعوده . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب . وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال اليزك تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره المكتوم . تفليل غروب القوم وتقليلهم . وحار تأملهم وخار تأميلهم . وجفل رألهم ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر . واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا ان يتبدل ماالم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولمن وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع . وتشفع بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفح له عما مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلا الضو . وعلا النو . وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات . في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ماذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم ذخائرها . فجاءت الرسل العمادية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسنى السلم عن الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم وماداری . فبسط عذره . وقبض ذعره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب الينا ان اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزار ديناري . فلم يرضوا بايالته لخلاط ولم يروه كفوا لتلك الهدي . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامد الحصر يمتد . فعاد الى حران والرهاء واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في اخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين الذين حالوا عن الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن خلق التلافي الى الاتلاف . وبدوا بالانتظام في سلك الغدر شمل الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم . وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي الخدم من انعام امير المؤنين صلوات الله عليه ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها . واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصيبوا اذ لم يصيبوا ببصائرهم وابصارهم . ودخلوا في دائرة السوء وخرجوا من ديارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحاسدين الحاشدين . ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السداد . واثقا منهم بالمواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق . وهو في خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه معشره . ولم يصف لدفع الشوائب وردع الذوائب مورده ومصدره . فلما عرف نكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجموع . وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بذو اخيه في الجذود . وتوافوا نجدة ساعدت السعود وامد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصار المتناصرة . وندب الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضه . وسار معه عسكره الذي بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القوم . وانهم من حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . واذفق في العساكر وجهزها . وذكر عدة النجدة فانجزها . واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . وماجت البحار ، وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز اياته في اهل الشمات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ، وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ، وحطه من بقاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على اعقابهم ناكصين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارابهم ناقصين واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعادة خارقة . وقدرة لاقدار الاولياء السعادة خالقه . وقتلهم وماقاتلوا ، وقابلهم وماقابلوا . و غادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتفكرين . وعلم صاحب ماردين انه اخطأ وما اصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ، واجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وبيعتها المستحقة . وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وماالسعادة الا لمن شملته سعودها . وماالجد الا لن وصله جودها ، وماالكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، وماالعصمة الا لمن لزمت في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر الملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ماالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم . والخطب الجسيم . والرزء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والذكبة الناكية . والطارقة الطارية .

والملمة المؤلمة والبلية البـارية . والواقعـة الرائعـــة . والصــــدمة الصادعه . والحدثة اللافحه . والروعة الفادحة . والغمة التي غامت بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام . فقد عدمت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور ســدادها . والامور سدادها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه ســفورها . والصــدور انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضــلت العلياء محجتها . واهتــدى الضــلال الى الهــدى . وأقـــوى نادي الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنى . وأمــرت مجاني المنى . وخفيت مناهــج المناجــح . وعطلت مناهــل المنائح . وعميت مذاهب المواهب .واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابــواب الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمســت زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضــطرمت الدهياء وبــطلت مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهــاد . وتفجعــت ممــالك البــلاد . وأخلفــت عدات الاعداء على الاعداء . وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجــراه الله مــن قضــائه المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجــل . وحــل عرى الجلد حين حــل . وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضــلوع . وبــت حبــل اللاجين . وشــت شـــمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث . وحبــاؤها غثــاث . وعقــودها انكاث . وســـهولها أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومــواهبها احــداث . وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبطتها ندم . ووجودها عدم . وبقــاؤها فناء . ونعيمهــا بــلاء . وراحتهــا عناء . وملكها هلك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حــرب وصلحها فتك . ووفــاؤها غدر . ووفــاقها مــكر . وعرفهـــا نكر . ووصلها هجــر . وخيرهـــا شر . ونفعهــا ضر . وجبــرها كسر . ومتاعها قليل . وباعها في التطاول طويل . ومــالعثارها مقيل . ولافي ظلها مقيل . ولارب فيهــا لأريب . ولا البــاب فيهــا لبيب . فــان

ظلها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيها خدع . وحليها عطل . وسعيها زلل . وإجداؤها إجداب وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقدها مفسوخ . وعهدها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبار . ويسارها إعسار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شعث . وشيمتها عيث وعبث . وترابها تراث . ولالمسكنها اساس ولالساكنها اثاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولالمكرها في جد مكرها جدد . والسعيد من استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الاخرة من الازواد . ومن نظر اليها بعين القلى . وعرف انها دار البلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الاعراض عن جدواها الفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عائفا . ومن ملكها آنفا . وعن مالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين . وخصه الله بتاييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى . (ونهي النفس عن عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) (النازعات : ٤٠ ـ ٤١) ووقف حياته على احياء معالم الهدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . واشاعه سنن العدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضل والافضال . حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الامال . واخلص لله عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقه وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:(من كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . ووهب لاعطاف الدولة التباهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقدار . فازال عن مشارع الشريعة الاكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك . ونهج في نصره الدين نهجا اعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها ديارها وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معاقلها . وطال بحقه على

بـاطلها . واقصى عن المسـجد الاقصى مـدنسيه . وازال عنه ايدي غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعـد عنها اجناس الانجاس . وقهـر الكفـر وخـذله . ونصر الايمـان واخذله . واحيا الكرم كل سنة حسنة . واستمرت محـاسن ايامـه سنة بعد سنة . وتعدلت بعدله الجوانح . وتذللت بباسه الجـوامح . ودانت ودنت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحـكمه الامـاني العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته . ونفـذت في الشرق والغـرب مـراسمه . وقامت بالحمد والشكر مـواسمه . ووفـت بـامل الداني والقـاصي والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه امله . وولى في كل اقليم من يعمل لله في العدل والاحسان عمله . ثـم توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائح الظفر . صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مـرتويا مـن صوب الصواب . مبتهجـا بنصرة النعيم . متـارجا بعـرف نسـيم التسنيم . وما كان ابهـج الايام بـايامنه . والاعصـار بمـزاينه . والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والآفاق بسني احسانه . وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده . فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السـماح فـلا جـدوى ولا جنى . وغاض البحر فلاغنى . وهـو الطود فلا ثبـات . وذوى الروض فـلا نبات . ووهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جدد ٠ وغلب الكمد فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولاقوة ولا عضـد . إنا لله وإنا اليه راجعون . ولأمره تـابعون ولحـكمه طـائعون . ولا راد لارادتـه . ولاصاد لمشيئته . ولاصادف لمصادف قضـائه . ولا صـارف لصرف بلائه ولقد كادت الاذوار تغرب . والانواء تعزب . والمنابـع تغـور . والصنائع تبور . والاحوال تحول ٠ والاهـوال تهـول . واضـواء المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق . وازهار الروض لاتؤنق .ومعـاقد الاسـلام تهـي . وميامـن الايام تنتهي . لولا ان الله تدارك الارمـاق بـألطافة . وتـلاف الامـال باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعـد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على النفوس . واجرى الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من استمرارها على الالئام . واستقرارها في النظام . واستدرارها بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شموسها من الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد أصولها في منابت النمو . وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار . وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت . وانتظمت الالفة المتبددة وتاكدت . وسكنت القلوب الراجفة وانست . وسكتت الالسنة المرجفة وخرست . وانارت الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجمة والافكار المنقسمة . وزاد الرونق وزال الرنق .وانجلى الغسق . وتجلى القلق .واستقامت الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر ° وشد الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة . والمتابعة والمشايعة في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتمم . ووصل المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من كل شاغل باله ورفه اسراره . واراح افكاره . وما في الجماعة الا من خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع . فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفقت في حال الصدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكايد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرأفة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه وعدله . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهرزوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه . فما تهيا مسير الرسول الا في اواخر جمادى الاخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لايظن انه انفرد بسوله . وقصد مدارة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني بانشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

- ٦٢٢٧ -

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللفرض متقبل . وبالطاعة ماثل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمت بما قدمه من الدوات . واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذه عصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وفاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق اوان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ماكدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه آية الآياه وألم بألم الامل . وأحال الحلى الى العطل . وحلأ عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام . وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشبت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على أنها ماشيمت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلئما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الاقوى الأوقى . فانه لايحتفل بحفول

أخلاق أهل الخلاق . ولايتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجـدها الله بأن الوالد السعيد . الشديد السـديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مسـتنيما في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز بـه المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشـغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه . فـكم قبض يدا بسـطتها بـالفتنة الفـئة العادية . وكم فرض سـنة أعلنت سـناها للمجتلين وأحلت جناهـا للمجتـدين الدعوة الهـادية . ولكم أخـرس دعاة الأدعياء وحـرس ولاياته الأولياء وكانت بكتائبه وكتبـه سـيوفه وأقـلامه للأقـاليم أقاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد،وأمطر بلاد الكفر مـن دمـاء أهلهـا شآبيب . وأقام بها منار الاسـلام ومنابـره لما أناب عن أعوادهـا أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجـدها بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهـذه فتـوحه تفـوح بنشر النصر وتضوع . وعقوده تـروق في سـلك الملك وتـروع ومصر بـل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة،والانجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة والبيت المقدس مـن فتـوحاته . والملك العقيم مـن نتـائج عزماته . وتوفره على العبودية لمالك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفـر حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظـاهرا على العـدا . ناصرا الهـدى معليا معـالم العلى . محييا مـواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه مديما بـأعباء الطـاعة بقـدر الطاقة نهوضه وهـو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقهـا . وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمـع عبـدة الصـلبان وقصـم اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لهـا على يد كل ذي عتـو . واسـتمرت على الأيام مسـاعية في الخـدمة ناجحة . ومعانيه على مـوازين الموازين راجحـة.وسـيرته حسـنة وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة • وسريرته طاهرة • وختـم الله له بالسعادة،وتوفاه على الوفاء بـالعبودية والعبـادة . وقضى وقـد

قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محوط . ووزره محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه بحفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة • والاسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال حالية . والاعمال راضية . والمصالح مصونة . والمناجح مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب مصدودة . واصول الدولة ثابتة . وفروع الدوحة نابتة . وماترك أمرا بعده غير مستقيم ولانهجا غير قويم ، ولاخلاف لمن خلافه مايحتاج الى تقريبه وتقريره .ولاأبقى لمن بقي له مايفتقر الى ترتيبه وتدبيره . وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على اساس وصاياه . ولاأمضيت العوائد الا على قياس سجاياه ، ولاأبرم الا ماعقده ، ولاأحكم الا ماأكده . واقتفيت آثاره، واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . واتمرت في ائتمار الاوامر الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصرة . ومايفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من الفخار . وبعثه من آلائها الغزار . ونعشه برفعة من العثار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولايتسم بالملك الا من يتسامى بأنه لها مملوك . ولايوصل الى السعادة الأبدية الا مسلك الى رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالمماليك أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على الرعب • مغلول بقيد السلم عن الحرب • فان الله أجرى المشركين مع كثرتهم علي حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن علي الهدنة ، وهم لايؤمنون اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في

غرائزهم مفروز ، والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله في العزم متيقظ لمخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل مايفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في أموره . مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوته من ايدها وأياديها قوي بظهوره . مدل بما له من المواتت الأكيدة . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبوله . والذرائع الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وان فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول . عول على القاضي ضياء الدين في المثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله . والاسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالابلاغ ، وملية باشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه اليه . واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه . ولازالت ايادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق . موقوفا عزمه في الأعداء بافناء الآجال وفي الأولياء باجراء الارزاق . وماعقر في سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض مالكه بمثله . وزاده من فضله . وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد ، للحاضرين معه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر الف رأس من حصان وحجر • وأكديش طمر وذلك غير ماأطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال • ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه • وماحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده • فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعر في الجهاد اجتهادا ، وكان لايلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالأحكام الشرعية . والأسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الأخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . تقيا نقيا . وفيا صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولاصد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب آملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشتغلا بمهماته . فلما وصل سأله عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجوا والحوا . وضنوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

منقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفري معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين.أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولاذكرها . واراه كأنه ماعرفها على ان صاحب الديوان ما انكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صفوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة آلاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضمار يقول.قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار.

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظركم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعنيت بهم خلقا مني ورسما فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت أفكر وأردد النظر اليه وأكرر فسألني ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلمي بقسمة اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا الفى توقيعا بخطي علم فيه . ولم يقف بذشره على سر مطاويه . الفا بما الفه من صحبتي ومناصحتي . وكفاء الملمات وكفاية المهمات بكفايتي . وكان يأمرني باجابة كتب الملوك واصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني مراده . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فأتي بمداناة الأغراض ومداواة الأعراض وموازنة الجواهر والأعراض . والتمييز بين اهل القبول واهل الاعراض . فكم اصلح قلمي بينه وبين من عاداه .وراض الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه واجنادة اعف من الزهاد والعباد . ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فاذكر حل الحلية . وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتي انجع . ومدد مدادي انفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسلاح قلمي أجذ وأحد وافتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحال لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتب بعدها عنده الا من دواة الشبه . وتجنبت طرق الشبه وتركت المحلاة مخلاه . وعادت الشبهية مجتباه مجتناه . وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به من حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم . وكنت لملازمتي اياه يقدمني اماما في الصلوات . ومستشارا في المشورات . وكان يأخذ بالشرع ويعطي به . ويذفق من حل المال وطيبه . ويجود بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود . فما تتجدد جدة الا ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجم مصغيا . ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبول لمنطق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف ولا يتطير ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم توكل على الله . وأقبل على محكم امره واعرض عن مظان الاشتباه . فكم فل سفه ذي الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . ومازال ناصرا التوحيد . قاهرا جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سنى السنه . مستحليا جنى الجنه . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه . ويقصي اهل التشبيه . ويديم استفادة فقه الفقيه . واستزانة نباهة النبيه . ووجاهة الوجية . فالعالمون في عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

في برسعيه . والاسلام في حمـاية حميتـه . والدين في ادالة دولتـه . وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومـادة المودة له وافية بـوفائه . وقامت بعده طريرة طريه . ومـن العـار عريه ، وببر البـرية مـن الشائبات والشائنات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه . فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضـلها وظـاهرها، وفخـرت بمفاخرها . ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها ، والسماء في زواهرها . والحمـد لله مجـري الاقـدار ومصـفي الاكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الايراد والاصـدار ، وسـلم تسليما كثيرا آمين

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

(١) مطموس بالاصل .
(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
(٣) مطموس بالاصل

(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
(٥) طمس بالاصل بثلاثة اسطر .
(٦) مطموس بالاصل .
(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لايعلم الان مكان وجودها ، سوى أنه سبق المرحوم المختار السوسي ان أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال اضاف لي لغة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وقديما وجد ابو شامة - صاحب الروضتين -. التعامل مع البرق الشامي أمرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل الكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك - انظر الروضتين : ٢ : ٧٤ - ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

١ ـ الحيعلة : قولك حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، القاموس
٢ ـ الوخش : الرديء من كل شيء ، ورذال الناس ، القاموس .
٣ ـ كرثة الغم : اشتد عليه ، القاموس .
٤ ـ طفر : قفز ، القاموس
٥ ـ الد أماء : البحر ، القاموس .
٦ ـ النهيت : الزئير . القاموس .
٧ ـ سحابة دلوح : كثيرة الماء ، القاموس .
٨ ـ الريح تحركت فهي ذؤوج ، وللريح نئيج : اي مر سريع ، القاموس .
٩ ـ بلخ : تكبر ، القاموس .
١٠ ـ بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
١١ ـ في وادي الاردن قرب عقبة أفيق .
١٢ ـ الاوام : الدخان ، القاموس .
١٣ ـ السلت : القطع والاستئصال .
١٤ ـ ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
١٥ ـ البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
١٦ ـ يقق ، ابيض القاموس .
١٧ ـ طحرت العين : قذاها ، القاموس .
١٨ ـ اي تنعدم الاقوات فيها .
١٩ ـ الأمره : الابيض ، القاموس .
٢٠ ـ اي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
٢١ ـ حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
٢٢ ـ الأطعمة التفهة : ماليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
٢٣ ـ المدنر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
٢٤ ـ السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
٢٥ ـ الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
٢٦ ـ الحلاحل : السيد الشجاع ، القاموس .
٢٧ ـ الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
٢٨ ـ العنق سير فيه تبغتر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
٢٩ ـ الأرى العسل ، القاموس .
٣٠ ـ لثق يومنا : ركدت رمحة وكثر نداه ، القاموس .
٣١ ـ الأوام : العطش ، القاموس .
٣٢ ـ أمهى السمن والشراب : أكثر ماءه ، وامهى الحديدة : احدها وسقاها الماء ، القاموس .
٣٣ ـ انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
٣٤ ـ اللوب : العطش ، أو استدارة الحائم حول الماء وهو عطشان لايصل اليه ، القاموس .
٣٥ ـ أبهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

٣٦ ـ الضفو : السبوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .
٣٧ ـ رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ ـ السونقيق : الصقر أو الشاهين ، القاموس .
٣٩ ـ تتفل : أزبد ، القاموس .
٤٠ ـ حدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .
٤١ ـ خطا لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ ـ باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ ـ كذا بالاصل وهو وهم فلعله أراد قوله تعالي « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ ـ الكنهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ ـ السني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ ـ اي الثغرية أو الحدودية .
٤٧ ـ الغرب : النشاط والتمادي والحدة ، القاموس .
٤٨ ـ السنور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ ـ الدأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ ـ الجماء : الغفير النهاية لابن الاثير .
٥١ ـ التأريث : الاغراء بين القوم وايقاد النار ، القاموس .
٥٢ ـ القونس : مايوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ ـ التامور : علقة القلب ودمه ، النهاية لابن الاثير .
٥٤ ـ الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ ـ حزا : خمن أوحزر وقدر ، القاموس .
٥٦ ـ ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ ـ المشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ ـ الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

المحتوى

